الدكتور عبد الفتاح أبو زايدة

الإيمان

وحقيقة العبادة في الإسلام





WORLD ISLAMIC CALL SOCIETY
Association Mondiale de L'Appel Islamique

الإيمـــان
وحقيقة العبادة في الإسلام

الدكتور عبد الفتاح أبو زايدة

الإيمـان
وحقيقة العبادة في الإسلام



الإيمان وحقيقة العبادة في الإسلام

الدكتور عبد الفتاح أبو زايدة

منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

طريق السواني - طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى
هاتف: 65 - 4808461 - بريد مصور: 4800293 - ص.ب: 2682 طرابلس
Website: www.islamic-call.net
E-mail: media@islamic-call.net



الطبعة الثالثة: 1378 من وفـــاة الرسول ﷺ (2010) مسيحي

الرقم المحلي: 468/ 2009 دار الكتب الوطنية - بنغـــازي

الرقم الدولي: ردمــــــك ISBN:978 - 9959 - 28 - 252 - 1



مقـدمـة الطبعة الثانية

بين يديك أيها القارئ الكريم الطبعة الثانية من هذا الكتاب، بما فيها من إضافات لم تؤثر على منهج الكتاب ولكنها زادت من تعميق بعض الأفكار فيه.

وقد أحببت في هذه المقدمة أن أتحدث عن مصدر الإيمان والنص المقدس الذي شرعت العبادة فيه ألا وهو القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على محمد بن عبد الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ليكون دستور الإسلام وكتاب هذه الأمة لتطبيق ما جاء فيه.

عاش العرب في جاهليتهم يعبدون الأوثان، وتشتت عقائد الناس بصورة عامة، فأصبحوا في حاجة إلى عقيدة مقدسة يجتمع الناس حولها، ومن هنا نزل القرآن الكريم يدعو إلى توحيد الله وعبادته ويسخف عبادة الأوثان ويحرم

الشرك والكفر تحريماً قاطعاً، ويكشف أفاعيل الأقوام الذين حرفوا الكتب السابقة التي أنزلها الله عليهم.

وقد اهتمت رسالة الإسلام بتخليص الإنسان من العبودية البشرية ونادت بتحرير العقل من قيود الجهل والتقليد الأعمى بحيث لا يكون الإنسان إمَّعة، ودعوة القرآن إلى العلم والتفكير والتدبير كثيراً ما تتكرر في سوره الكريمة.

ومن يقرأ تاريخ الحضارة الإسلامية يجد أنها تأسست على العقل والمنطق والموضوعية فأصبحت رافداً مهماً للحضارات الإنسانية تأخذ وتعطي، والعلم بجوهر الحياة واستكفاه أسرارها أمر اهتم به الإسلام أيّما اهتمام، ولهذا فإنه أعطى العقل منزلته اللائقة لأنه مناط الوعي والرشد والتبصّر والتمييز والإدراك.

إن القرآن الكريم يخاطب العقل والقلب، ولذا فإنه خلق صلة قوية بينه وبين قارئه، وينبغي أن نعلم أن معاني القرآن تتراسل من كثرة تلاوته ودرسه، لأنه ليس كأي نصّ آخر يمكن أن تنتهي منه بدراسة أو دراستين، فكلما ازدادت قراءتنا للقرآن ازدادت معرفتنا به، ويشعر المؤمن أنه في حاجة دائمة إلى القرآن يتعبد ويتفقه ويتعلم، ومن ثمّ يترسخ إيمانه في نفسه، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ

لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21].

وينجم التأثير من قدسية القرآن بما احتواه من عبادات وشرائع ومعاملات وقصص بأسلوب معجز يؤكد عظمة هذا الدين بهذا القرآن الذي يهدف إلى إنقاذ البشرية من الضلال والفساد والطغيان.

ومن هذا الإيمان انفتح العقل العربي الإسلامي على القرآن دراسة وتفسيراً وعملاً، فاتسعت مدارك المسلمين، وأصبح من تاريخنا الحضاري ركن مهم للدراسات القرآنية، وقد ارتقى القرآن بالعقلية البشرية فصار محطّ اهتمام العالم، ومعنى ذلك أن الإسلام يعطي الجوانب الإنسانية قدرها ويؤكد فيها المشاعر والأحاسيس والإبداع.

تحدث القرآن كثيراً عن الإنسان وكرامته ومميزاته، وأكبر فيه تفتح قلبه لنور الإيمان وتطلعه إلى صقل تفكيره بالتأمل والتدبر، ومن ثم فإن هذا الإنسان هو المؤمن الذي عرف طريق الحقّ فاتبعه، وقرأ القرآن فسكنت نفسه، وشعرت روحه بالراحة والطمأنينة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا

رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: 2 ـ 4]. وفي هذا تكريم للمؤمن الذي يرتقي بعقله، ويسمو بعمله، ويحق له أن يبدع في مجال الفكر الإنساني، حتى لا تتوقف عجلة الحياة.

إن النظر بعمق ووعي في القرآن الكريم من شأنه أن يزيد من نفاذ البصيرة، ومن إمداد العقل بمزيد من الإحساس بالمعاني والأفكار ليصبح أكثر نقاء وعطاء.

إننا مطالبون بأن نقرأ القرآن ونحاول فهم ما يمكننا منه كي نتمكن من تطبيقه تطبيقاً سليماً. وحتى ندرك ما فيه من قيم ومعاير لا تنفد ولا تنتهي، بل تظل جديدة على الدوام، وهذا من بين جوانب الإعجاز القرآني، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: 23].

هذه لمحات عابرة أحببت أن أقف عندها ليكون حديثنا عن الإيمان والعبادة، حديث التطبيق وليس التجريد والله تعالى أسأل أن أكون أديت بما أقدم بعضاً من واجبي.

طرابلس في 20 ـ 1 ـ 1998 إفرنجي

مقـدمـة الطبعة الأولى

تظل البشرية متطلّعة إلى يوم تتخلص فيه من قضايا اضطربت معها حياتها، كما يتمنى الإنسان أن يجد ما يريحه من حيرته في البحث عن العدل والمساواة، ولأن الأمر يصل في تعقيده إلى حدٍّ كبير فما على الإنسان إلا أن يفتح عينيه على الحلول الجذرية التي يقدمها الإسلام للناس كافة، ولن يكون هناك من خير أفضل مما أراده الله تعالى.

ويبرز دور الإسلام في تناوله لأجزاء الحياة كبيرها وصغيرها متجمعة ومتفرقة، ويقوم على منهاجه التجديد فيها حتى لا تترسب الأخطاء وتنتج آثارها السلبية، وحتى يتمكن الإنسان من الرسوّ بقلبه وبصيرته على شاطئ الإيمان منهياً بذلك رحلة قلقة من الاضطراب والفوضى.

ولكي تظهر هذه المفاهيم على المستوى العملي، فإن على المسلمين بذل الجهود الجادّة في عرض المقاييس الصحيحة للأخلاق في الإسلام، ليتم بذلك القضاء على الأطماع التي تقتات الأرواح والأجسام وتحطم النفوس والأخلاق.

إن الوعي الذي بعثه الإسلام يتمتع بقابليته للترعرع والازدهار، ولا يمنعه من ذلك إلا غفلة المسلمين عن حقائق دينهم، لهذا فإن النهضة المطلوبة لإنقاذ الإنسان ينبغي أن يقوم بها المسلمون، ويتحملوا التبعات الملقاة عليهم، وأن يسيروا بالقوة الفاعلة والهادفة إلى البناء الحضاري بصورة كلية، والتي تجعل من العمل في إطار الإسلام شعوراً إنسانياً عاماً.

إن حاجة الإنسان إلى هداية تنقذه من الضياع والهلاك جعلت الحاجة إلى الدين لازمة، كما جعلت كل التعقيدات التي وصلت إليها البشرية الحاجة إلى الإسلام ملحة ليكون ديناً للناس كافة أمراً لازماً فكان القرآن الكريم المعجز في لفظه ومعناه الأساس في التشريع الإسلامي، أوحاه الله إلى نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليبلغه للعالمين، فاقتضى ذلك أن يكون الرسول محمد خاتم الأنبياء والرسل.

وعلى هذا فإن الإسلام ثورة شملت مجالات الحياة المختلفة، يقيمها على التوحيد والعبادة والأخلاق.

لقد انصبت هذه الدراسة على بيان أهمية الإيمان باعتباره حقيقة وجودية أبدية، كما اهتمت بتوضيح القيم والمبادئ التي نستقيها من حقيقة العبادة في الإسلام.

هذا وأرجو أن أكون قد أدّيت بعضاً من واجبي تجاه ديني وأمتي، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

تمهيد

الإيمان نعمة عظيمة مَنّ بها الله تعالى على الإنسان العاقل، لأن الإيمان معرفة، والمعرفة الحقيقية تفكير سليم، ولذا فإن الكافر جاهل، تفكيره قاصر ومحدود، لا يدرك حقائق الأمور، وتغيب عنه أشياء كثيرة في هذا الوجود، ويتمحور الإيمان حول عقيدة التوحيد، ومنها نؤمن بما أمر الله تعالى أن نعمل به، ونترك ما نهى عنه، نقبل على العمل بكل رغبة، ونبتعد عن الشرّ بكل اقتناع لأنه يؤدي إلى التهلكة، وعندما يكتمل إيمان المرء يستطيع أن يقيم الموازين الصحيحة التي تمكنه من السير في الحياة والتعامل مع الناس.

وفرق كبير بين المؤمن وغير المؤمن، فالمؤمن منضبط في أفعاله وتصرفاته، متزن في سلوكه وأقواله، يحب الخير

للناس ويؤثرهم على نفسه، فلا يضرهم ولا يؤذيهم، بل يبذل من ماله ونفسه وجهده ما يستطيع لأنه يرى سلامته في سلامة المؤمن، وخيره في الخير الذي يلحقهم، كما يعلم أن الخطر الذي يصيبهم يصيبه، ووقت وقوعه لن يكون بعيداً عنه، ومن هنا فإنه لا يختبئ ولا يتوارى، بل يقدم ما يمكنه ليبعد الأخطار من ناحية ويبني مجتمعه بناء قوياً من ناحية أُخرى، معتمداً على يقينه بأن القوة من صفات المؤمن وأن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

ومن هذه الحيثيات التي تعدّ أسساً للإيمان في الإسلام تكون مسؤولية المؤمن في الحفاظ على العقيدة الإلّهية مهمة ودقيقة، لأنه يعرف أن من واجبه العمل على نشرها والدفاع عنها، فالأمانة التي يحملها المؤمن عظيمة ومقدسة ولا يجوز التفريط فيها ولا التهاون في أدائها، وكون المرء مؤمناً فإنه يتحمل من المسؤوليات ما ينبغي أن يقوم بها على أكمل وجه حتى تظل كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، وانظر بتمعن كيف أن الله تعالى جعل الأمة الإسلامية صاحبة هذه الأمانة في قوله الكريم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143].

وهنا يكون لوعي المؤمن بحقيقة الإيمان أثر بالغ في التمسك به والعمل من أجل ترسيخه والمحافظة على قوة المجتمع المبني على أسس الإسلام.

وبهذا المفهوم للعقيدة الإسلامية ندرك أن الإيمان يحقق للمؤمن شخصيته المثالية لأنه ينقّي نفسه، ويكبح فيها هواها، ويجعل منها قوة مانعة ممتنعة أمام الشيطان ووساوسه، وإن المؤمن لا يرضى أن تكون صورته مهزوزة أمام الناس، حتى لا يطمع فيه طامع، بل يحاول دائماً أن يكون عزيز الجانب موفور الكرامة ينظر إلى الأشياء بعقل متفتح ووعي قادر على الكشف والتحليل، فيزن الأمور بميزانها الصحيح، ولا يخضع لشروط تُملي عليه وتقلل من هيبته وتفقده جزءاً من شخصيته، بل يكون هو صاحب الأمر والنهي لأنه يعرف الطريق التي يسير فيها من غير عوج ولا انحراف، فقلبه ملئ بالإيمان مطمئن به، لا ينطوي على غلّ أو حقد أو حسد، بل يسع معاني الخير والصلاح والإصلاح.

وبلوغ المؤمنين هذه المرحلة السامية يثبتون عن جدارة حضورهم العالمي، ويعرف الجميع أن قوة المجتمع المؤمن تكمن في إخلاص أبنائه وصلاحهم، وتعاونهم

على ما ينفعهم، وفي دفعهم للأذى عنهم وعمن يلجأ إليهم، وتراهم قوة واحدة مبنية على العلم والعمل والضمير المتيقظ الذي لا يسمح لعوامل الهدم والتشويه أن تجد طريقها إلى هذا المجتمع.

وبهذا التكوين المتميز يندفع المؤمنون في هذه الحياة داعين إلى الخير عاملين من أجله لا يعجزهم شيء يكون في مقدورهم عمله، لأنهم لا يقصرون فيه، ويعملون جهدهم على تخطّي العقبات واحدة تِلوَ الأخرى حيث إنهم لا يعرفون اليأس ولا يستسلمون للعجز.

هذا هو الإيمان، نور يملأ القلب، وقوة تحيط بالنفس فتكون تواقة إلى العمل الطيب، كما أن المؤمن يتجاوز الأوهام إلى المعرفة واليقين، يبحث عن الحقيقة، ويجعل من عقله المتنور مرشداً، ومن بصيرته المتفتحة معيناً، كما لا يصيبه العجز عن بلوغ ما يريد، لا يصيبه الغرور عندما ينتصر في مجالات الحياة، فالإيمان ليس فكرة تروق للمرء ثم تتلاشى، ولكنه عمل متواصل نحو البذل والعطاء.

ويسعى المؤمن بفطرته السليمة التي صقلها الإسلام وأرشدها إلى طريق الخير جاهداً في سبيل نشر المثل والمبادئ التي جاء بها الدين، حتى يثبت للجميع أن

الإسلام دين الإنسانية كافة، يحفظهم من الشرور والآثام، ويدعوهم إلى الخير ويدفعهم إلى تحقيقه، ويفتح لهم أبواب التفكير، ويثبت فيهم سلامة المنطق، فيحمد له فكره وتدبيره.

ومع أهمية التأمل وفائدته للإنسان إلا أنه لا يكفي وحده، بل ينبغي أن يكون مشفوعاً بعقل يحسن التفكير، فتكون النتائج عظيمة الجدوى، فيتمكن من تحقيق ذاته على الأرض، ويبني نفسه بناء قوياً مادة وقيمة روحية ونفسية فيتحقق لديه التوازن بين المتطلبات الدنيوية والإعداد الحسن لليوم الآخر.

وهذا التوازن ينبع من الإيمان الذي يرسم النهج القويم القائم على الوعي والتعقل والتدبّر، وما أحوج النفس البشرية إلى ما يدعم فيها أسباب الطموح، ولا شك أن العاقل سيجد في ميدان الإيمان بالله تعالى وما أرسل وما أنزل وما قضى وما قدّر دافعاً وحافزاً قوياً للعمل في هذه الدنيا مستعداً للآخرة، متزوداً من خير ما يتزوّد به التقوى.

الفصل الأول

منهاج الدعوة الإسلامية

ـ 1 ـ

اقتضت حكمة الله تعالى إرسال أنبيائه ورسله إلى أمم الأرض. وكل رسول قبل النبي محمد ﷺ، وكذلك كل نبي كان يبعث إلى أمم بعينها، برسالة الهداية إلى طريق الإيمان، كي يتعرف الإنسان حقيقة العقيدة الإلهية، فتصفو نفسه وتتخلص من شكوكها وبحثها عن حقائق شغلتها في أصول هذا الوجود، وتسمو حياته، ذلك لأنه فارق الشك إلى اليقين، واغتني عن الباطل بالحق، فيغدو من ثم أمر المعرفة عليه ميسوراً، ويصبح التفريق بين الخير والشر في متناول مقدرته العقلية، وبما أن البشرية على عهودها المتوالية تحتاج إلى قوانين ثابتة تنظم حياتها، وتصل الإنسان في دنياه بالدار الآخرة، فإن الكتب السماوية قد

أنيطت بها هذه المسؤولية، ويقوم الرسل بتبليغ ما يوحى إليهم إلى الناس.

وتشاء حكمة الله تعالى أن يكون القرآن الكريم خاتم كتب الله، وذلك بما حمله من دلائل واشتمل عليه من براهين واضحة على أن الإسلام آخر الأديان السماوية، وعلى هذا الاعتبار الثابت فإنه دين الناس كافة، مقترناً بخاتم الأنبياء والرسل الذي أرسله الله رحمة للعالمين، فكان الأمر المنزل له: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾[1]. ثم كان الإخبار القرآني عن هذه الحقيقة يتمثل في قول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾[2].

وإن دراسة واعية متفحصة للقرآن الكريم تكفي كي يخرج الدارس منها بأن الإسلام دين ليس بعده دين آخر، وذلك بما حملت آياته الكريمة من الدلالات الواضحة والأحكام البينة الشاملة والمعاني المعجزة المتجددة ما توالت الأيام، ولو كان الأمر على غير ذلك لكان كافياً

---

(1) سورة يوسف، الآية: 108.

(2) سورة المائدة، الآية: 3.

تفسير أو تفسيرات للقرآن بتوضيح ما فيه، ولكن هناك العشرات من كتب التفسير الكبيرة التي لم يكشف أصحابها بها عن كل شيء في القرآن، والباب ما يزال مفتوحاً في هذا المجال ولن يقفل، وفي هذا أكبر دلالة على أن القرآن الكريم هو كتاب الإنسانية الخالد.

وأول ما يجب لفت الأنظار إليه هو الرد على رأي خطير يحمله أعداء يتصيدون في الظلمات، وذلك من خلال فهمهم الساذج والمعوج لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1].

يقولون قصد إبعادنا عن الدين، وقصد هدم الدين نفسه، ما دام الله قد حفظ القرآن، وتكفل بحمايته، فلماذا تتعبون أنفسكم أيها المسلمون وتبذلون جهدكم للمحافظة عليه؟! وقد نسي هؤلاء المغالطون أن المحافظة هنا تخص وتشمل أهل القرآن أي كل المسلمين، ومن هنا تدور خطورة الموقف المعادي الذي يتخذ من مخالفة الحقائق طريقاً، ولذا كان علينا أن ندرك المسؤولية التي علينا أن نقوم بها، وهنا نتساءل: هل يكفي المسلم أن يضم إلى

---

(1) سورة الحجر، الآية: 9.

مكتبته مصحفاً أو نسخاً من المصاحف النادرة (حسب طباعتها التاريخية، ونوع الخط الذي كتبت به) ويجعلها زينة بين الكتب، ويقتصر اعتزازه على القيمة التاريخية والفنية، وينسى أو يتناسى القيم الدينية الأصيلة التي نزل القرآن من أجل نشرها بين الناس؟

إننا نخشى أن ينسحب هذا التصرف والمفهوم على كثير من المسلمين ـ ونرجو الله ألا يكون قد تحقق هذا التخوف بالفعل، ذلك أن الهجمات ضد الإسلام أخذت تتضاعف يوماً بعد يوم، وخطرها أشد وأخطر من ذي قبل، خاصة وأن العدو يعزز هجومه الفكري بقوته المادية.

إن المعنى الذي يجب أن يفهم من وراء وجود كتاب الله في كل بيت من بيوت المؤمنين هو الإقبال عليه تلاوة ودرساً وتطبيقاً، أما أن يقتصر الحفاظ عليه بالكلام المجرد أو التلاوة في أوقات متباعدة سواء في مواسم ومناسبات معينة لشهر رمضان، أو يوم الجمعة على وجه التقريب، فإن هذا يعتبر تقصيراً ظاهراً، وإنما ينبغي على جميع المؤمنين أن يشعروا بثقل التبعة، وأن يهبوا للعمل الفاعل اللائق بمنزلة القرآن الكريم: «فقد ملك النفس شعور الحياة بالحاجة الماسة الملحة إلى تجديد تطوري يفهم به

الإسلام، الذي يقرر لنفسه الخلود والبقاء، فهماً حيّاً يتخلص من كل ما يعرض هذا البقاء للخطر، ويعوق الخلود، إذا ما صح العزم على هذا الفهم الجديد، ومن حق الحياة أن نحرص على سلامة هذا الفهم، وبقائه، ونجاته كذلك من المهاترات»[1].

إن هذا من شأنه أن يطمئن على أن العمل يجري حثيثاً لنشر كلمة الله، وإقناع الآخرين بحقائق الإسلام، وإبطال حجج الخصوم والمعاندين، وإلا فما معنى الإيمان بدون عمل؟! إننا عندما نتلو قول الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[2]. وغيرها من آيات الإيمان والعمل يجب أن نقف ملياً ونتبصر جيداً معنى الإيمان، والمؤمن على هذا التحديد هو الأعلى إدراكاً والأدق تصوراً لحقيقة الوجود.

فالإيمان بالله بالكيفية التي نص عليها القرآن الكريم،

---

(1) أمين الخولي، المجددون في الإسلام ص11.

(2) سورة البقرة، الآية: 285.

ووضح نهجها الرسول ﷺ. هو أكمل صورة للمعرفة بالحقيقة الكبرى. بعقيدة التوحيد، وهو الأكمل تصوراً للقيم والموازين التي توزن بها الحياة والأحداث والأشياء والأشخاص.

والعقيدة المنبثقة من المعرفة بالله، وبصفاته كما وضحها لنا الدين، والمترسخة بمعرفة حقائق القيم التي يتمحور عليها الوجود الكبير، هذه العقيدة من شأنها أن تمنح المؤمن تصوراً أعلى وأضبط من تلك الموازين المختلفة في أيدي الذين لم تسكن قلوبهم طمأنينة الإيمان.

إن مثل هذا التقييم لدور المؤمن في نشر الإسلام إنما قام على أساس العمل المتكامل، وحتى «العبادة في الإسلام ليست مجرد شعائر تقام، فهي في جانب منها دعوة إلى خدمات اجتماعية تنفع الفرد أو تنفع الأمة، ولا يستطيع باحث منصف أن يتلمس عزلة ما بين العقيدة والاجتماع في الدين الإسلامي»[1]. وعلى هذا فإن القانون الذي نسير عليه في الإسلام هو قانون العمل التطبيقي المتكامل الذي تقوم على أصوله تصرفات وسلوكيات المسلم، وما جاء

---

(1) د. عفيف الشرقاوي. الفكر الديني في مواجهة العصر. ص95.

الإسلام إلا ليقيم على تلك الأصول بناء المجتمع الجديد يؤطره بالإطار الخلقي. «وارتباط الفضيلة بالدين في مجتمع متدين يدعو إلى تمثلها والاستجابة لها، ولا تستطيع أية فلسفة نظرية في الأخلاق، أن تخلق فضيلة عملية لأن غايتها المعرفة فقط، على حين أن الفلسفة الخلقية عند المتدينين غايتها العمل والمعرفة معاً. ومن ثم كان للدين دوره الفعال في رسم مثل عليا يسير عليها المجتمع المتحضر، لأن الناس أكثر اطمئناناً إلى حكمه، واستجابة إلى أمره، وتمثلاً لرقابته، من أجل ذلك كان التدين خير ضمان لقيام التعامل بين الناس على قواعد العدالة والمساواة، لأن الأديان تربط بين قلوب معتنقيها برباط من المحبة والتراحم، لا يعدِله رباط آخر من الجنس أو اللغة أو الجوار أو المصالح المشتركة»[1].

وتوصيل هذه المفاهيم إلى نفوس من ندعوهم إلى الإسلام عمل جدير بأن يفتح عيونهم على حقائق في الدين ربما تكون قد غابت عنهم أو وصلت إليهم مشوهة، وعلى الداعية إلى الله أن يتمسك بأصول الحق ويلتزم الدفاع عن الدين.

---

(1) د. عفيف الشرقاوي. الفكر الديني في مواجهة العصر: ص95.

ويحضرنا قول أحد الدعاة هنا حين رفع صيحته الصادقة قائلاً: «ها هو الكتاب العزيز يذكركم بأنه تعالى شأنه وتقدست أسماؤه، ما جعلكم أمة وسطاً، وما اصطفاكم من بين أمم العالم إلا لتؤدوا هذه الشهادة بإبلاغ كلمة الحق إلى بني آدم كافة، بأعمالكم الصالحة، وأخلاقكم الزكية، وسياستكم العادلة المستقيمة، حتى تتم حجّة الله على عباده، ولا يمكنهم أن يجحدوا تبليغ الأنبياء، وبلوغ كلمة الحق إلى مسامعهم يوم يقوم الأشهاد»[1].

من هذا المنطلق تتضح مسؤولية المؤمن في الحفاظ على العقيدة الإلّهية، ونشرها والدفاع عنها، نقول: إن الإسلام يحب لأهله دائماً أن يظهروا بأحسن ما عندهم، وأن يمتثلوا لما تمليه عليهم عقيدتهم، وإن أية نظرة نرسلها على الإسلام نتعرف عظمة هذا الدين من خلالها، وهو الدين الإنساني الخالد الذي يعطي لكل إنسان حقه، «وإعلان القرآن حقوق الإنسان إنما يحمل رسالة إلهية لا يسع المسلم المؤمن إلا أن يقدرها وينصاع إليها، ويحققها ويمارسها بسرور وغبطة لأنها أمر يوجهه إليه ربّ

---

(1) أبو الأعلى المودودي. شهادة الحق. ص10.

العالمين»[1]. فالدعوة إلى الإسلام يجب أن نبتعد بها عن السطحية. لأن الإسلام دين يبحث في الجوهر ويتغلغل إلى الأعماق، وجرياً على هذا الأساس فإن على المسلم أن يتناول الأمور من جميع جوانبها، وأن يكون عميقاً في إدراكه ووعيه قوياً في عمله ودعوته حتى يكون على مستوى الأمانة ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[2].

نفهم من هذا أن مهمة الأنبياء تبليغ الدعوة الإلهية، ومهمتنا بعدهم مواصلة طريق الدعوة، وهي هنا ليست قصراً على مسلم دون آخر فالكل مكلف بنشر الدين وحمايته حتى لا يساء إلى العقيدة الإلهية، وذلك مثلما فعل «رجال اللاهوت المتعسف عند المسيحيين، وغلاة المتعصبين من المسلمين، أولئك الذين أبوا إلا أن يحجروا على تفكير الناس، ويقيموا أنفسهم أوصياء على عقولهم، وقد أساءوا إلى الدين وتعاليمه السمحة، بمقدار ما أساءوا إلى الفلسفة والعلم معاً»[3]. وحينما نعمل عملاً جماعياً

---

(1) د. محمد ظفر خان. الإسلام والإنسان المعاصر ص178.

(2) سورة البقرة، الآية: 143.

(3) د. توفيق الطويل. قصة الصراع بين الدين والفلسفة ص19.

منظماً على أصول الدين وهديه فإننا سنشعر بعزة المؤمن وقوته الحقيقية التي بوسعها أن تتحدى أعداء الله، فالاستعلاء بالإيمان ليس مجرد عزمة مفردة ولا نخوة تدفعنا مسافة محدودة ثم تتوقف. ولا حماسة فائرة سرعان ما تخبو، إنما هو الاستعلاء القائم على الحق الثابت المركوز في طبيعة الوجود، والقائم على الحق الحتمي وراء القوة البناءة، والله سبحانه لا يترك المؤمن وحيداً، يواجه الفساد والطغيان فينوء به الثقل، ويهده الهم والحزن، ومن ثم نستطيع أن نفهم التوجيه الإلهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

ـ 2 ـ

إذا علمنا أن الأمم الغابرة ما هلكت وذاقت وبال أمرها إلا لأنها أضاعت كلمة الحق فيما بينها، وانحرفت عن الطريق القويم الذي جاءت به الشرائع السماوية، أدركنا معنى أحقية الإنسان في الوجود، ذلك الحق الذي يقوم على الصدق وحمل الأمانة، وبغير أن يلتزم الإنسان طريق الحق فإن وجوده يفقد قيمته، وما ضربت الذلة على

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 139.

اليهود، وانحطت عليهم المسكنة إلا لأنهم كتموا شهادة الحق ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾[1]. كما ورد التحذير الشديد من كتمان الحق أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2].

وهنا يجب التنبه إلى ما تحذر منه الآيات القرآنية حتى نكون على بينة بما في كتاب الله، ويشترط في المسلم أن يكون واعياً مدركاً لما جاء في القرآن الكريم حتى يتسنى له تنفيذ ما يجب عليه القيام به، ومجانبة ما ورد النهي عنه، أليس هذا هو جوهر الدعوة، وهذا هو روح الإسلام؟ إن المعاني تتراسل من كثرة درس القرآن وفهمه، لأنه من المهم أن يكون الداعية على الصورة المثلى من الفهم الشامل للإسلام في العقيدة والعبادات والمعاملات، وأن يكون كذلك على الصورة المثلى في العمل والتطبيق، حيث إنه يعتبر القدوة التي ينبغي أن تتبع، فينبغي أن يكون كل عمل وتصرف وسلوك يتعلق به، يصدر عنه كاشفاً عن مؤمن صادق حقيق بحمل كتاب الله وتبيان تعاليمه، والسير على طريق الرسول الكريم.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 140.

(2) سورة البقرة، الآية: 42.

والإنسان القوي هو من يشعر أنه بحاجة إلى عقيدة يستشعر بها قوته، «فمبلغ الإحساس بالعظمة هو مبلغ الإحساس بالعقيدة الدينية، وصغر الكون في نظر الإنسان نقص في الشعور بظاهره وخافيه، ونقص من أجل ذلك في طبيعة الاعتقاد وطبيعة الإيمان، ومن هنا تكون الحاسة الدينية مجاوبة صحيحة للوجود العظيم الذي يحيط بالإنسان، سرمدياً بعيد الأغوار عميق القرار، وعلى هذا تكون العقيدة من مصدر الصحة لأنها تجاوب الوجود المحيط بالنفس الإنسانية، ولا تكون من مصدر النقص والغفلة عن حقائق الأمور»[1].

وإنه لكي يظل للإنسان حضوره الإنساني، وتبقى صورته البشرية محددة أمامه، وحتى يجد جزاءه، ينبغي أن يكون على طبيعته في جميع أحواله، فتظل له شخصيته التي عرفها في نفسه وعرفها الناس فيه، وإنه ليسعده أن يعرف الناس فيه أحسن ما يرضيه، وحتى يتحقق له ذلك، هل يجد غير طريق الإيمان ما يحقق له تواجده؟ وهذا ما يجب أن يحمله المؤمن في قرارة نفسه، وعلى الداعية أن يتمثل جوهر الإسلام، فيتمتع بإدراك ينبع من تقدير سليم لما

(1) عباس محمود العقاد. الله. ص19.

يحيط بالإسلام من أخطار، وما أكثرها من أخطار تتربص بالإسلام وأهله، تتوزع على محاور عديدة، منها التشويه الفكري والحضاري الذي تحمله بطون كتب المناوئين، ومؤتمرات ترعاها الكنيسة وتباركها المحافل الماسونية تحيك المؤامرت الخطيرة وتبث الدسائس التي تكشف عن مكر وتضليل، تتوجه كلها لتهشيم وجه الحضارة الإسلامية، ومنها الأطماع التي لا ترحم المقدرات في الأرض العربية الإسلامية. وإذا لم نرتفع باعتبارنا مسلمين بمسؤولياتنا أمام هذا الغزو الصليبي العنيف بأشكاله كلها، ستغدو الحرب أشد ضراوة والضرب أكثر إيلاماً.

كيف نستطيع إذن ونحن أمام هذه المواجهة حماية العقيدة ونشر الدين؟ ألم يحن الوقت بعد لتكثيف كل الجهود في سبيل الجهاد والدعوة؟ إن الأمر يتعلق بحياتنا ووجودنا. أليست العقيدة الإسلامية أساس حياتنا! أليس القرآن الكريم دعامة وجودنا؟ أليس الرسول ﷺ قدوتنا ومرشدنا، فكيف نحافظ على ما يحفظ لنا البقاء والوجود إذا تفشى الضعف بين ربوع المسلمين واستسلموا لأعدائهم؟!

علينا أن ندرك أن آصرة التجمع الأساسية في المجتمع الإسلامي هي عقيدة التوحيد، التي انبعث منها التصور

الصحيح لكل شؤون الحياة، ونبعت منها كذلك الفكرة المبدعة في تحديد أشكال الحياة وتجديدها، كما يتمخض عنها منهجنا الواضح في تناولنا بالمعايشة والاستثمار لأمور حياتنا المتعددة، وفهمنا هذا يمثل أعلى ما في الإنسان من خصائص روحية وفكرية. لأنها نبعت من روح الدين، وهي لذلك قادرة على منح القوة الفاعلة التي يندفع بها المؤمن في دعوته إلى الإسلام.

وفي إطار هذا المفهوم الحضاري نجد أن المجتمع الإسلامي يضم كل إنسان أسلم وجهه لله وهو مؤمن، والكل فيها أنداد يلتقون على ما شرعه الله تعالى، وحين تكون إنسانية الإنسان هي القيمة العليا في مجتمع ما، وحين تكون الخصائص الإنسانية هي موضع التكريم والاعتبار فيه. يكون هذا المجتمع متحضراً، وهذا ما يتوفر بالحقيقة والتأكيد في المجتمع الذي شكّله الإسلام والذي قام على المبدأ الصريح في قوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1].

وهذا المبدأ يكثف صفاء النفس، ويكبر فيها قوتها

---

(1) سورة الحجرات، الآية: 13.

الإيمانية، ويؤصل عزتها، ويزيدها تمسكاً بالحق، ويحفزها إلى الدعوة إليه، كما ينمي فيها وسائل الإعداد والقوة.

والقوة في معناها الخاص والعام كل لا يتجزأ، فإذا كنا أقوياء في أنفسنا وعلى أرضنا، فنحن في الوقت نفسه أقوياء في عقيدتنا، وأشد تمسكاً بقرآننا، وأكثر قرباً واتصالاً برسولنا، فالقوة هنا قام على تأسيسها الإيمان الصحيح القائم على الصدق والصبر ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[1].

في دعوتنا إلى الإسلام يجب أن نفهم كل الظروف التي نعيشها والتي تلتف من حولنا، فالهجمة الصليبية التي توجه ضرباتها إلى الفكر الإسلامي، وهي ترمي إلى حرمان المنطقة من مقدراتها، إنما تهدف إلى إسناد كل مظاهر الضعف الماثلة في العالم الإسلامي إلى الدين نفسه، وليس جديداً علينا ولا غريباً عنهم أن يرددوا ترهاتهم بأن الدين سبب في ضعفنا وتأخرنا، ولكننا بهذا علينا أن نتحمل عبء الوزرين معاً، وزر ضعفنا، ووزر التهجم على الدين

(1) سورة البقرة، الآية: 177.

الإسلامي نتيجة لذلك الضعف، حتى يكون في هذا التحمل حمل الأمانة كما يجب أن تحمل.

إن ما يجب أن نفهمه وندرك أبعاده هو أبعاد صراعنا مع القوى الصليبية وما تهدف إليه، وسبيلنا الأول هو تعمقنا في فهم الإسلام، فإن لهذا الدين منهاجه الشامل والمتفرد لكل ما يتعلق بالإنسان في حياته وآخرته، وإذا ما فهمنا الدين فإن حرصنا سيكون عليه شديداً، وهو يدعونا إلى القوة في كل شيء، وبالقوة نستطيع أن نحقق كل شيء، وقد كلف الله البشرية الإسلام حتى يستقيم أمرها، ولأن النفس البشرية بطبيعتها تنفر من التكاليف والقيود، وتنزع إلى الفوضى وتقبل على الشهوات والنزوات، فقد فرض الله على أهل الحق الذين آمنوا به والتزموا طريقه أن يقوموا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ﴾[1]. ثم الجهاد في سبيل الله لنشر كلمة الحق ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ﴾[2].

(1) سورة النحل، الآية: 125.

(2) سورة التوبة، الآية: 123.

وهكذا تظهر أخلاق الإسلام ومميزاته من خلال تتبعنا لتعاليمه، وهي تزيح الغشاوة عن القلوب حتى تتبصر، وتنير العقول فتجد طريقها إلى النضج الفكري فتعرف الحق، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

إن عظمة التأثير تنبجس عن قدسية كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإذن ألا يجدر بالإنسان أن ينسحب عليه هذا التأثير وهو قد امتلك ميزتي التفكير والإحساس؟

لعل دور المؤمن في الفهم والتوصيل والتبليغ قد اتضح الآن، وفي الوقت الذي يدرك فيه المؤمنون مسؤولياتهم، فيدعون إلى الحق لا يهابون في الله لومة لائم، حينها لن يخشى على الإسلام من خطر، بل سيدرك الأعداء أن قوة الإسلام تتهددهم، ويتأكد من ثم معنى الحضارة الإسلامية وقيمتها، ويتحقق بالفعل تحضر العالم الإسلامي.

---

(1) سورة الحشر، الآية: 21.

الفصل الثاني

الإيمَان.. وَحَقيقة الدَّعوة الإنسَانيَّة

ـ 1 ـ

الإيمان. . . وحقيقة الوجود الإنساني:

كان تصور الناس قبل الإسلام عن الله تصوراً محدوداً ينزهونه عن أشياء دون أخرى، ويصفونه في بعض الأحيان بصفات هي من طبيعة البشر، ويدلنا القرآن الكريم على سخف التفكير الذي ساد في تلك الأزمنة، يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[1]. كما تحدث القرآن عن أقوام اعتقدوا أن الدهر هو القائم على التصرف في الحياة والموت، فقال تعالى في هذا الشأن: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا

(1) سورة المائدة، الآية: 64.

ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[1].

ولأن التفكير الإنساني هو المخطط إلى القوة الدافعة للعمل البشري كان بيان طريق الإيمان باعثاً على التفكير الصحيح نحو إيجاد الأرضية الصالحة للحياة كما يجب أن تكون، «وظهر الإسلام وفحوى العقيدة الإلهية كما تطورت بها الديانة المسيحية أن الله الإله واحد من أقانيم ثلاثة هي الأب والابن والروح القدس، وأن المسيح هو الابن من هذه الأقانيم، وهو ذو طبيعة إلهية واحدة في مذهب فريق من المسيحيين، وذو طبيعتين إلهية وإنسانية في مذهب فريق آخر»[2].

ولأن الأمر كذلك في التجزيء للعقيدة الإلهية والتي تبعث على تفسخ الفكر الديني، فكان لزاماً أن يجيء الدين الذي يقضي على الخلافات التي تفشت بين أصحاب الديانات السابقة، «فكانت فكرة الله في الإسلام هي الفكرة المتممة لأفكار كثيرة موزعة في تلك العقائد الدينية وفي

---

(1) سورة الجاثية، الآية: 24.

(2) عباس العقاد. حقائق الإسلام. ص55.

المذاهب الفلسفية التي تدور عليها، ولهذا بلغت المثل الأعلى في صفات الذات الإلهية، وتضمنت تصحيحاً للضمائر وتصحيحاً للعقول في تقرير ما ينبغي لكمال الله، بقسطاس الإيمان وقسطاس النظر والقياس، ومن ثم كان الفكر الإنساني من وسائل الوصول إلى معرفة الله في الإسلام»[1].

وحينما يصل الإنسان إلى مرحلة الإيمان بشيء معين يعتقد به يكون بذلك قد خطا الخطوة الأولى نحو الاطمئنان إلى عقيدة يتلمس سبلها، وهو في هذه الحالة يثبت تواجده الإنساني في كونه قد تمايز تماماً عن غيره من الكائنات، وذلك لأنه سلك طريق العقل ضمن دائرة الحياة التي يعيشها، وليس من الجديد قولنا إن الإنسان يتميز عن غيره من الكائنات الحية بملكة العقل، ولكن الأمر يظل منوطاً بالدور الذي يكلف به العقل البشري، والذي يجب على الإنسان أن يهتدي به إلى الحقيقة، فهذا الجهاز الفكري يرتبط بأقوى الوشائج مع حاسة إنسانية خفية ودقيقة ألا وهي البصيرة.

---

(1) عباس العقاد. الله. ص166.

وبهذا التكوين المتميز والتركيب الدقيق يندفع الإنسان بفكره مخترقاً الحواجز التي تحول بين عقله وبصيرته، فتنكشف أمامه الحجب، وتغدو الحقائق قريبة إلى مفاهيمه، فلا شيء يعجز عنه العقل البشري في إطاره الإنساني، إذا فكر فيه ملياً وأوفاه حقه من الوعي والتبصر، لهذا نجد أن العقل البشري كان يتطور تلقائياً مع الديانات السماوية المتتالية، «وقد تطورت العقائد والعبادات مع تطور البشرية، فتتابعت الرسالات الدينية والأصل واحد، كل رسالة منها تقدم إلى البشرية ما تحتاج إليه في مرحلة من مراحل نموها المطرد، وتخاطبها بأسلوب غير الذي كان يلائمها في عصور خلت، ثم لما شارفت الإنسانية رشدها، ضمّت رسالات الدين الواحد بالإسلام الذي جاء مصدقاً لها، ومستصفياً منها ما رأى للبشرية المتدنية أن تصير إليه، ومنقياً جوهر العقيدة من الشوائب التي علقت بها على المدى الطويل»[1].

وبدون أن يهتدي الإنسان إلى الطريق السوي لينظم له سلوكه وحياته وينتهي به في نهاية المطاف إلى صحيح

---

(1) د. عائشة عبد الرحمن. الشخصية الإسلامية. ص170.

الاعتقاد، فإنه سيظل مضطرباً بين متاهات يضل في شعابها. وسوف تفقد حاسة البصيرة دورها الفاعل في تنوير الإنسان، ومن ثم يخسر الإنسان أهم مميزاته التي تحفظ له حضوره الإنساني.

ولكن عم يبحث هذا الإنسان؟ وما الحقائق التي جند فكره وإحساسه للوصول إليها؟ هنا تأخذ عملية التفكير دورها الخطير حيث تتواجد معاناة البحث، التي تبعث في النفس كثيراً من الانشغال لأنها استدعت من الإنسان قلقاً حرك فيه بواعث البحث، وكيف له أن يتعرف حقيقة الإيمان الفعلي التي تقوده إلى مرفأ الأمان لينهي مرحلة صعبة من الضياع والقلق والإرهاق؟

هذه المرحلة تتعلق بالإنسان بصفة عامة فيما قبل الدين، لأن الإنسان يود أن يجد نفسه ويجد فيها ما يرضي إنسانيته، وبما أن التوحيد هو جوهر العقيدة، ويحمل الرفض للعبودية البشرية في مختلف أشكالها، فهو يعتبر تحريراً للإنسانية من مهانة الرقّ والاستعباد، ولكن ماذا عن اليأس الذي يتسرّب إلى النفس الإنسانية في العصر الحديث نتيجة التقدم العلمي وما ينشأ عنه من صراع مادي يولد اضطراباً ويتسبب في أخطار تنشأ عن سوء استخدام العلوم

الحديثة؟ «ماذا يستطيع أن يتغلب على هذه الحالة من اليأس؟ هل هناك شيء غير الدين؟ ماذا يمكن أن يلهم ويوجه الاستعمال الصحيح لما وضعه العلم تحت تصرفنا من أجهزة وآلات رائعة؟ لا شيء إلا التسليم لإرادة الله، لا خضوعاً بليداً متخاذلاً لكل ما يحدث، ولكن تسليماً إيجابياً فعالاً لما تصرفه إرادة الله للإنسان، فنحن ـ إذن ـ في حاجة إلى الدين، ليهب لنا الشجاعة والهداية اللازمتين للحيلولة دون الكارثة الكبرى التي تهدد الجنس الإنساني، ولضمان التقدم الصحيح»[1].

ولكي تناط بالإنسان المسؤولية عن سلوكه وتصرفاته وعن مساره طال أو قصر في هذه الحياة، وحتى تختفي حجته أمام الله تعالى يوم الحساب، كان بعث الأنبياء والرسل، يرشدون الناس ويهدونهم إلى سبيل الإيمان، وحتى يقضي تماماً على التفسخ العقائدي الذي ساد الحياة قبل الإسلام كان «مبدأ التوحيد قفل القنطرة في التجربة الإسلامية لله، تستبعد الفصل بين العلم والإيمان، فبالنظر إلى أن كل شيء في الطبيعة، هو «إمارة» على الحضور

---

(1) د. ميلر بروز. الثقافة الإسلامية (كتاب) ص55.

الإلهي، تصبح معرفة الطبيعة كالعمل، ضرباً من ألوان الصلاة، منفذاً إلى الاقتراب من الله»[1].

وكانت بعثة النبي ﷺ تحمل رسالة المدد لقوى الخير والنماء، بعدما كادت هذه القوى تضمحل أمام شرور الوثنيات الطاغية، هذه الوثنيات التي تناست العقل البشري في أفق العبادة، ووأدت حريته في ميادين الفكر والبناء، وجعلت للخرافة محاريب مهيبة وسلطات مقدسة، فكان لا بد من هدم هذه الأبينة المتهاوية، فحلت «أركان الإسلام التي هي توحيد للذات الإسلامية في عبادتها لخالقها، وتوحيد للجماعة الإسلامية في ظل بارئها، وأركان الإيمان توحيد للذات بوحدة خلق الله المنظورة وغير المنظورة، فالإيمان بملائكته وعى وجود مخلوقاته الخيرة غير المنظورة، والإيمان بكتبه وعى وحدة الحقيقة التي أوحى بها جلّ وعلا، والإيمان برسله وعى وحدة الدعوة الإلهية التي كلف بها الرسل والأنبياء من آدم ـ عليه السلام ـ حتى محمد ﷺ. والإيمان باليوم الآخر وعى الأزل قبل الدهر وبعده، والإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره وعى

(1) روجيه غارودي. وعود الإسلام ص89.

احتمالات الإرادة الإلهية بكل ما فيها من خير، واحتمال الإرادة الإنسانية في تراوحها بين الخير والشر»[1]، والعمل الذي يتبع هذا الإيمان المترسخ يكون مثبتاً له وأساساً لضمان بقائه وصحته، فالإيمان كالغرس تماماً، ألا ترى الثمرة قبل ظهورها تحتاج إلى جهود متلاحقة في غراسها وسقياها، وتعهدها، حتى إذا استوت على غصنها ونضجت احتاجت إلى جهود أخرى في المحافظة عليها من آفات الغصن وأسباب التلف؟!.

وعندما تتضح طرق الهداية أمام الإنسان، يستبين عقله جوانب الإيمان من الكفر، وقد حرص الإسلام على أن يوضح طريق الرشد أمام التفكير، «فالإسلام في تكوين العقيدة أطلق للعقل عنان النظر، وفسح له في مجال البحث وشدد النكير على الذين أناموا عقولهم عن النظر والتفكير، وبالغ في تقريع أولئك الأشخاص الذين يبنون عباداتهم على التفكير الأعمى، فلم يحكموا عقولهم، ولم يطلقوها من قيودها بل تركوها مهملة معطلة»[2].

وبوصول الإنسان إلى هذا المفترق تتصاعد حركة

---

(1) د. حسن صعب. الإسلام والإنسان. ص40، 41.
(2) عبد الله غوشة. الثقافة الإسلامية (كتاب) ص102.

الصراع بين الخير والشر، الخير دلنا عليه الرسل وأرشدتنا إليه الكتب السماوية، والشر تكفل حمله الشيطان، وجند له أولياءه، بما يتقنه من وسائل هي من شأنها أن تباعد بين من غلبتهم أهواؤهم وبين طريق الله، فيكتب أتباع الشيطان على أنفسهم الضلال، وبهذه الصورة تتصالب كل أدوات الصراع في النفس البشرية، وتلتقي عند نقطة يتحدد عندها اتجاه الإنسان في عقيدته، وقد جاء القرآن الكريم يوضح هذا الموقف في قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ﴾[1] ونستطيع أن نفهم من نص القرآن الكريم أن الله سبحانه أبرّ بعباده من أن يتركهم على غير شرع، وأبرّ بهم من أن يشرع لهم العنت والعسر أو ما يشق عليهم ويقهرهم، فكان الإسلام دين الوضوح والبحث عن الحقيقة، «فالعقيدة الإسلامية هي عقيدة توحيد الحقيقة لأنها عقيدة الحقيقة الإلهية الواحدة التي أوحى الله تعالى بها لجميع الرسل والأنبياء، ولذلك اعتمد الإسلام الاعتقاد بالله وكتبه ورسله»[2].

---

(1) سورة البقرة، الآية: 257.

(2) د. حسن صعب. الإسلام والإنسان. ص32.

وبما أن التنازع العقدي قد استشرى أمره قبيل الإسلام، وتوزع الناس على طرائق متباينة من الاعتقاد، فقد جاء الإسلام يزيل هذا التباين، ويزيح ما خالط الديانتين اليهودية والنصرانية من تزييف وتضليل اجترأ على القيام بهما الأحبار والرهبان، «ومن ثم كانت العقيدة الإلهية في الإسلام مصححة متممة لكل عقيدة سبقتها في مذاهب الديانات أو مذاهب الفلسفة ومباحث الربوبية»[1].

وجاء الإسلام ميسراً للإنسان طريق الإيمان والتكليف المنوط به: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[2].

وكان صاحب الدعوة ـ عليه الصلاة والسلام ـ مضرب الأمثال في الخلق العظيم في دعوته وتبليغ أمانته ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾[3].

وتجب هنا ملاحظة أن الإنسان هو من يكتب على نفسه الهداية أو الغواية، لأن الأمر هنا قد تبين له وترك له

---

(1) عباس العقاد. حقائق الإسلام وأباطيل خصومه. ص61.

(2) سورة البقرة، الآية: 286.

(3) سورة آل عمران، الآية: 159.

الخيار، والإنسان السوي هو ما سعى بطبيعته المتطورة نحو الكمال، ولا ينتظر منه في هذه الحال غير الإيمان لتنمية طبيعته، والتوجه إلى الإيمان هو الباعث القوي الذي يضيء معالم الطريق نحو الله ومعرفة حقائق وأسرار في هذا الوجود، «وتجديد إيماننا بالمفهوم الإلهي والروح للإنسان، هو تجديد إيماننا بقابلية الإنسان للكمال، من خلال قابليته للتواصل مع الله، والإيمان بهذه القابلية مطلق من مطلقات يقيننا أي من مطلقات إسلامنا، وهو مطلق يكاد ينساه الإنسان اليوم تحت وطأة قضاياه العصرية الساحقة»[1].

إن يقينية الدين في لزومه وفاعليته تبطل حجة من يعلق إيمانه بمشيئة الله، لأنه في هذه الحالة يفرض المشيئة على الله عن جهل عنده، ولم يدر أن الله تعالى قد أراد الخير، وأن منزع الشر هو من الإنسان نفسه، وهذا التعليق يعتبر سفهاً بغير علم، وكان أولى بهؤلاء المماطلين والمعطلين أن يمتنعوا عن الأكل والشرب ـ على سبيل المثال ـ حتى يأذن الله لهم، وهم بالطبع لن يفعلوا ولن يعلقوا هذا الأمر بالمشيئة، وذلك لأنهم انصاعوا لدواعي أجسادهم التي تلحّ

---

(1) د. حسن صعب. الإسلام وتحديات العصر. ص42.

عليهم إلحاحاً حيوانياً، أما أرواحهم فلم يتنبهوا إليها وهي قفراء من ريّ الإيمان.

وأما الذين سكنت قلوبهم لنور الإيمان واستمتعت به، فقد جاء إيمانهم استجابة لداعي الخير، فلم يقعدوا عن طلب اليقين، فباتت قلوبهم عامرة بحبّ الله والخير. والإيمان رحلة عقلية وتأصلية في الحياة والوجود، يتجاوز المرء خلالها سراب الأوهام ويفتح بصيرته في هذا الملكوت الواسع يدرك من خلال تفكيره الصائب بأن عليه أن ينهي رحلته بالثبات واليقين، ومعنى هذا «أن التدين في الإسلام ليس دفقة وجدانية أو انفعالاً داخلياً، وإنما هو إلى ذلك ترجمة عن هذا الوجدان بأعمال يختلف فيها المسلم عن غيره»[1]، ويكتسب جانباً أدبياً عظيماً يليق وما فطر الله عليه الإنسان، على اعتبار أن ما طبع الإنسان عليه من غرائز هي في حاجة مستمرة إلى التهذيب، فالإنسان يحتاج إذن إلى مزيد من الترشيد، وهو يميل إلى الرحمة والشفقة، ولولا ما في الإيمان من قابلية تدعو الإنسان لأن يعلو نفسه بالرحمة، لما كان الإسلام المثل الأعلى للإنسان الرحيم،

---

(1) د. السيد أحمد خليل. دراسات في القرآن. ص159.

وكذا كان تبيان القرآن لجانب الرحمة عند المؤمنين بالغ الدلالة، فالمؤمنون أقوياء أشداء على الكفار، ولكنهم فيما بينهم نجد الرحمة هي أصل التعامل، حتى تظل البنية العقدية والأواصر الأخوية بينهم قوية لا تتزعزع، ولا يجد الشيطان طريقه إلى قلوب مؤمنة أصلاً انخفض فيها منسوب الرحمة.

. وحينما يستند الإيمان على الأدلة العقلية التي يتلمسها الإنسان من خلال تدبره في هذا الكون الذي يحتويه، فإن العقل يجد طريقه الواضح لإدراك ما في الكون من نظم عجيبة ومظاهر غاية في الإبداع، تدفع المؤمن إلى حبّ الاستطلاع والبحث عن كيفية تسخيرها لخدمة الإنسان، وبهذا يتحقق التوازن المطلوب في الحياة الإنسانية من خلال الفهم والتدبر. لذا فإن ما يقال هنا عن أصول هذه الحياة، هو «أن أساس حضارة الإسلام ليس هو تمجيد العقل كما هو الشأن عند الإغريق، ولا تمجيد القوة وبسط النفوذ والسلطان كما كان عند الرومان، ولا الاهتمام بالملذات الجسدية والقوة الحربية والسطوة السياسية كما هو الأمر عند الفرس، ولا الاعتداد بالقوى الروحانية كما

هو عند الهنود وبعض الصينيين، ولا الافتتان بالعلوم المادية والاستفادة من ذخائر الكون وبالمادية الطاغية كما هو منهج الحضارة الحديثة المتوارثة عن اليونان والرومان، وإنما أساس حضارتنا هو فكري ـ علمي ـ نفسي، يشمل جميع شعب الحياة الإنسانية، وبهذا كانت حضارة الإسلام مستقلة كاملة، ذات دستور محدد شامل تختلف به اختلافاً جذرياً عن مبادئ الحضارة الغربية وتصطرع معها كما تصارعت مع الحضارة القديمة فصرعتها؛ بسبب سيطرة الدين على القوى الفكرية والعملية، ولقوة روح الجهاد والاجتهاد به لأن الإسلام لا يعادي العلم ـ طريق الحضارة ـ وإنما يضع له المنهج الملائم لمبادئه»[1]. ومن ثم يكون الإيمان على هذا النهج قوياً مترسخاً لأنه بني على اقتناع وصدر عن وعي نتجت عنه راحة نفسية يتسنى بها للمؤمن أن يعمل في إطار هذا الإيمان، ويضحي في سبيل مبادئه، والمؤمن يكون مهيئاً على هذا النحو لخوض جميع الميادين قوياً عزيزاً لأنه امتلك القوة التي يندفع بها نحو البناء، وهنا ندرك معنى قوة المؤمن الحقيقية، فالإيمان لا

---

(1) د. محمد ظفر خان. الإسلام والإنسان المعاصر: ص38.

يتجرد من العمل ولا ينعزل عنه، وعلى هذا الأساس حذّر الله المؤمنين من مسلك الكهان، الذين عرف الدين في سماتهم البارزة، ولم يعرف في شمائلهم وأفعالهم، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1].

وتفصل الآية بين الإيمان الذي يريده الله، وبين الإيمان الذي لا يمتلك منه صاحبه إلا الصورة فقط، بل الإيذاء بواسطته لكونه يتوسل به، «ولقد ظلت البشرية المتدينة تعاني من هؤلاء الذين زيفوا الرهبانية قناعاً للفسق ومصيدة لاستنزاف الناس وحجاباً على عقولهم، وتسلطوا على عباد الله بكهنوتية عاتية، وأدّت روح الإنسان وأطفأت فيه قبس النور»[2].

وقد اهتمت رسالة الإسلام بتخليص الإنسان من هذه العبودية البشرية، بتحرير عقله من إطاره الضيق، فالعلم بجوهر الحياة وأسرارها يعتبر من القضايا الإنسانية التي وضع الإسلام حلولها، فجعل لها اعتباراً كبيراً، فمن غير التعقل وإعمال الفكر يقعل الإنسان في مغبة غياب الضمير

---

(1) سورة التوبة، الآية: 34.

(2) د. عائشة عبد الرحمن. الشخصية الإسلامية ص70.

الذي حجبه غياب الوعي في الأخطاء الفادحة، وهذا من أخطر الأمراض التي يتعرض لها الجسم الحضاري الذي بنته البشرية وتبنيه على مر الأيام، «أما العقل فهو الذي يحمي الإنسان من مثل ذلك الداء العضال، لأن العقل مناط الوعي والرشد والبصر والتمييز والإدراك، ومن ثم يرتبط الإيمان بالعقل في العقيدة الإسلامية ارتباطاً وثيقاً، فكتاب الإسلام يتجه إلى العقل في تأييد الدين وترسيخ الإيمان، والله يبين الآيات لقوم يعقلون، ويؤمنون، ويضرب الأمثال لقوم يتفكرون ويبصرون ويفقهون ويوقنون، ويسوق العبرة لأولي الألباب والعالِمين، لأنهم المرجوّون للنظر في آيات القدرة الإلهية، وتدبير النظام الكوني المحكم، والإيمان بأنه لم يوجد عبثاً، ولا يمكن أن يسير بتلقائية عشواء»[1]، وذلك لأن سلامة الإيمان يرسخها حسن التأصل في الكون ومدى إدراكنا لأهمية مظاهره وعظمة أسراره، فالإيمان في الإسلام ليس كما يظن البعض تعمية وتغطية، ولا هو بإيمان الغافلين، وعلى حدّ تعبير الشيخ محمد عبده بأن الإيمان عند العامة من الناس يطلق على ذلك الاستسلام التقليدي الذي لم يأخذ من النفس إلا ما أخذ اللفظ من

---

(1) د. عائشة عبد الرحمن. الشخصية الإسلامية ص148.

اللسان، وليس له أثر في الأفعال لأنه لم يقع تحت نظر العقل، ولم يلحظه وجدان القلب، بل أغلقت عليه خزانة الوهم، ومثل هذا الذي يسمونه إيماناً لا يفيد في إعداد القلب للاهتداء بالقرآن.

فإنزال العقل هذه المنزلة الخاصة في الإسلام له أهمية كبيرة على أساس أنه وسيلة الإيمان الصحيح، وبه يترسم الإنسان خطواته نحو تحقيق الأهداف التي يضعها نصب عينيه، حتى لا يتعرض إلى فشل يقعد به عن مواصلة الجهد، والنفس في حاجة دائماً إلى ما يدعم فيها أسباب الطموح، وقد حرص الإسلام على تقوية النفس المؤمنة، وذلك على اعتبار «أن الجهاد الأكبر هو كفاح ضد الذات، ضد الميول التي تجذب الإنسان بعيداً عن مركزه، وهو ما يقوده باجتذابه نحو رغبات جزئية إلى أن يصطنع لنفسه أوثاناً، وبالنتيجة يمنعه عن الاعتراف بوحدانية الله، والانتصار على هذه الوثنية الداخلية أصعب كثيراً أيضاً من الانتصار على المشركين في الخارج»[1].

ويتأتى الانتصار إن تمتع المسلم بإيمان قوي يحفزه مصمماً على التلبية، لأنه اكتسب قدراً كبيراً من الشجاعة

---

(1) روجيه غارودي. وعود الإسلام. ص45.

انبنت على ما أسس عليه قوته المشتركة من روحية ومادية، عاملاً على تجديد هذه القوة بصفة مستمرة، حتى إذا ما تعرض إلى محاولات الإغراء أو الضغط عن تحقيق طموحاته، يجد في نفسه من الإيمان ما يجعله قادراً على المقاومة، فلا تضعف نفسه، ولا يهن عزمه، فالضعف لن يجد مكانة في نفس كهذه تكثفت فيها عوامل القوة، وقد صور القرآن الكريم هذا الموقف للمؤمن القوي، حيث يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ * فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[1].

وتكشف الآية عن معنى جديد من معاني القوة الإيمانية، يبدو في قوة المؤمن التي تظهرها الأزمات، حيث إنها تفرز معادن الأفراد والجماعات والأمم، فقوة العدو لا تكون داعية إلى تثبيط العزيمة، بل يجب أن تدفع إلى المزيد من الاستعداد والثبات على المبدأ، وهذا ما نجده في قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا

---

(1) سورة آل عمران، الآيتين: 173 و174.

مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا * مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا * لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1]. ونجد الترحيب بالمؤمنين الذين برزت فيهم معالم القوة، وهكذا يترسخ الإيمان في النفس عندما يحملها المؤمن على الانقياد لسلامة التفكير، فيصعب تحويل المؤمن عن إيمانه بل يستحيل، ونذكر هنا موقف أبي بكر عند سماعه عن حادثة الإسراء، فقد قال لمن أبلغه النبأ: أو قد قال ذلك؟ لئن قال ذلك فقد صدق. فلما عادوا يسألونه: أتصدق أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وعاد قبل الصبح؟ فقال: نعم. إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك. من خبر السماء في غدوة وروحة، فلم لا أصدق فيما دون ذلك؟! ثم أسرع إلى الرسول وطفق يسمع منه ويصدقه ويقول أشهد أنك رسول الله. من ذلك امتازت درجة الإيمان عند أبي بكر ومن حذا حذوه، وكان تعبير الرسول ﷺ عن موقف صاحبه عظيم الدلالة حيث قال: «لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان الأمة لرجح إيمان أبي بكر».

---

(1) سورة الأحزاب، الآيات: 22 ـ 24.

قيم الإيمان تحتفظ بجدتها، ومنها تحقيق العدالة الاجتماعية، فالمؤمنون متساوون في المجتمع الإسلامي، فبعد تحطيم الرسول ﷺ الأصنام، وسعيه المتواصل إلى تثبيت عقيدة التوحيد، «حينئذ اتفقت أهواء العرب، وتوحدت غاياتهم وأصبح الضعفاء بالأمس أقوياء، والأذلاء بالأمس أعزّة، وإذا العرب يخرجون من شبه الجزيرة بالإسلام وبالفتح، فينشرون التوحيد والحضارة في أقطار الأرض ويبنون أعظم دولة بنيت، وينشئون أسمى حضارة أنشئت، ويعيشون أعزّ ما عاش قوم في بلاد غيرهم»[1].

وقد نتجت فعالية التوجه العملي هذا عند رؤية المؤمن أن كل الناس عند الله سواء، لا تباعد بينهم الفوارق الطبقية، فالبشر جميعاً يتساوون في أصل الخلق، ويتفاضلون بعدئذ بالعمل، وليس بين الله تعالى وبين عبد ما أو أمة معينة صلة خاصة، تبيح المروق من الدين، أو تسقط الحقوق المنوطة بأعناق المكلفين، ومن هنا جاء الإسلام يحارب العنصرية، ويزيل حدود الفوارق التي وضعها الناس بينهم، وعلى هدى العقيدة الإسلامية كانت التقوى هي الميزان الذي

---

(1) د. عمر فروخ. تجديد في المسلمين لا تجديد في الإسلام. ص141.

تتباين عنده الأعمال، وتظهر مقادير الناس، والنص القرآني صريح في تأكيد هذه الأفضلية: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1].

ويتجنب المؤمن إيذاء الناس، بل هو يدفع الأذى عنهم ما استطاع ذلك، لأنه أيقن أن الله خبير بما يعمل، وأنه سبحانه لا يظلم مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فالإيمان كله عدل ورحمة، «وهذا من أدلة الواقع على أصالة الدين حيث إنك تلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين الجماعة المتدينة، والجماعة التي لا دين لها، أو لا تعتصم من الدين بركن ركين، وكذلك نلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين فرد يؤمن بعقيدة من العقائد الشاملة وفرد معطل الضمير مضطرب الشعور يمضي في الحياة بغير محور يلوذ به وبغير رجاء يسمو إليه»[2].

والمؤمن لا يرتضي لنفسه أن تأخذ نصيبها الوافر من الطعام والشراب، وله جار يطوي من الجوع إلا أن يمد له يد العون، فيحيي في نفس أخيه أملاً خبا، ويعيد إليه طمأنينة طاردتها الفاقة، وبهذا يتحقق التكافل الاجتماعي

---

(1) سورة الحجرات، الآية: 13.

(2) عباس العقاد. حقائق الإسلام. ص23.

في رحاب الإيمان، وتترعرع المبادئ السامية وتتنامى أغصانها بعد أن غرسها الدين ورفدها القرآن الكريم بما يهبها ديمومة الحيوية، فتزول عن النفوس أوشابها، كل هذا يبرهن على أن الدين «لم يحل دون تكريم الآدمية، بما جبلت عليه من استعداد للخير والشر، للطاعة والمعصية، للهدى والضلال، فذلك من مقتضيات حملها أمانة التكليف الصعبة التي أشفقت منها السموات على رحابة آفاقها وشاهق علوّها، والأرض على سعتها وضخامتها وطاقتها المادية على التحمل، والجبال على صلابتها ورسوخها، وحملها هذا الإنسان باختياره على ضآلة جِرمه وضعف طاقته المادية بالنسبة إليها، فظلم نفسه بالعبء الثقيل، عن جهل بفداحة مسؤولية الاختيار وعسر الحساب»[1]. وحفظ الأمانة والقيام بها من شيم المؤمن، لأنه ينفذ العهد بينه وبين ربه، وأناس يقيمون الحق بينهم أولى أن يحفظهم الله تعالى ويدافع عنهم، ويهزم فيهم نوازع الهوى، وإذا نال المؤمن حظاً من قوة كان البرّ بعباد الله أول ما ينتظر منه، لأن نفسه تنطوي على قيم مثالية لا تتوفر في غيرها، معنى هذا أن الإيمان يقوم على تطهير النفس البشرية، ويرتقي بها

---

(1) د. عائشة عبد الرحمن. الشخصية الإسلامية. ص45.

نحو غايات سامية حتى تتكامل كل جوانب البناء في النفس وفي المجتمع، فنجد المؤمن يتقلد جانب الحياء، والحياء شعبة من الإيمان، يترفع بنفسه عن الدنايا والصغار، وعن متابعة الجاهلين ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾[1].

وأما من ينفذ ما يرسمه شيطانه له، فلم يعد يميز بين الغثّ والسمين، فهذا إنسان قد جانب الحياء، والحياء يرفضه، لأن الإيمان لم يسكن قلبه بعد، ويجدر بنا في هذا المقام أن نتذكر الشهادة العظيمة التي حظي بها الرسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2]، والرسول إمامنا وقدوتنا حيث كانت حياته مضرباً لأروع الأمثلة على التحلي بمكارم الأخلاق، فقد كان ﷺ نقي السر والعلن، طهور الظاهر والباطن، وخلقه في نفسه وفي بيته يطبع سيرته ومسلكه بين الناس عامة، والدعوة التي يعرض على الناس أصولها، كان أول الناس احتكاماً إليها وآخذاً بها، والرسالة التي حمل أمانتها ضبطت أحواله كلها سواء ما اطلع عليه الناس أو ما خفي عن عيونهم، وأولى درجات الحياء أن يأخذ المرء نفسه بالحياء من الله تعالى، وهذا ما علمنا إياه

---

(1) سورة الفرقان، الآية: 63.

(2) سورة القلم، الآية: 4.

القرآن الكريم، سواء عن الرسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾(1). أو عن الرسل بصفة عامة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾(2). أو عن المؤمنين في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾(3). فهل يجوز بعد هذا أن يأخذ الإنسان الحياء ممن هو مثله ولا يأخذه الحياء من الله تعالى؟ هذا هو خلق المؤمن الذي يوضحه ويبينه القرآن الكريم.

ـ 2 ـ

الإيمان . . . القوة والقيم في الحياة الإنسانية:

يقوم الإيمان في الإسلام على تخليص الإنسان من الحيرة والقلق لينتهي به إلى الأمان والطمأنينة، فلا يعود ممزق التفكير موزع الوجدان يمارس الحياة التي يشكل فيها مثله وقيمه، وفي فكرنا الإسلامي أخذ الفكر الديني أسسه

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: 37.

(2) سورة الأحزاب، الآية: 39.

(3) سورة المائدة، الآية: 44.

الثابتة واستقام على الأصول التي ترسخت مع مفاهيم الإسلام، وما دمنا نؤمن بأن الله عالم بكل شيء فإننا سنراقب أنفسنا في كل شيء. «وهو سبحانه يعلم ذاته ويعلم غيره، وغيره هو هذا العالم وما يجري فيه من أحداث، وما يحصل فيه من خير وفساد، وعلمه لغيره كعلمه لذاته جلّ جلاله.. لا يغير من وحدانيته ولا من تفرده في تدبير الكون وإحداث الأثر فيه، ولأنه خالق لا بد أن يعلم ما يخلقه، ولأن خلقه لا يتقيد بزمن ولا مكان، لا يقف علمه بما يخلق عند وقت معين، ولا مكان معين، فعلمه إذن شامل للذاته ولغيره، ومحيط بكل كائن في أي مكان وأي زمان، وعلمه لذاته من مستلزمات ألوهيته، وعلمه لغيره من مستلزمات كونه خالقاً، وإحاطته في علمه من مستلزمات تفرده ووحدانيته»[1]. وعندما يقوم إيمان الإنسان على هذا اليقين فإنه سيتمتع بحياة ينعم فيها بالفكر والتأمل، ويجد في نفسه القوة الدافعة التي تشعره بالعزة أي عزّة المؤمن بالله، ويرى في عمله القيمة التي يسره أن يجدها، يتمازج عقله وروحه منسجمين في إطار العقيدة

---

(1) د. محمد البهي. الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي. ص445.

الإسلامية ذلك لأنه تمسك بها، وعرف كيف يعمل على تثبيت الإيمان عنده، ومن هنا يتجه نحو صقل عقله بما أوتي من روح نقاها الإيمان، لذا فإنه سيقف على حقيقة الكون ووحدة الوجود «والإيمان بالله هو في جوهره رؤية لهذا الحق العلوي، وتسليم بفعله في كل ما هو موجود، فهو تحرر من الظاهر والمتغير والمتعدد، وتحرر من الزمان والمكان، وتسليم بالمطلق الذي لا يحده شيء، وما دامت هذه الرؤية ملء النفس ونور الحياة، لم يعدْ يرى الإنسان ذاته إلا من خلال الذات الفريدة المطلقة أي من خلال الله، فيعبده وكأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه»[1].

وهكذا يتسنى للعقل البشري أن يستضيء بنور الإيمان، فلا يضل في متاهات التفكير، بل يشق طريقه نحو المعرفة، ويكون المؤمن على هذا من العلماء العاملين الذين يحرصون على سلامة المجتمع وبنائه، وبه يتحقق الحضور الحقيقي للمؤمن لأن الصلة قد توثقت بين العلم والإيمان، وكثيراً ما قرن القرآن الكريم العلم بالإيمان في كثير من الآيات، في مثل قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

(1) د. حسن صعب. الإسلام وتحديات العصر. ص20.

مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[2].

من هذا ندرك أن الإيمان عقيدة وتفكير واقتناع، وعلم يثقف عقلية المسلم، «ولن يكون المسلم مؤمناً حقاً، ولا مسلماً حقاً، إلا إذا قام بواجب التعلم، ثم بواجب التفكير والاجتهاد والعمل المثمر والإنتاج الفكري، والروحي والعلمي، وبذلك يقضي على التقليد الأعمى والجهل وجميع آفاتهما الذميمة»[3].

إن موقف الإسلام الإنساني في تحرير العقل البشري ليجعل المرء يعجب أيّما إعجاب بروحه السمحة السامية، ونستطيع أن نشعر بالفرق الكبير بين ما يجده المسلم في دينه من دفع إلى العلم وتحرر من الجهل، وبين الحال التي شهدت الصراع بين رجال الدين المسيحي وبين رجال العلم في أوروبا، وقد تشدد رجال الدين باسم المسيحية في تعذيبهم للعلماء ما أدى إلى الثورة ضدهم، وأدى في الوقت نفسه إلى تقليص دور الكنيسة في السيطرة على حياة

---

(1) سورة المجادلة، الآية: 11.

(2) سورة فاطر، الآية: 28.

(3) د. صبحي محمصاني. الثقافة الإسلامية (كتاب) ص166.

الناس ومقدراتهم، وتسييرها لأمورهم وفرض الاتجاهات التي تروق الكنيسة عليهم، فحدثت الثورة في أوروبا، وكانت في بداية عهدها تبشّر بالخير، وقامت بالقضاء على الإقطاع في مناطق أوروبية عديدة، ولكنها ما لبثت أن تسلطت على الناس، وتمخض انحرافها عن ظهور طبقة برجوازية اتجهت اتجاهاً مادياً متسلطاً دون النظر إلى القيم الإنسانية، إن هذا التطرف من كلا الطرفين كان سببه تخلخل البنيان العقدي، وما دام الأمر كذلك فإن العبء يقع إذن على كاهل المسلمين في إعادة مجد الإسلام لإنقاذ البشرية مما آلت إليه، «ويبدو لنا الموقف الحضاري الإنساني الراهن بضوء معجزة التواصل العصري أقرب إلى التكامل التجددي الخلاق منه إلى أي موقف آخر، ويعني هذا أن على الإسلام وهو يجدد بنيته الحضارية أن يعاود اكتشاف روحه وجوهره الحقيقيين، وأن على الحضارة الحديثة وهي تنشر بنيتها العصرية في العالم كله أن تجدد روحها بالتفاعل مع الروح الحقيقية لكل حضارة تصادفها في طريقها، فتنبثق من ذلك روح حضارية جديدة ليست بشرقية ولا غربية، ولكنها روح إلهية إنسانية، وينشأ جوّ حضاري جديد، يلتقي فيه الله والإنسان من جديد بحرية

ومحبة، وهذا هو اللقاء الذي أراده الإسلام، وهذه هي الروح التي استهدفها»[1].

إن تصحيح المسار الإنساني لا يقوم إلا على أساس الإيمان الذي يكشف عن طريق مأمون العواقب، لأن المؤمن باستطاعته أن يواجه حالات الإحباط التي تهدد العالم بالتدمير والخراب.

وحتى يحافظ الإنسان على وجوده وقيمه وأهدافه، ويدفع غائلة الشر والسوء عن نفسه، كان لا بد له أن يكون واضح المبدأ والهدف، وفي عصر تعقدت فيه الحياة بمظاهرها المختلفة «لزم الناس أن يحسوا بالحاجة الخاصة إلى الإيمان بالربوبية في ذات إلهية لها كمالها المطلق ومشيئتها الباقية، فحاجتهم في هذا العصر إلى تلك العقيدة أمسّ وأقوى من حاجتهم إليها في عصر الدعوة المحمدية، لأن تزعزع الأساس الذي يسند قوانين العلوم الطبيعية لم يثبت ـ علمياً ـ كما ثبت في عصرنا هذا الموسوم بسمة التحقيق والتقرير»[2]. لذا فإن الضمير الإنساني يشعر

---

(1) د. حسن صعب. الإسلام وتحديات العصر. ص31.

(2) عباس محمود العقاد. الإسلام دعوة عالمية ص170.

بحاجته إلى الكمال المطلق والحكمة الخالدة بين أشتات من المعارف والفروض كلها مضافة إلى غيره وبعضها ينقض بعضاً في مدى عمر الإنسان.

وإذا لم يكن لدى الإنسان المبدأ الواضح الذي يؤمن به تنتفي عنده دوافع الحماية والتصدي، بمعنى أنه لا يعود مهتماً بالتفريق بين عوامل السلب والإيجاب في حياته، وتختلط عنده الأمور وتختل موازين الإدراك، نعلم من هذا أن الإيمان بالحق يدفع إلى التمسك به والحفاظ عليه والذود عنه، إذ ليس من السهولة بمكان أن يفرط صاحب الحق بحقه مهما تكالبت عليه قوى البغي، ومن ثم فإن المؤمن الذي نعرفه في حقيقته هو الذي شكله لنا القرآن الكريم، وقام الإسلام على بناء شخصيته، وهو الذي يسعى بصفة دائمة إلى تحقيق المثل العليا، وأول مجال ينبغي أن يلجأ إليه المؤمن يحقق في ميدانه مثله، ويمارس فيه قيمه هو ميدان الجهاد، وقبل كل شيء يتجه إلى نفسه، فجهاد النفس أدقّ درجات الجهاد، وبدون التغلب على هذا الخصم العنيد يصعب التغلب على العدو البشري، ومتى انتصر الإنسان على نفسه وغلبها على أمرها فسوف يظفر بحرية حقيقية تؤهله لأن ينطلق متسلحاً بروحه القوية إلى

ميادين الجهاد الأخرى بهذه النفس التي طوعها بإرادته القوية، ويبدو أن الشكوى قد تزايدت في العصر الحديث مما أصبحت تعانيه النفس البشرية من مشاكل أخلاقية تحد من حرية الإرادة عند الإنسان، وها هو أحد علماء الغرب يقول: «يبدو أن العقل نفسه لا يلبث أن يستسلم حينما تضعف الأخلاق»[1]. وهو نفسه يرد هذا الضعف إلى ما تعانيه الإنسانية الآن. فيقول أيضاً: «إن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية.. إننا قوم تعساء لأننا ننحط أخلاقياً وعقلياً»[2]. وماذا عساه هذا المفكر وهو يبحث هذه القضية أن يجد من حلّ لها؟ يعقب بعد استعراضه للمشكلة فيقول: «إن العلاج الوحيد الجائز لهذا الشر المستطير هو معرفة أكثر عمقاً بأنفسنا»[3]. ومع أن هذا العالم يطرق مشكلة إنسانية خطيرة، ويضع أيدينا على حل مناسب لإنقاذ الإنسان من هموم تؤرقه، إلا أننا نقول في الوقت نفسه بأن الإسلام قد سبقه وسبق غيره إلى وضع

---

(1) الكسيس كاريل. الإنسان ذلك المجهول. ص36.

(2) المرجع السابق: ص44.

(3) المرجع السابق: ص44.

الحلول للمشاكل الإنسانية هذه، ونبه إلى أن يقوم الإنسان بمعرفة نفسه حتى تكون معرفته بنفسه طريقاً إلى الإيمان، فقال الله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[1].

وتجيء التربية الإسلامية كي تعوِّد المسلم كيف يتحمل مسؤوليته عن طريق المعرفة، لأنه بالمعرفة يعلم ما يجب أن يعمله، «فالإسلام يرسخ مبدأ الإقرار بالمسؤولية، والإلزام بالحجة، وهو مبدأ سرى على الإنسان من بدء الخليقة، حذر الله تعالى أبانا آدم من المعصية ـ مع سبق علمه تعالى بأنه لن يلبث أن يعصي ـ إلزاماً بالحجة، وبعث رسله تترى إلى أمم البشرية، مع سبق علمه تعالى بأن من هذه الأمم ضالين ومكذبين، فتلزمهم الحجة ويكون الرسول على أمته شهيداً»[2].

ولأن المؤمن اهتدى إلى الوسيلة التي استطاع بها الانتصار فإنه سيبسط يد الخير على المجتمع الذي ينتمي إليه أو يعيش فيه، فينشر بين أرجائه السعادة وحبّ الفضيلة، ويقضي على أسباب الفساد والظلم حتى لا تشوب المجتمع شائبه اجتماعية تسفر عن أمراض تعضل

---

(1) سورة الذاريات، الآية: 21.

(2) د. عائشة عبد الرحمن. الشخصية الإسلامية ص137.

على الشفاء، فتعطل مسيرته، وتحول دون انتصاراته المرجوة في مجالات الحياة المختلفة، وهذا هو معنى القوة الخلقية التي يدعو إليها الإسلام، «فليس للأخلاق الإسلامية مقياس جامع من القوة، ولا من التوسط بين الأطراف، ولا من منفعة أمة قد تناقضها منفعة أمة غيرها، ولا من منفعة الأمم جميعاً، في عصر يتلوه عصر غيره بمنفعة أكرم منها وأحرى بالسعي إليها، فالدين الإسلامي بعقائده وآدابه، أو بجملته وتفصيله، يستحب القوة للمسلم ويأمره بإعداد عدتها من قدرة الروح والبدن، ولكنه يستحبها قوة تعطف على الضعيف وتحسن إلى المسكين واليتيم، ويمقتها قوة تصان بالجبروت والخيلاء، ولا ينال الضعفاء منها غير الهوان والإذلال»[1]. ومن ذلك ورد التحذير والتخويف من التكبر والغطرسة في القرآن الكريم، يقول الله تعالى: ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[2]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[3]. ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾[4]. وغيرها من الآيات الكريمة التي تربي في

---

(1) عباس العقاد. حقائق الإسلام. ص266.
(2) سورة النحل، الآية: 29.
(3) سورة لقمان، الآية: 18.
(4) سورة الزمر، الآية: 32.

نفوسنا معاني التواضع وتنهانا عما من شأنه تمزيق المجتمع.

وهكذا تظهر جدارة المؤمن في قدرته على تهيئة أسباب المنعة وعوامل البناء المدني والعسكري التي يدعو الإسلام إلى إعدادها المستمر. وعلى المسلم أن يدرك بأن مسيرة البناء يجب أن تأخذ طابعها العلمي المبني على تلقي العلوم المختلفة، فالقاعدة التي بناها الإسلام هي أن الإيمان مقرون بالعمل، وإيماننا بأن كل ما في الكون يخضع للقدرة الإلهية، وما على المؤمن إلا أن يعمل عقله فيه دافع إلى النظر والكشف عن علوم لا حدود لها، ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾[1].

«فالدين هو الذي ينطلق بالعقل في سعة العلم ويسيح به في الأرض، ويصعد به إلى أطباق السماء، ليقف به على أثر من آثار الله، أو يكشف به سراً من أسراره في خليقته، أو يستنبط حكماً من أحكام شريعته، فكانت جميع الفنون مسارح للعقول تقتطف من ثمارها ما تشاء، وتبلغ من التمتع بها ما تريد»[2]. فالدين دافع حقيقي إلى فهم أمور

(1) سورة الذاريات، الآية: 20.

(2) د. حسن صعب الإسلام والإنسان المعاصر. ص105.

الحياة، أما إذا كان من ملاحظة حول ما يعتري الأمة الإسلامية من تخلف، فهذا بطبيعة الحال لا يرد إلى الدين وإنما هو نتيجة للبعد عنه، وقعود المسلمين عن فهمه الفهم الصحيح، ولا يخفى ما تحاوله الأجهزة المعادية من استغلال هذه الظاهرة لمهاجمة الدين، والحقيقة أن «الإسلام لن يقف عثرة في سبيل المدنية أبداً، لكنه سيهذبها وينقيها من أوضارها، وستكون المدنية من أقوى أنصاره متى عرفته وعرفها أهله، وهذا الجمود سيزول، وأقوى دليل على زواله بقاء الكتاب شاهداً عليه بسوء حاله»[1]. فوسائل الإعداد في الدين يتصدر العلم الأهمية الكبيرة فيها، وما علم الله سبحانه البيان للإنسان إلا ليتعرف حقائق الاشياء والوجود، ويستغل مقدرات الطبيعة، وفي هذا تكريم للإنسان الذي عليه أن يدرك ما يدور حوله.

إننا عندما نسمع الأخبار العلمية المتعلقة بالدول المتقدمة، وأنها وصلت في أبحاثها وتجاربها إلى مسافات بعيدة، وقطعت أشواطاً متلاحقة، فإن هذا يحزّ في أنفسنا على أساس أننا تأخرنا عن ركبهم، وكان الأولى بنا

---

(1) المرجع السابق. ص122.

ـ باعتبارنا مسلمين ـ وإسلامنا يدعونا بل ويفرض علينا العلم والتعلم، أن نكون السباقين إلى الاختراع وإلى التصنيع حتى تظل حريتنا ملك إرادتنا لا أن تبقى تحت رحمة الدول المستغلة، ويجب أن نضع في حسباننا أن العلم إذا لم يصاحبه سلوك خلقي كريم فإنه بلا شك سينحرف به أهله عن غاياته النبيلة، «ولقد بلغت أوروبا الغاية في الفن والصناعة، ولكنها ارتدت عن المثل الأخلاقية، فلم تعد تعرف شيئاً من الخير للإنسانية، فيما وراء حدود عالمها الذي لا يمكن فهمه إلا بلغة المادة، وما كان لحضارة أن تقوم إلا على أساس من التعادل بين الكم والكيف، بين الروح والمادة، بين الغاية والسبب، فمهما اختل هذا التعادل في جانب أو في آخر كانت السقطة رهيبة قاصمة»[1].

ولكن ليس معنى هذا أن تفرض الأخلاق من واقع معين فإذا تغير ذلك الواقع انحرفت مع تغيره الأخلاق، وإنما الخلق الإنساني يجب أن يمثل قاعدة عامة تحكم كل الثوابت والمتغيرات، ولن يكون الخلق بمأمن من

---

(1) مالك بن بني. وجهة العالم الإسلامي. ص191.

الانحراف إلا إذا نبع من واقع الإيمان، وفي ذلك نستطيع أن نطمئن على الضمير البشري، «والضمير الإنساني لا يطلب الإيمان ليتحول به مع كل تجربة علمية إلى معنى من المعاني الإلهية ملفق على قياسه ومنواله، فليس من شيء يملأ العقل والضمير بالحيرة والاضطراب كما تملؤه تلك المقررات التي يلغي بعضها بعضاً أو تتوقف صحة بعضها على صحة سواه، فكلها من المعارف المضافة أو المعارف النسبية التي لا يقوم عليها ركن ثابت من أركان الإيمان والثقة بالوجود المطلق والحياة السرمدية»[1].

إذن لا بد من انسجام يقوم بين الخلق والعمل حتى تبرز شخصية المؤمن من خلال حريته وإرادته، ليتخطى بها العقبات، لأنه بهذا سيعلم حقيقة ما يعمله لأنه نتج عن اقتناع، وهذا هو أساس ما نبغيه من تقدم ورفعة، «فنهضة العالم الإسلامي إذن ليست في الفصل بين القيم، وإنما هي في أن يجمع بين العلم والضمير، بين الخلق والفن، بين الطبيعة وما وراء الطبيعة، حتى يتسنى له أن يشيّد عالمه طبقاً لقانون أسبابه ووسائله، وطبقاً لمقتضيات غاياته»[2].

---

(1) عباس العقاد. الإسلام دعوة عالمية. ص172.

(2) مالك بن بني: وجهة العالم الإسلامي. ص192.

يتحقق كل هذا فتتكامل القوة الإسلامية، ويتمكن المؤمنون في ظل هيبتهم أن يعملوا على نشر مبادئ دينهم، ولكن من المهم والمحزن أن نعلم أن مسافة انتشار الدعوة تتقلص مع الهزائم وانتشار الظلم وهي من أسباب الضعف.

ولكن كيف نستطيع أن نصبح أقوياء؟ ليس السؤال بجديد، وليس الجواب بقريب، وإنما على المؤمن أن يراجع نفسه حتى يعرف خطأه من صوابه، وحتى يتضح هذا الأمر علينا أن نتذاكر درس القيم في ديننا الإسلامي.

العدل جانب مهم من جوانب الإيمان، والله سبحانه هو العادل، ولا يظلم أحداً مثقال ذرة ولا حبة من خردل، ولذا كان العدل نفساً يتردد في قلب الحياة الإنسانية، وإلا فكيف للإنسان أن يطمئن على حقوقه ويأمن طريق حياته إن أصابه الظلم، فالخوف يمتد إلى العمل نفسه فيؤثر عليه سلبياً ويصبح أداء الواجب معرضاً للتشويه، ومما يتمخض عنه العدل تحقيقه مبدأ الإخوة، والإخوة في المجتمع الإسلامي بجوار العدالة يكونان قوة مدادها الترابط والتماسك، ويضرب الرسول ﷺ أروع الأمثلة في مبدأ الإخوة، بعد الهجرة حينما آخى بين المهاجرين والأنصار فكانت نواة تشكيل المجتمع الجديد في المدينة، وبها

يجتمع المؤمنون على وحدة الهدف، ويقفون في مواجهة كل التحديات، يندفعون إلى أهدافهم التي تتطلب منهم التعاون البناء لإنجازها، ومن هنا جاء التحريض في القرآن الكريم على التأليف بين قلوب المؤمنين وذلك انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

وتظهر الرحمة عند المؤمن في أسمى معانيها، وتبدو في صورة عمله المجرد من أي مطلب دنيوي، فليس في نفسه هدف أن غاية شخصية يطلبها من وراء أخذه بمبدأ الرحمة، لأنه قد آمن بأن الدين كله لله، وهو دين الرحمة، ولذا فهو يتوجه إلى الله تعالى بالدعاء: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[1].

ونحن نتأمل آي الله المعجز، يستولي على قلوبنا وعقولنا روعة استيعابه لمعنى القيم الإنسانية المتصلة بالإيمان، فلا حقد مع الإيمان، ولا كراهية في قلب المؤمن، فعلينا بهذا أن ندرك حقيقة الإسلام التي تبعث في النفوس أسباب الطمأنينة والسلامة، عندما نفهم معنى الدين

---

(1) سورة الحشر، الآية: 10.

ومعنى إظهار المؤمن عبوديته لله وحده، تتلاشى من بيننا كل عوامل التفرقة والتباعد، ويحلّ الإيثار الذي تحققه التضحية، فيسرع المؤمن إلى البذل والعطاء، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

ومن القيم التي يبنيها الإيمان في النفوس الصبر، ونقصد به صبر المؤمن، صبر الأقوياء الذين يعدون أنفسهم، يجهزونها متربصين باللحظة الحاسمة التي ينطلقون فيها كالسيل الجارف، وليس صبر العاجز الضعيف، لأن الحال هنا يتحول إلى استسلام، ويغدو من ثم مرضاً نفسياً يمقته الدين، ويربأ بأهله أن يصلوا إلى درجته، فالصبر في الإسلام مقرون بالعمل، الذي يصدر من صدق ما وقر في القلب، «لأن الإيمان لا يكون إلا من تقوى القلب وصدق الاستجابة، مما لا مجال معه لإكراه أو سيطرة، وإذا لم يؤمن الإنسان بقلب مطمئن سليم، فحمله على الدين يلجئه إلى النفاق الذي هو أخبث من الكفر الصريح»[2].

---

(1) سورة الحشر، الآية: 9.

(2) د. عائشة عبد الرحمن. الشخصية الإسلامية. ص30.

والمنافق لا يمكن أن يكون صابراً، وكثيراً ما كشفت المواقف عن ضعف المنافقين وعجزهم، أما المؤمن فلا يمكن أن يقعد متخاذلاً، وقد جاء القرآن يعلمنا معنى الصبر قدوة بالرسول، يقول تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[1]، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[2] ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾[3]. وذلك لأن الصبر هنا يعقبه النصر لأنه انطوى على استعداد وتقوية، ولذا وعد الله رسله بالنصر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ﴾[4]. أما صفة الصابرين فهم المتقون الذي ثبتوا على الإيمان، ﴿وَالصَّٰبِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[5].

إذن فقد جاء الحديث عن الصبر في الآيات الكريمة مع العمل الذي يهب النفس عزيمة قوية قادرة على تحقيق ما يصبو إليه المؤمن، أما الذين يتواكلون ويقعدهم العجز وضعف النفس، فقد تصوروا أن الصبر هو الانقطاع عن

---

(1) سورة طه، الآية: 132.

(2) سورة الأحقاف، الآية: 35.

(3) سورة النحل، الآية: 127.

(4) سورة غافر، الآية: 51.

(5) سورة البقرة، الآية: 177.

العمل والتوقف عن السعي ريثما تواتيهم ظروف يحلمون بها وهم نائمون. وهذه مغالطة لقيمة عظيمة من قيم الإيمان، وغاب عنهم أن الصبر نصف الإيمان بما يعين النفس المؤمنة على الصمود في وجه الشيطان الذي يحاول أن يثبط الهمم عن أهم ما يجب أن يصبر الإنسان عليه وهو العبادة، لهذا جاء قول الله تعالى يقرن الصبر بالعبادة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1]. وجاء مقترناً بالجهاد في سبيل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾[2].

هذا هو الصبر الذي يجب أن نفهمه، لأن أولى الناس بالله من صبروا له سبحانه في كل شيء، فحكموا الله في أنفسهم، وجالدوها على أهوائها، وخضعوا لدينه في طواياهم، وعاشوا له في شؤونهم التي لا يراها إلا هو سبحانه، قبل أن يتظاهروا له بالعيش في كل زحام والغضب له في كل موقف، وما أعظم جزاء الصابرين عند ربهم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[3]. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ

(1) سورة البقرة، الآية: 153.

(2) سورة آل عمران، الآية: 200.

(3) سورة الرعد، الآية: 24.

صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[1]، وما أعظمها من مكانة رفيعة في الجنة يحظى بها الصابرون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾[2].

وهكذا تبدو الشواهد متضافرة تثبت ما للإيمان من آثار طيبة في النفس وفي الحياة، نبع ذلك من «شمول العقيدة الإسلامية الذي حقق للإسلام ما لم يتحقق لعقيدة غيره من تحويل الأمم العريقة التي تدين بالكتب المقدسة إلى الإيمان عن طواعية واختيار، كما آمنت به الأمم المسيحية والمجوسية والبرهمية في مصر وسوريا وفارس والهند والصين»[3]. ذلك لأن بناء العقيدة تأسس على الخلق الكريم الذي لم يدع مكاناً لأي خلق يخالفه، ولا سلوك يمجه، والمؤمن كله أخلاق فاضلة، أمين في كل شيء وعلى كل شيء، ومن ذلك تمسكه بأمانة الكلمة واللسان.

وقد كانت الكلمة مفتاح الإيمان، وتقدير الإسلام للكلمة تمثل في حسابه لآثارها من خير أو شر، فكان الجزاء الحسن للكلمة الطيبة، والجزاء السيئ للكلمة

---

(1) سورة النمل، الآية: 96.

(2) سورة الفرقان، الآية: 75.

(3) عباس العقاد، حقائق الإسلام، ص25.

الخبيثة، واعتبر القرآن الكريم الكلمة الطيبة كالشجرة تؤتي ثماراً طيبة، أما الكلمة الخبيثة فهي كالعيدان الجافة، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ * يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾[1].

وبمحافظة المؤمن على هذه الأمانة يعطي المعنى المتكامل من الرحمة والعدل، وبفعل أدائه للأمانة يتحرى كل نفع يصب في وعاء الأمة الإسلامية الكبير، وهو في معالجته لأمور مجتمعه لا يقول إلا ما يعرف أنه الصواب، فلا يتعرض للبلاء لما لا يطيق، فيقوم بالعمل الذي يعلم أنه يبدع فيه. يشاور إخوانه فيما يهمهم، حتى يكون كل فرد في المجتمع على علم بما يحدث مشاركاً للنتيجة التي ساهم في الوصول إليها، لا يعلق الخطأ على إنسان معين، أو إلى ظروف سابقة، «فالإسلام لا يعرف الخطيئة

---

(1) سورة إبراهيم، الآيات: 24 ـ 27.

الموروثة، ولا يعرف السقوط من طبيعة إلى ما دونها، فلا يحاسب أحداً بذنب أبيه، ولا تزر وازرة وزر أخرى، وليس مما يدين به المسلم أن يرتد النوع الإنساني إلى ما دون طبيعته، ولكنه مما يؤمن به أن ارتفاع الإنسان وهبوطه منوطان بالتكليف، وقوامه الحرية والتبعة، فهو بأمانة التكليف قابل للصعود إلى قمة الخليقة، وهو بالتكليف قابل للهبوط إلى أسفل سافلين، وهذه هي المكانة التي رفعته مقاماً فوق مقام الملائكة، وهبطت به مقاماً إلى زمرة الشياطين»[1].

والأمر الذي يتعلق بهذه المبادئ هو أن يعمل المؤمن على تنميتها، وما الإنسان مع غيره إلا بناة لمجتمع قوي يلزم تقويته ليتجاوز السلبيات. والتزام المؤمنين على هذا الطريق من الأسس التي تبنى عليه القوة، ونظرة فاحصة إلى أوروبا نرى الناس هناك يصطرعون في فوضى الأفكار المختلفة والمتخالطة، «والعالم الإسلامي لا يستطيع في غمرة هذه الفوضى أن يجد هداه خارج حدوده، بل لا يمكنه في كل حال أن يلتمسه في العالم الغربي، الذي اقتربت قيامته، ولكن عليه أن يبحث عن طرق جديدة

---

(1) عباس العقاد.

ليكشف عن ينابيع إلهامه الخاصة، ومهما يكن شأن الطرق الجديدة التي قد يعيشها، فإن العالم الإسلامي لا يمكنه أن يعيش في عزلة، بينما العالم يتجه في سعيه إلى التوحد، فليس المراد أن يقطع علاقاته بحضارة تمثل ولا شك إحدى التجارب الإنسانية الكبرى، بل المهم أن ينظم هذه العلاقات معها»[1].

وتنظيم علاقاتنا مع غيرنا لا يقوم بمنأى عن تنظيم علاقاتنا مع أنفسنا، فعلى المؤمن أن يكرم جاره حتى تتصل علائق المحبة بين المسلمين، وأن يقوم على صلة رحمه حتى تقوى أواصر القربى، وأن يعمد إلى الإحسان حتى تظل القلوب حصينة من الضغائن، ويجب أن نكون قبل كل شيء أمناء على أنفسنا حريصين على قوتنا، التي نريد أن نبنيها وأن يتعالى بناؤها حتى تستعصي على الأعداء، إننا ننظر إلى العالم الآن وهو يتمتع بحضارته المادية، ونريد لأنفسنا أن ننال حظنا منها، ولكن النقلة الحضارية التي نرجوها ليست أمنية تتمنى ولكنها عمل خلاق وجهد مبدع وتغيير مستمر، يقوم على الإصلاح النفسي والاجتماعي وتحقيق معاني الإخاء والمودّة والرحمة ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ

(1) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص156.

بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

وهكذا تتضح معاني وقيم الإيمان الكفيلة بإيجاد قوة تساعد على نشر الإسلام وإرهاب أعداء الله.

---

(1) سورة التوبة، الآية: 71.

الفصل الثالث

القرآن الكريم.. بيان وحياة

ـ 1 ـ

القرآن الكريم. . . بيان وحياة

لم تقم أية شريعة في التاريخ الإنساني كالشريعة التي أقامها القرآن الكريم، وقد اتقفت النصوص النقلية القرآنية، والأدلة العقلية التي ساهم جمهور العلماء على استنباطها والوصول إليها على أن القرآن هو أمثل سبيل يستطيع الإنسان أن يسلكه فلا يضل ولا يشقى، ولذلك كان من الطبيعي أن يقال إنه كتاب للبشرية كلها لا يحده مكان ولا يقيده زمان.

ولأن القرآن يخاطب العقل والقلب ويستجيب للعواطف الإنسانية السامية والصادقة، فإن هذا القول

المعجز قد خلق صلة قوية بينه وبين ذلك الإنسان الذي تغير حاله بعد أن عرف القرآن، «بحيث يرى العربي شخصيته من خلال هذا الفن القولي العظيم مهما اختلفت الأمزجة وتباينت المشاعر، لأنه بنفاذه العميق إلى خصائص العقل العربي والروح العربية استطاع أن يجمعها وأن يوفق بينها، وأن يتخذ منها مجموعة متحدة الشعور والمشارب والأفكار، ولهذا كان القرآن راية اجتمع تحتها العرب شيعاً وقبائل، بل كانوا جميعاً على استعداد تام للتضحية بحياتهم في سبيل نصرته»[1].

وتمت الصدارة للقرآن في أسلوبه المعجز على كل ما أنتج العرب وينتجون من ألوان الأدب، وأصبح من المسلمات أن تتجه أذهان المسلمين أول ما تتجه إلى العناية بالنص القرآني، لشرح ألفاظه وتفسير آياته، وتعرف أساليبه، وتبين مغازيه، واستنباط الأحكام منه، وإذا اجتمعت هذه المنابع لكتاب فمن الطبيعي أن يصبح محوراً لروافد الفكر والتأليف في الأمة، وينبوعاً ثرّاً للكثير من جداول ثقافتها، وحافزاً إلى العناية بفروع العلم التي تعين على فهم القرآن وإدراك أسراره.

---

(1) د. عفت الشرقاوي. الفكر الديني في مواجهة العصر. ص299، 300.

وقد اتجهت العناية إلى دراسة علوم القرآن بعد النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، وتعتبر أول محاولة جادة في تفسير القرآن على أساس استنباط الأحكام على هديه هي ما قام بها الشافعي في رسالته حول تفسير القرآن، «ونحن إذا حاولنا أن نتبين الأسباب والدوافع التي حدت بالشافعي - رضي الله عنه - إلى جمع هذه الرسالة وتصنيفها، لتكون بين أيدي الناس يقرؤونها ويستفيدون بها تفسير النص والاستنباط منه، اتضح لنا أن الدافع إليها هو هذا الاضطراب الذي ساد الحياة العقلية والدينية الإسلامية، وانقسام المجتمع على نفسه واختلافه على المعرفة ووسائل تحصيلها، وتعصبه عليها أو لها، وكل يتجه إلى القرآن يلتمس منه الدليل الذي يؤيد منزعه، ويدعم اتجاهه ويؤكد للناس صحة ما ذهب إليه»[1].

وتبعت محاولة الشافعي الجادة محاولات كثيرة تعددت مناهج الدراسة التي التمس فيها المفسرون طرائقهم، فمنها ما اتجه إلى الدراسات البلاغية واللغوية، وبعضها نحا منحى دينياً خالصاً اعتمد المناسبة والمواقف، وهذا يدل بصورة واضحة على أن القرآن الكريم استوعب

(1) د. السيد أحمد خليل. دراسات في القرآن. ص133.

العديد من الدراسات وما زال يستوعبها، وحيث إنه كتاب للبشرية جميعها كان منطلق إعجاز القرآن الخالد أنه يخاطب الإنسان ويتجه إليه في كل وقت، دون التقيد بحدود المكان، «واستطاعت هذه المعجزة أن تنفذ إلى خلق منهج للحياة بأوسع معانيها، في كل ظروفها التاريخية والحضارية، فنحن نستطيع أن نحسّ روح العربية في القرآن كما نحسّ روح الإنسانية وفطرتها الأصيلة حين نتأمل الجانب الاجتماعي والتشريعي في القرآن الذي يسعد البشرية كلها، ذلك أن خصوص لغة القرآن لا ينافس عموم دين الإسلام فالمخاطبون في هذه المعجزة هم البشر جميعاً في كل زمان ومكان»[1].

فأتيحت بذلك فرصة كبيرة أمام إبداع العقل العربي الإسلامي الذي وجد في انفتاحه على القرآن مجالاً رحباً يتغذى به وينمي تطوره، فلم يعرف العرب من قبل منهجاً في التفكير والحياة كالذي عرفوه في الإسلام، فاتّسعت المدارك، وأصبح العلماء والدارسون يجازون في علوم القرآن ويحظون بألقاب متعددة تتدرج من حيث الدرجة العلمية التي يبلغها الواحد منهم، «وغدت الطبيعة في الثقافة

---

(1) د. عفت الشرقاوي. الفكر الديني. ص300.

العربية مسرحاً للحركة والنشاط والفاعلية، أكثر منها موضوعاً للنظر المجرد. وحتى المعرفة العقلية النظرية إنما ينظر إليها على ضوء الثقافة العربية على أنها فاعلية أريدت، فالإرادة لها الأولوية المنطقية، عنها تتفرع سائر الجوانب، ويكفي أن نقول: إن القرآن الكريم هو كتابنا الذي نهتدي به لنقول بالتالي إنه مصدر التشريع أي مصدر القوانين والأوامر والنواهي، وهي كلها من قبيل الفعل لا من قبيل الفكر المجرد»[1].

إن ما أحدثه القرآن من نقلة فريدة من نوعها في التاريخ البشري أثرت تأثيراً مباشراً على الحياة العربية، وألهبت كثيراً من الأحقاد التي ضمتها قلوب أعماها الضلال، وليست مفاجأة لنا أن ينبري أهل الهوى والعدوان على الفكر البشري لمهاجمة الفكر العربي الإسلامي الذي بني على قواعد الإسلام، وهم يتناسون في هجومهم المردود عليهم في محاولة نسفهم لأصول الحضارة الإسلامية إنها لم تكن موقوتة بزمن معين حتى يمكن تجاوزها، والذي يقال هنا هو وجوب أن يقرأ القرآن بوعي وتبصر، حتى تثبت القلوب المؤمنة على طريق الخير والحقّ، وبما أن

---

(1) د. زكي نجيب محمود. تجديد الفكر العربي. ص379.

الإنسان هو من تكفل بحمل الأمانة، وأخذ نفسه بالتكليف، وقد جمله الله بالعقل، فعليه أن يتلقى كلمات الله ما وسعه إدراكها حتى يكتشف دلائل القدرة الإلهية فيقوم إيمانه ملتزماً بتحمل مسؤوليته بخلافته في الأرض، وينشر مبادئ القرآن في أرض الله، وما أعظم ما في القرآن من مبادئ وحكم، فعن علي كرم الله وجهه، فيما يرويه الترمذي، قال عليّ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون فتن». قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله، فيه خبر ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تشبع منه العلماء، ولا يَخلَقُ على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الصراط المستقيم، من عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم».

وكان اهتمام القرآن في مجال الفكر الإنساني بالغاً، وجعله مقدماً على كل عمل يقوم به المسلم، ومن خصائص التفكير الإدراك وتحكيم العقل، على أساس النضج والتمييز، «وفريضة التفكير في القرآن الكريم تشمل

العقل الإنساني بكل ما احتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصها ومدلولاتها، فهو يخاطب العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم والعقل الرشيد، ولا يذكر العقل عرضاً مقتضباً بل يذكره مقصود مفصلاً على نحو لا نظير له في كتاب من كتب الأديان»[1].

والآيات التي خصت العقل بالذكر كثيرة منها قوله تعالى:

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[2].

﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[3].

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[4].

﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[5].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[6].

---

(1) عباس العقاد. التفكير فريضة إسلامية. ص284.

(2) سورة البقرة، الآية: 242.

(3) سورة الأنعام، الآية: 32.

(4) سورة يوسف، الآية: 2.

(5) سورة المؤمنون، الآية: 80.

(6) سورة النحل، الآية: 12.

وعند الاستفهام بالزجر يكون التذكير بالعقل في مثل قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1].

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2].

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾[3].

﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[4].

كذلك كان ذكر أولي الألباب بشيء من التركيز في القرآن يعطي مدلولاً على أن أصحاب العقول هم الأولى بالذكرى والعمل.

يقول تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[5].

---

(1) سورة البقرة، الآية: 44.

(2) سورة آل عمران، الآية: 65.

(3) سورة المائدة، الآية: 58.

(4) سورة هود، الآية: 51.

(5) سورة البقرة، الآية: 197.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[1].

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[2].

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[3].

إذن لماذا كان الخطاب هنا موجهاً لأصحاب العقول؟ أليس لأنهم أوسع مدارك وأكثر اتعاظاً وألزم للطريق السوي لأنهم القادرون أكثر من غيرهم على التمييز بين الخطأ والصواب وبين الخبيث والطيب. وفي هذا الموقف الخالد من العقل الإنساني وإعطائه قيمة عليا ندرك عظمة هذا الدين وأنه دين الإنسانية الخالد، وكل ما في القرآن الكريم يعطي الجوانب الإنسانية في تفكيرها وإحساسها ومشاعرها وأذواقها حقها الكامل، وما أن نقرأ القرآن حتى نستشعر قدسية النغم، ولا تكاد تتحرك بآياته شفاهنا وتتصل بها الآذان حتى تشمل القلوب روعته ومهابته، وتشيع في

---

(1) سورة البقرة، الآية: 269.

(2) سورة آل عمران، الآية: 7.

(3) سورة الزمر، الآية: 18.

النفوس نشوة الرياضة الروحية، وما أن نغوص على المعاني الكامنة فيه حتى ترتقي نفوسنا صعداً تحلق في أجواء الصفاء والطهر، وتستروح نسمات الراحة والطمأنينة، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[1]. وذلك على اعتبار أن الإنسان هو القيمة العليا في الحياة، على اعتبار أن المؤمن هو الرمز الكلي الذي يعبّر عن الإنسان في أسمى صوره، وهذا ارتقاء بالإنسان إلى أرقى المنازل التي يمكنه أن يطمح للوصول إليها، «إن تعاليم القرآن الأساسية بخلاف فردانياتنا المبنية على شريعة الغاب، هي قبل كل شيء ألا ينظر إلى الإنسان كحقيقة واقعة منعزلة، وإنما على أنه يشكل جزءاً من كل أكبر منه.. الجماعة.. الأمة.. وفي نفس الوقت أن تحدد هذه الجماعة هذه الأمة، على أنها منسقة لغايات أسمى منها نفسها»[2].

وعلم الله سبحانه وتعالى بما يطرأ على حياة الإنسان

---

(1) سورة الأنفال، الآيات: 2 ـ 4.

(2) روجيه غارودي. وعود الإسلام ص74.

من تغيير وتبديل، وما يحتاجه من تعديل في مسيرة حياته نظراً لاستجابات زمنية تحدث في أوقات متفاوتة لم يفصل سبحانه كل شيء بالتفصيل المقيّد لأحداث الزمان والمكان في القرآن، صحيح أن القرآن الكريم لم يفرط في ذكر شيء، ولكن هناك من الأمور ما تركت تفصيلاتها حسب معطيات العصر المتجدد والمتغيرات الطارئة على الحياة البشرية، بحيث ألا يحدث تعارض بين ما يمكن للمسلم أن يعمله فيما لم يجد فيه تفصيلاً بالقياس مع أسس وأصول الشريعة الإسلامية، «فالقرآن في مجمله وضع الأصول العامة والمبادئ الكلية، وترك المفردات التفصيلية والجزئيات الفرعية، تستجيب لدواعي التطور وتعنى بجديد حاجات الأمة في مختلف الظروف والأحوال»[1].

وهنا يتضح إفساح الإسلام المجال في إعطاء الحرية الكافية للعقل الإنساني يتماشى مع تطور الحياة ومتقلبات الزمن والأحداث العارضة وإقامة ما يستجد من كل ذلك على الأصول المرعية في الدين بحيث ألا تحدث عرقلة للحياة البشرية يكون أساسها الإنسان متطرفاً أو متهاوناً وليس الدين، وفي هذا تخليص للإنسان من مشاكل كثيرة

(1) د. عائشة عبد الرحمن. الشخصية الإسلامية. ص170.

هو في غنى عنها، ولولا هذه الفرصة المتاحة أمام العقلية الإسلامية لاختلت الحياة، ولأن كل كتاب من الكتب السماوية كان ينزل قبل الإسلام لقوم دون آخرين، كان فيه ما يناسب من ينزل إليهم، «أما القرآن الكريم فقد كان يخاطب أقواماً ينكرون، وأقواماً يشركون، وأقواماً يدينون بالتوراة والإنجيل، ويختلفون في مذاهب الربوبية والعبادة، وكانت دعوته للناس كافة من أبناء العصر الذي نزل فيه وأبناء سائر العصور، ومن أمة العرب وسائر الأمم، فلزم فيه تمحيص القول في الربوبية عند كل خطاب، وقامت دعوته كلها على تحكيم العقل في التفرقة بين عبادة وعبادة، وبين الإله «الأحد» وتلك الآلهة التي كانت تعبد يومئذ بغير برهان»[1].

ومعنى هذا أن العقيدة والعبادة ثابتتان لا يمكن أن يطرأ عليهما تغيير في عصر أو مكان بخلاف المعاملات، وهذا احتراز لا بد من التنويه به حتى لا ينسحب الحديث بوهم التغيير أو التجديد فيما يتعلق بهما، وإلا نكون قد أسأنا فهم الدين بدل أن نخدمه ونرفع رايته، وحرص الدين على البناء المتجدد للحضارة الإنسانية كان أساسه ثبات المسلم على

---

(1) عباس العقاد. الله. ص234.

العقيدة وقيامه بالعبادة كي تتحصن الحضارة بالصدق والإخلاص، ومن يقرأ القرآن الكريم متمعناً يجد رحابة كبيرة لبناء الحياة، ويجد الحوافز المتعددة الدافعة إلى أن يثبت الإنسان نفسه على صفحة الوجود، «والقرآن الكريم بهذا الإلهام الصادق، ينقذ العقل من نقائض التفكير، ولا ينجيه من نقائض التكليف وحسب، أو من نقائض الحيرة بين العالمين في حقائق الدين ولا مزيد، فمن ضلال التفكير قديماً، أنه ساق كبار العقول إلى ذلك الفاصل المتعسف بين عالم النور والفلك الأعلى وعالم التراب والأرض السفلى»[1].

فالنظر المتأني في القرآن الكريم من شأنه أن يقدم المزيد إلى البصيرة النافذة عبر آياته الكريمة، ومن هنا نقول: إن القرآن لا يحجر عليه في الجوامع، ولا تقتصر تلاوته على مناسبات معينة فقط، ولكنه كتاب كريم يصاحب الحياة البشرية في أصولها وتطوراتها، ويصاحب الإنسان في مسيرته الدنيوية والأخروية، لذا فإن فهم الكتاب الكريم يرتبط ارتباطاً وثيقاً بنوعية القراءة ومدى الاستيعاب للفظه ومعناه، «وإن قرئ القرآن قراءة فاهمة

---

(1) عباس العقاد، الإنسان في القرآن ص384.

وجدنا فيه دعوة ملحة للبشر للتأمل والتعجب والتفكير والاعتبار، واستخدام العقل والحسّ والمشاهدة والاستنباط التاريخي في كل ذلك، ويفترض الإسلام أن كل هذه الطرق الأساسي منها والثانوي، موصلة في النهاية إلى الحقيقة نفسها وهي حقيقة الله»[1].

وينظر المسلم إلى السبيل التي يمكنه بها أن يصل إلى درجة الإيمان القويّ، وإلى الفهم الأمثل للحياة، فالتفكير من وجهة نظر الإسلام هو ما ارتقى بحياة المؤمن، وزاد من يقينه، وأوصله بأمان إلى الدار الآخرة، وهذه هي فلسفة الحياة، وهي لكونها مدخلاً إلى الآخرة فعلى المرء أن يتعقل فيما يدبره لنفسه، وأمامه من هدي القرآن ما يكفل له بتحقيق طمأنينته، والله سبحانه أراد بالقرآن أن يهدينا ويعلمنا، حتى تنبني الحياة البشرية على الأسس الصحيحة وحتى يترسم الإنسان لنفسه أسمى الأهداف، لهذا «جاء القرآن الكريم يربي الإنسان خليفة الله في الأرض، يربيه قلباً وروحاً، ويربيه خلقاً وسلوكاً، ويربيه جسداً وعقلاً، ويرتفع به إلى الأفق الأعلى أفق الإنسانية آخذاً بيده، حتى يجعله في النهاية صورة حية من تصورات القرآن للإنسان

---

(1) د. حسن صعب. الإسلام أو تحديات العصر. ص205.

الكامل، ويصنع منه طاقة كونية فعالة مهيمنة على الكون، ومسخراً له كما أراده خالقه»[1].

ولهذا جاءت الآيات الكريمة واضحة في هذا الصدد، ومن أمثلتها قول الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]. وغيرها من الآيات العديدة التي تجري على هذا المنوال مما يؤكد على أن القرآن يشكل قوّة حيوية تدفع المسلم لكل عمل معطاء، تبرز فيه إمكانات البناء عند المؤمن، ويعتبر هذا التشكيل من الأهداف العظيمة التي سعى الإسلام كي يضعها المسلمون نصب عيونهم، ولن يكون تحقيقه سهلاً إلا إذا تواصل العمل على هدي القرآن، فأخذ المسلمون من العلوم المختلفة ما يؤهلهم إلى إثراء وتطوير حياتهم العملية، وعندما يفهم المؤمن حقيقة الكون الذي يعيش فيه، ويزاوج بين هذا الفهم وفهمه لأصول دينه، يستطيع بذلك أن يقدم الشيء الكثير الذي يساهم في بناء الحضارة الإنسانية.

وفهمنا للقرآن كما يجب أن يفهم هو الطريق الموصل

---

(1) د. محمد ظفر خان. الإسلام والإنسان المعاصر. ص250.

(2) سورة الجاثية، الآية: 13.

إلى برّ الأمان، «ونحن مطالبون بأن نفهم القرآن الكريم، ومطالبون بأن نفكر وأن نستفيد لأفكارنا في علوم العصرالذي نعيش فيه، ولكننا لا نطالب في عصر من العصور بأن نعلق إيماننا بتفسير النظريات العلمية، وهي لا تستقر عصراً واحداً على تفسير غير قابل للنقض أو التعديل والتحوير»[1]، وإلا انقلب الأمر إلى إقحام آي القرآن إقحاماً في تفسير النظريات العلمية، وهو اتجاه مرفوض حيث تظل الدلالة في القرآن بعيدة عن الإقحام، وبه نستطيع قفل الباب في وجه من يحاول أن يغمز من قناة الإسلام ونظرته إلى الحضارة الإسلامية، فالإسلام بناء متكامل والقرآن دستور هذا البناء وهو يغني الإنسان أيما إغناء في مجال النظر والتأمل، بعده يبني الإنسان نظرته العلمية نحو الظواهر الطبيعية، ويظل للقرآن الدور الرئيسي في إصلاح الحياة وتقويم اعوجاج السلوك الإنساني، ولا يمكن أن ننظر إلى الإسلام على أنه يتجزأ إلى قضايا متناثرة، ومن ينظرون هذه النظرة يفتقرون إلى الموضوعية والعلمية في تفكيرهم، «فالدين الإسلامي يتناول كل النشاطات الإنسانية، والشريعة تضع الحدود لجميع هذه النشاطات،

---

(1) عباس العقاد. ما يقال عن الإسلام ص547.

أي أنه ليس في الإسلام تجزيئية كتجزيئية التخصصية التي نراها في العصر الحديث، الإسلام يأخذ الإنسان ككائن كلي، ويقدم له رسالة إلهية كلية يفترض فيها أن تؤمن له السعادة الأزلية، أي السعادة في الدنيا والآخرة، وهذه النظرة الكلية للإنسان موجودة في القرآن»[1].

والقرآن معناه القراءة والدرس والتعليم، وهو الكتاب الجامع لحقائق الوجود، ولجوهر المعاني الكريمة، منبع العلوم والهادي إلى المعرفة، ولهذا قرن الله سبحانه القرآن بتعليم الإنسان في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[2]. وهو الوسيلة الناجعة لإخراج الناس من الظلمات إلى النور وتحرير عقولهم من الضلالة والجهل وإرشادهم إلى ما ينفعهم، وعلى الدارس للقرآن أن يبتعد عن محاولات التوفيق بين كل صغيرة وكبيرة في العلم في مجال الحياة العلمية وبين الآيات المتعلقة بهدي الإنسان نحو النظر والكشف. «فمن الحق أن نعلم أن كتابنا يأمرنا بالبحث والنظر والتعلم والإحاطة بكل معلوم يصدر عن العقول، ولكن ليس من الحق أن

---

(1) حسن صعب. الإسلام وتحديات العصر. ص207.

(2) سورة الرحمن، الآيات: 1 ـ 4.

نزعم أن كل ما تستنبطه العقول مطابق للكتاب مندرج في ألفاظه ومعانيه، فإن كثيراً من آراء العلماء التي يستنبطونها أول الأمر لا يعدو أن يحسب من النظريات التي يصح منها ما يصح ويبطل منها ما يبطل، ولا تستغني على الدوام عن التعديل وإعادة النظر من حين إلى حين»[1].

وأما بالنسبة لمعاني القرآن فإنها لا تنفد ولا تنتهي، فوراء نظم القرآن كثير من الأسرار لا يحيط بها العقل، ولا يحصيها العدّ.. إنه كلمات الله وكما لا تنفد كلمات الله كذلك لاينفد معنى كلمات آياته، ولا يعسر مثل هذا الإدراك على المتدبر لقول الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[3].

وتقف الدلائل والبراهين في القرآن الكريم عاملة على ترسيخ الأهداف الإنسانية التي أنزل ضمن ما ينزل من

---

(1) عباس العقاد. التفكير فريضة إسلامية ص341.

(2) سورة الكهف، الآية: 109.

(3) سورة لقمان، الآية: 27.

أجلها، في كونه يدفع المؤمنين إلى طلب العلم، وإلى كونه منبعاً يغني البيان العربي ومصدراً عظيماً لمناهج البلغاء، وحتى ندرك التيسير الإلهي الذي حمله القرآن متعلقاً بعقيدتنا وحياتنا علينا أن نتعرف مناسبات نزول الآيات وكيفية النزول، فالقرآن لم ينزل جملة واحدة، وإنما كان ينزل بالآية والآيتين أو الآيات مجتمعة، تبعاً للحادثة والمناسبة والأسباب المؤدية إلى النزول، «ونزول القرآن على مكث لكي يلامس الوقائع ويوازيها، معلقاً موضحاً، متقبلاً ومفنداً. . ولنا أن نطلع على أسباب النزول لكي نرى ثقل هذه الواقعية والمباشرة التي عن طريقها تمكنت كلمات الله من الانتقال العملي بالعرب من حال إلى حال، فصاغتهم صياغة جديدة، ونقلتهم إلى عالم جديد»[1].

ونستطيع أن نستدل ببساطة على ما أحدثه القرآن من ثورة في مناهج التفكير عند العرب، واضطرد ذلك على توالي الأزمنة وما يطرد فيها من أحداث، ونأخذ بالاعتبار أهمية هذه الناحية على أساس أن الحجة هنا مبنية على الوقائع الكثيرة التي عالجها القرآن منذ نزوله إلى الآن وإلى ما يشاء الله، «فالقرآن الكريم قدر واقع الحياة في عصر

---

(1) د. عماد الدين خليل. آفاق قرآنية. ص168.

نزوله، وأفسح معه آفاق الطموح إلى القيم الخالدة والمثل العليا التي تظل الإنسانية كادحة إليها مستشرفة لها، ما بقيت الحياة»[1].

وما دام الأمركذلك فإنه يتحتم على الإنسان إدراك التكريم الذي وجد فيه نفسه في القرآن، فيقبل على الإسلام ينهل من موارده العذبة، يستزيد معرفة بالحياة، أسرارها وتطوراتها؛ حتى ينجح في استغلال طاقاتها ومقدراتها على اعتبار أنه يبغي السعادة، ويعلم أن الحقائق في العقيدة الإسلامية خالدة باقية تحرص على توفير أسباب الحياة الراقية، ولن يتأتى ذلك في لحظة واحدة، ولكن مع دوام البحث وقوة الإرادة، «فمصدر الحياة والفكر والإرادة والتقدم، سيظل مستغلقاً على الإدراك والتحليل الكاملين، لأن خلافتنا على الأرض لا يقتضي هذا التكشف الكامل، ولأن المقادير الضئيلة التي يمنحنا الله إياها في عالم الروح توازي فاعليتها المقادير الضخمة التي مكننا من معرفتها في عالم الطبيعة، وهذا التوازن الحضاري الفذ بين الروح والمادة في ميدان الكشف والمعرفة، هو ما يقودنا القرآن الكريم إليه في حشد كبير من الآيات التي تدعونا إلى أن

---

(1) د. عائشة عبد الرحمن. الشخصية الإسلامية ص170.

نفتح كل منافذنا على الطبيعة لاستكشاف قوانينها وطاقاتها وتسخيرها لتنمية الحياة البشرية وتطويرها»[1].

ولا يحسبن أي إنسان بعيد عن الإسلام أنه باستطاعته، مهما توصل إلى أية درجة علمية أنه سيكون أقوى من الدين نفسه أو أنه سيكون في غير ما حاجة إلى الدين، لأنه إن تناسى روحه وغذاءها فإنه سيقتل في نفسه نبع الحياة.

ـ 2 ـ

الإعجاز القرآني

من خلال التلاوة والدراسة للقرآن الكريم نتبين تنقل الآيات بين إيراد الخبر والإتيان بالعظة، وبين التبشير بوعد الله ليفرح المؤمن بعمله ويذوق حلاوة إيمانه، وبين التهديد بالوعيد ليحذر المنحرف من مغبة انحرافه ويرتدع العاصي عن سوء سلوكه، ويعلم المشرك أنه بوقوعه في الضلال المبين قد لزمه العذاب، ثم تنتقل الآيات بين الترغيب في رحمة الله وتحبيب المذنبين في التوبة لما فيها من العفو والمغفرة، وبين الترهيب من العذاب لمن يصرّ على

---

(1) د. عماد الدين خليل. دراسة السيرة. ص124.

أخطائه، ولا شك أن الأسلوب القرآني الذي يتجه إلى الإنسان مباشرة يؤثر تأثيراً بالغاً في النفوس، فيستجيب القلب محباً وخائفاً خضوعاً لله وسعياً في حبّ الخير، فتتسرى عن القلوب هموم أثقلتها، وأحزان أهمتها.

ولم لا يحدث كل هذا؟ «والقرآن الكريم معجزة الرسول الكبرى في الإسلام وفي غير الإسلام بمادته وأسلوبه، فليس في التاريخ كتاب بقي كيوم نزل معنى ونصاً كالقرآن، ثم كان له من الأثر ما كان للقرآن الكريم في جميع ميادين الحياة، وإن موضوعاته أصح الموضوعات، وهو الذي حفظ الإسلام وحفظ اللغة العربية، وحفظ الأمة الإسلامة، ثم عجز البشر عن معارضته بالإتيان بسورة من مثله أو بجزء من سورة»[1].

وتلاوة القرآن تدبراً وتمعناً تهيئ للنفس مدخلاً حسناً لإضفاء نظرة كلية شاملة لهذه الحياة وإدراك ما فيها، علاوة على أنها عبادة يظهر فيها خوف العبد وإشفاقه، ورضاه وأمله، ومن تأملنا في كتاب الله ندرك معنى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ

(1) د. عمر فروخ. تاريخ الفكر العربي ص175.

﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[1]، وما تحدثه تلاوة القرآن أو سماعه من هذا التأثير على النفوس إنما هو دليل على الإعجاز الذي يتّصف به.

واللغة في حدّ ذاتها مظهر من مظاهر قوة الأمة إن استوعبت الفكر وعبرت عنه، والقرآن رصيد لغتنا العربية والدال على غناها وثرائها، «والكلام إذا كان داعية الأعمال ومطلع ثمارها، فإنه هو نفسه حصيلة علم، وثمرة معرفة، وأنه بقدر ما يحصل الإنسان من علم ومعرفة بقدر ما يجتمع له من رصيد المعاني التي تصورها الكلمات، وبقدر ما يحتوي قاموسه اللغوي من ألفاظ وعبارات وتراكيب بقدر ما يكون حظه من العلم والمعرفة.. وهكذا تتم حلقة المعرفة حيث يتلاقى طرفاها: الألفاظ والمعاني.. فالألفاظ تلد المعاني، والمعاني تولد الألفاظ، ومن التقاء اللفظ والمعنى يكون العلم والمعرفة.. وغنى الأمم وثراؤها كما يقاس بالمادة. بما تملك من أدوات الإنتاج، وما تحوي خزائنها من أموال، كذلك يقاس غناؤها وثراؤها في العلم والمعرفة

---

(1) سورة الزمر، الآية: 23.

بما يحتوي عليه قاموسها اللغوي من كلمات»[1].

وبالإضافة إلى القيمة اللغوية والبيانية التي أعطاها القرآن للعربية، هناك القيمة الاجتماعية والإنسانية التي قدمها ويقدمها القرآن إلى المجتمع العربي والإنساني، فقد نزل القرآن والحياة قد أصابها من الفساد الشيء الكثير، واضطربت أحوال الناس اضطراباً اختلت معه موازين التقييم والتقويم، وانتشرت الوثنية انتشاراً دل على جاهلية عمياء، وعقول خرقاء انحرفت عن مسار الحقيقة، وجانبت الصواب، وماذا ينتظر من إنسان يعتقد في أن حجراً ينفعه ويضره، هذا الانحطاط في التفكير العقدي وما تبعه من خلخلة لقواعد المجتمع استدعى أن يركز الوحي المكي على معالجة قضية العقيدة، «فكان الوحي المكي يعالج مشكلة العقيدة، وما لابسها من اضطراب، جاهداً أن يصفيها مما شابها من أخلاط بعيدة عن الفطرة السليمة، ومنافية لطبيعة التدين القائم على النظرة النافذة والإدراك السليم، أما الوحي المدني فإنه يخطط لحياة تشريعية عملية تحقق الرفاهية للإنسان على الأرض وتضمن لحياته

---

(1) عبد الكريم الخطيب. نظرات في سورة الرحمن. ص52.

الاستقرار والأمن، وتدفع عنها غوائل الفساد والاضطراب»[1].

لم يكن من السهل تغيير الحياة العقدية في يوم وليلة نظراً لما ترسب في عقول الناس من مفاهيم مغلوطة حول التفكير الديني، واستغرق التغيير وقتاً ليس بالقليل، بذلت فيه جهود مضنية، وتخللته عذابات مرهقة، ولولا نفوس ذابت حبّاً في الله وشملتها الطواعية المثلى للدين في سبيل نشره، لازدادت الحياة تردياً والناس غوغائية.

فانصبّ الاهتمام في البداية على توجيه الإنسان إلى الفكرة الإلهية الواحدة، فكانت عقيدة التوحيد صاحبة الصدارة في الاهتمام القرآني، «وتوكيد القرآن الكريم لوحدانية الله كتوكيده لوجود الله... بل هو أشد وألزم في عقيدة الإسلام، لأن الإيمان بالإله الأوحد ألزم من الإيمان بالعقيدة الإلهية على إطلاقها، إذ كان الإيمان بأكثر من إله واحد مفسداً لفهم الكون ومفسداً لفهم الضمير، ومفسداً لفهم الواجبات الأدبية والفرائض الدينية، ومفسداً لعلم الإنسان بحقيقة الإنسان»[2].

---

(1) د. عباس أحمد خليل. دراسات في القرآن. ص17.

(2) عباس العقاد. الفلسفة القرآنية. ص115.

فليس من باب المصادفة إذن هذا الاهتمام، بل هو من قبيل البناء الجديد للحياة الجديدة، وهو اتجاه إيجابي خلاق عرف به الإسلام منذ اللحظة الأولى التي بدأت فيها الدعوة على أساس أن يتأكد إيمان الإنسان بالله، وبغير إيمان لا يمكن أن يكون هناك بناء إيجابي، والعمل في الإسلام يقوم على الاقتناع، يتوجه به المؤمن لإرضاء الله ولخدمة المسلمين، وتقديم الخير لعموم الناس، ولا ينتظر المسلم جزءاً موقوتاً أو عاجلاً لكن يؤمن بالغيب معلقاً عليه وعد الله تعالى، هذا الإيمان المطلق نشأ من عظمة القرآن الذي تعلق به قلب المؤمن، ومن ثم جاءت نصوص القرآن داعية إلى الإيمان بعالم الغيب، «وتأكيد القرآن الكريم على الإيمان بالغيب لم يمنعه من التأكيد على التجريب والاختبار والنشاط العقلي والممارسة العملية، بل على العكس يتساوق معه، يوازيه ويعتمده في تعميق الإيمان بالغيب كتفسير يقيني للوجود الكوني والبشري على السواء، بما فيه من دقة وضبط وتوافق ونظام»[1]، وهذا مصداق ما جاء في قول الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ

(1) د. عماد الدين خليل. مع القرآن في عالمه الرحيب. ص17.

يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

وتقوم المعجزة القرآنية في هذه الناحية على الاهتمام بالحياة البشرية، لتثبت الرؤية أمام الجميع أن الإسلام في حقيقته دين كل إنسان، فلم يتوجه لفئة دون أخرى أو قوم دون آخرين، وقد أكد القرآن الكريم أن دعوة الإسلام جاءت للناس كافة:

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[2].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[3].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[4].

كما صدّقت دعوة الإسلام الرسالات السابقة فآمنت بكل الأنبياء والرسل، ومن هذه الحيثية في الشمول والعموم، وفي مخاطبة الإنسان في نفسه وعقله وضميره، في روحه وجسده، «جعل القرآن الكريم من هذه العقيدة

---

(1) سورة فصلت، الآية: 53.

(2) سورة النساء، الآية: 79.

(3) سورة الأنبياء، الآية: 107.

(4) سورة سبأ، الآية: 28.

الإسلامية قوة غالبة، وجعل من أمة الإسلام على مدارالعصور واختلاف الأقوام والأزمان قوة صامدة، وقد أفرد ذلك الإسلام بمزيته التي لم تعهد في أي دين آخر من الأديان الكتابية»[1].

يظن البعض أن مجرد امتداح ديننا والتغني به يعدّ كافياً لذيوعه وانتشاره، والحقيقة غير هذا، فالمهم أن نكشف عن حقائق الإسلام بروح علمية منطقية، تبين الأصول وتوضح معالم العقيدة الراسخة فيه، ومن الواجب أن يتدبر كل مسلم أمور دينه وأن يعتزّ بقرآنه، فينطلق من ذلك عاملاً على نشرالإسلام، انطلاقاً من الإيمان بعالمية الدعوة الإسلامية، ولن يجد إنسان في أية عقيدة أو ملة ما يجده في الإسلام من دعوة للعقل إلى التفكير، ومن دفع للإنسان إلى البحث، ولم يفرط القرآن الكريم في جانب من الجوانب الإنسانية، وهذا معنى كونه شاملاً لجميع ما يتعلق بالإنسان في الدنيا والآخرة، وهو وجه من وجوه الإعجاز، «فالقرآن لا يفتح المجال للبحث وحسب، بل يشبع كذلك الغريزة العقلية في الإنسان ويستميلها، بل يدفعها ويلزمها أن تقوم بوظيفتها بما يضربه لها من أمثال وما يذكره من

---

(1) عباس العقاد. الإسلام دعوة عالمية ص194.

آيات»[1]، فأصبح العلم من وجهة النظر الإسلامية طريقاً على جميع المسلمين أن يسلكوه، ومن وقع في ظنه أن الدين مقصور على الجوامع والعبادة المعروفة وحسب، فإنه يفقد النظرة الموضوعية إلى الأشياء، وقد اتّسعت استجابة الدين للمطالب الإنسانية، فكان تلازم الدين والعلم والتنسيق بينهما من معجزات ومنجزات الإسلام، ومن يتدبر قول الله تعالى في هذا الشأن لا يعسر عليه أن يصل إلى حقيقة هذا الأمر، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[2]، ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[3].

فالقراءة التي علمها الله تعالى للإنسان، وجعلها أجلّ النّعم التي أنعم بها عليه، هي هذا الاستقراء لما يقع في محيط الإنسان من عوالم الوجود، وتحصيل العلم والمعرفة من هذا الاستقراء هو خصيصة الإنسان، وبه فضل على كثير مما خلق الله سبحانه وتعالى، والذي من أجله أمر الله

---

(1) د. محمود حب الله. الثقافة الإسلامية (كتاب) ص30.

(2) سورة الرحمن، الآيات: 1 ـ 4.

(3) سورة العلق، الآيات: 1 ـ 5.

الملائكة بالسجود لآدم، بعد أن أراهم منه أنه أقدر منهم على تحصيل العلم والمعرفة، بما امتلكه من عقل مدرك يعينه على التصرف، وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ * قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[1].

وهذا بيان عظيم الدلالة على أن القرآن الكريم يقدم الصورة المثلى للإنسان، ويبرهن على إصرار الإسلام في تقديمه كل ما من شأنه أن يرفع من منزلة المسلم في فكره وعقليته، فيبرز البنيان المتكامل القوي من الإيمان والعلم، «وحين يضفي العلم على الدين بصيرة وبراءة من الشوائب، وحين يقود الدين العلم ويوجهه في تطبيقه، تصل الحياة الإنسانية إلى ما ينبغي لها، وما هو في طاقتها. وتنفذ مشيئة

(1) سورة البقرة، الآيات: 30 ـ 33.

الله في الأرض»[1]. وأحرى بالمسلم أن يدرك حقيقة دينه، وما يدعو إليه لبناء الحضارة الإنسانية، وهو بإدراكه يصبح على مستوى فكري يليق والتوجهات العلمية والحضارية في الإسلام، ومطلوب من المسلم أن يندفع في طريق العلم حتى لا يقيد بحبال التخلف، ولم لا يأخذ نفسه على هذا الطريق وأمامه كتاب الله دافعاً وحافزاً؟.

والذي يتأمل القرآن يتلقى الدروس المستفادة في البرهنة والاستدلال الرائع، «ومما يستوقف النظر أن البراهين التي جاء بها القرآن الكريم وخصها بالتوكيد والتقرير هي أقوى البراهين إقناعاً وأحراها أن تبطل القول بقيام الكون على المادة العمياء دون غيرها، ونعني بها أولاً برهان ظهور الحياة في المادة ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾[2] ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾[3]، وثانياً برهان التناسل بين الأحياء لدوام بقاء الحياة ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ أَزْوَٰجًا﴾[4] ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ

---

(1) د. ميلر بروز. الثقافة الإسلامية (كتاب) ص56.

(2) سورة الأنعام، الآية: 95.

(3) سورة النحل، الآية: 78.

(4) سورة الشورى، الآية: 11.

بَهِيجٍ﴾[1]، وعلى هذا كان البرهان القرآني في عالم الإيمان يقوم على العلم واليقين، فلم يحاول الماديون أن يفسروا ظهور الحياة في المادة الصماء قط، إلا وقفوا عند تفسير الحاصل بالحاصل، أو تخبطوا في ضروب من الرجم بالغيب لا يقوم عليها دليل، وهم إنما يهربون من الإيمان بوجود الله لأنهم لا يصدقون بالغيب ولا يعتمدون غير المشاهدة وما هو في حكمها من دليل ملموس»[2]. أما القرآن الكريم في منهجه فقد خلصنا من التقارب والتناقض فكان إعجازه المنطقي متوافقاً مع طموح العقل البشري متكفلاً بهدي من يتلمس السبيل إلى التفكيرالسليم، وندرك حقيقة ما نقول بالقراءة الواعية للقرآن، نستجلي المعنى ونظفر بالمعرفة، وأي إنسان لا يستطيع أن يصيب من وراء قراءته إلا بقدر ما لديه من استعداد للاستقراء والإدراك والفهم.

فأسلوب القرآن المعجز لا يستعصي على الفهم، ولكن يظل فيه سرّ التجدد والخلود، وأية كتابة جادة في التفسير والدراسة المتعلقة بالقرآن تستطيع إعطاءنا الكثير من

---

(1) سورة ق، الآية: 7.

(2) عباس العقاد. الله. ص237.

مفاهيم القرآن ولكنها لا تستطيع إقفال الباب على غيرها من الدراسات التي تهدف إلى خوض ميدان التفسير، وظواهر الإعجاز الأسلوبي كثيرة في القرآن الكريم، ومنها «ظاهرة المزج بين الأحكام التكليفية ومعاني الترغيب والترهيب وهي من الظواهر التي ينفرد بها القرآن الكريم، وهي ظاهرة تضفي على أحكامه طابعاً خاصاً يتميز بالهيبة والمراقبة ورعاية أدائها إيماناً بها، وحرصاً عليها خشية من الله وطمعاً في مثوبته وغفرانه»[1]، وكثيرة آيات الكتاب التي تحمل هذا اللون من التعبير المزجي ينتقل فيها القارئ بمشاعره بين ما تعبر عنه الآية التي هو بصددها، يقول تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[2]. لن يصعب مفهوم هذه الآية على أي مسلم، ولكن في الوقت نفسه يقف متأملاً بين الحدود الفاصلة التي تضع العمل الصالح في جهة والعمل السيئ في الجهة المقابلة وعلى المرء أن يختار حتى لا يعلق مسؤوليته على أحد غيره، سهولة في التعبير وعمق لا يحدّ في المعنى والمدلول لا يبقى معها مجال للحيرة والاضطراب.

نسائل أنفسنا، كيف نستطيع أن نقارع خصوم الإسلام

---

(1) د. محمد الدسوقي. الصيام في القرآن. ص208.

(2) سورة فصلت، الآية: 46.

الحجة بالحجة دون أن نفهم القرآن فهماً صحيحاً؟. ومن الواضح أن من ينبرون لمهاجمة الإسلام، أو كثير منهم، يدرسون هذا الدين، فيوجهون إليه الانتقاد ـ الخاطئ على كل حال ـ من خلال ما يفهمونه منه، سواء أكان فهمهم صحيحاً، وهم يقلبون المفاهيم الصحيحة التي توصلوا إليها، أم كان فهمهم خاطئاً فتكون الحقائق قد أخذت نصيبها من الخطأ الذي وقعوا فيه، وما دام الأمر كذلك، فلم لا تكون دراسات المسلمين تنصب على أعماق الدين وتناقش قضايا العصر على ضوء هديه، وتتصدى للمطاعن التي يتعرض لها الإسلام؟، وقد كان الرسول ﷺ والمسلمون معه يلجأون إلى القرآن في كل ما يعرض لهم من قضايا، على اعتبار «أن القرآن هو الذي يحرك الحياة، وإذا كانت الحركة الإصلاحية التقليدية لم تقم إلا على الأساس ذاته، أي على القرآن، وذلك حقّ لا ريب فيه، فإن الآية القرآنية لم تكن لتستخدم في منهجها إلا كوسيلة منطقية تساق لغرض تعليمي، فالقرآن في منطقها معلم يقدم لها مقاييس من كل نوع، وبراهين تفحم الخصوم، وأدلة تدين بعض التقاليد والبدع، وهو أيضاً نموذج جمالي، بل مجموعة من المقاييس الأدبية تستخدمها بعض العلوم الاستنباطية كعلوم البلاغة»[1].

---

(1) مالك بن نبي. وجهة العالم الإسلام. ص178.

معنى هذا أن التناسق في الأسلوب والمضمون يجمع بين مقاييس الإعجاز في القرآن وكل منها يؤدي إلى الآخر ويكمله، فلا فصل بين الناحية الخلقية والسلوكية أو الاجتماعية والإنسانية والفكرية، أو الجمالية والأسلوبية، «وتتجلى هذه المعجزة في أن القرآن العظيم أرسل به أمي حاملاً في طياته رسالة خالدة بعيدة عن العنف في أسلوب دعوتها، تدعو إلى الإسلام وتقرر العدالة، وتتميز بتجرد الموضوع»[1]. والنظم القرآني الذي يحمل المبادئ والأحكام لا يوزن بميزان نظم البشر لكلامهم، فهذا كلام الله تعالى، وكلام الله صفة من صفاته. والفرق القائم بين كلام الله وكلام البشر كالفرق بين صفاته تعالى وصفات عباده، فلو اخترنا مثلاً ظاهرة التكرار في النصوص الأدبية للأدباء والكتاب نجد أن هذه الظاهرة إما أن تكون ناتجة عن شخصية الكاتب الفنية وهي تخدم أسلوبه وتحسب من مميزاته فتكون مظهراً من مظاهر الإبداع عنده، وتكون عند غيره مظهراً من مظاهر الضعف الأسلوبي حيث يأتي التكرار عنده دون سبب فني أو فكري، أما التكرار في القرآن الكريم فلا يؤخذ بهذه المقاييس التي صنفت على أساسها أساليب الكتاب في ميزان النقد الأبي، ذلك أن «التكرار في

---

(1) د. محمد صالح البنداق. في صحبة النبي. ص159.

القرآن الكريم أسلوب من أساليب الإعجاز البياني، كما كان أسلوباً من أساليب التمكين للدعوة الإسلامية، وترسيخ الأصول التشريعية التي تدعو إليها من عبادات ومعاملات وأخلاقيات، هذا إلى ما فيه من تحدٍّ بهذا الإعجاز من النظم الذي كان يتجنبه البلغاء، ويخشون الإلمام به، حيث كان داعية من دواعي سقوط الأسلوب واضطرابه وفساده. . وهكذا يجيء القرآن إلى العرب بنظمه المعجز من باب لا يرجى لمن يدخل فيه إلا الزلل والعثار»[1].

وكان برهان القرآن الكريم نفسه على ذلك واضحاً في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[2].

فالأمر إذن يختلف كل الاختلاف بين القرآن وبين غيره من الأساليب، حيث إن وراء نظمه المعجز العدد العديد من الأسرار منها ما توصل إليها الدارسون، ومنها ما لم يتوصل إليه بعد، وعلى العقلية الإسلامية أن تمارس دورها النشط والفاعل في الدراسات القرآنية، «فمعجزة القرآن جامعة من القول والعلم، وكل منهما مما يتناوله العقل

---

(1) عبد الكريم الخطيب. نظرات في سورة الرحمن. ص35.

(2) سورة النساء، الآية: 82.

بالفهم. فهي معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضي فيها، وأطلقت له حقّ النظر في أنحائها، ونشر ما انطوى في أثنائها، وله منها حظه الذي لا ينتقص، فهي معجزة أعجزت كل طوق أن يأتي بمثلها، ولكنها دعت كل قدرة أن تتناول ما تشاء منها»[1].

وقد خلق الله تعالى الإنسان وفيه استعداد ذاتي لكسب المعرفة وتحصيل العلم. والعلم هنا يكون بالكلمة التي يتعامل بها الإنسان حديثاً وكتابة، فهي تعطي تفسيراتها المختلفة لنوعيات السلوك، وطبيعة العمل، وسير المسلم على هذا النهج يكشف عن العلاقة الوطيدة بينه وبين الدين، وأخذه بتعاليم القرآن، وهو عندما يتلقى أصول تعليمه على الأسلوب القرآني فإنه بلا شك سينطبع بالطابع القرآني علماً وتطبيقاً.

ومن جهة التأثيرات الأسلوبية القرآنية نجد أن المتعمق في فهم القرآن يصبح ذا أسلوب جيد في الكتابة، والكلام إذا كان رمز الأعمال والمعبر عن ثمارها، فإنه أيضاً حصيلة علم، وثمرة معرفة، وبقدر ما يتحصل الإنسان على العلم

---

(1) محمد عبده. الإسلام والنصرانية. ص50.

والمعرفة تتكون لديه مجموعة المعاني التي تشكل رصيد فكره، وتصوره كلماته، وبقدر ما يكون الكرم بليغاً بقدر ما يؤثر في النفوس، ولماذا نذهب بعيداً ولدينا مثال مبدئي قديم يظل شاهداً على التأثير الذي تحدثه الألفاظ، وذلك عندما استمع الوليد بن المغيرة إلى النبي ﷺ تلاوة بعض آيات القرآن، وكان المشركون ينتظرون من الوليد ـ وهو البليغ الفصيح ـ أن يدلي بشهادة تسيء إلى النبي وإلى ما يتلوه، ولكن ما إن سمع الوليد تلاوة النبي حتى بلغ به الإعجاب مبلغه، فذهب يدلي بشهادته في القرآن إلى جماعة من المشركين قائلاً: «والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما يقول هذا بشر». فهل كان للوليد أن يقول غير هذا؟ لو أنه استمع إلى غير القرآن، كان يمكن أن يطعن فيه ولكن روعة البيان قتلت عنده ما كان يضمره لأنه سمع شيئاً غير الذي كان يسمع، ذلك «أن وجه الإعجاز أيضاً في كتاب ربّ العالمين يرجع إلى خلود الرسالة التي جاء بها هذا الكتاب، وما فيه من نور وهدى وصلاح وإصلاح للبشرية جمعاء، في إسعاد الفرد والجماعة، ووجه الإعجاز في هذا الكتاب الكريم يرجع أيضاً إلى ما أحدثه في حياة العرب من رقي ورفعة،

وإلى ما يحدثه أيضاً في حياة المسلمين من ثورة، وأنه لم يقف في سبيل العقل الإنساني بل حثه على النظر والفكر والتدبّر واستجلاء الأسرار والعمل لما فيه الخير في الدنيا والآخرة، وهذا الإعجاز أيضاً يرجع إلى ما أوجده من ترقٍّ للأمة العربية على عهد الرسول والأمة الإسلامية في إبان نشأتها وظهورها، وعلى مدار العصور والأزمان» [1].

فالقرآن الكريم طرح القضايا العديدة التي تهمّ الإنسان في عقيدته وحياته، ومن غير قراءة مستبصرة لآياته الكريمة فلن يستطاع التوصل إلى إدراك الإعجاز العظيم الذي وضعه الله فيه، لهذا كان الإصرار دائماً على أن يكون قارئ القرآن واعياً لما يقرأ لزيادة الفهم واستجلاء المعاني، ولنأخذ مثلاً مسألة الجبر والاختيار وحديث القرآن الكريم عنها. فإن المرور السريع على الآيات الموردة لهذه المسألة لا يتهيأ للإنسان بها أن يتمعن ويقف على أبعادها، نقرأ قول الله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [2] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [3]. وغيرها من الآيات التي

---

(1) عباس العقاد. الإسلام دعوة عالمية. ص197.

(2) سورة البلد، الآية: 10.

(3) سورة يونس، الآية: 99.

تتناول الموضوع نفسه، ويكون التساؤل كيف تكون الهداية من جهة، وكيف تكون المشيئة من جهة أخرى؟ وهل يقع الإنسان تحت قانون الجبر أم تحت حرية الاختيار؟

في طرحنا هذا لن نفلسف الأمر أكثر مما يجب ولكنا نلفت الانتباه إلى أننا يجب أن نقبل على كتاب الله متدبرين مفكرين وإلا فاتنا الشيء الكثير منه، مما لا يجب أن يفوتنا.

وفي الحقيقة التي لا مراء فيها أنه لا يوجد إشكال في هذه المسألة، وإنما الذي يجب أن يفهم من الآيات الواردة بهذا الشأن أن الإنسان مسؤول عن عمله، وعليه أن يدرك أنه مكلف بالعمل، وكونه تميز بالعقل فقد وقع تحت طائلة التكليف والمسؤولية، وهو مدعوّ إلى فعل الخير، والله سبحانه وتعالى لا يريد الشر لعباده، فهو إذن مخير في أن يفعل الشر أو لا يفعله، «ولا مراء في أن القرآن يتضمن آيات قد يفهم منها غير العارفين بحقيقة الإسلام أن الحوادث الكونية، وما يقع على أيدي العباد من أفعال ليست إلا حركات ضرورية، وليست إلا تطبيقاً وتنفيذاً لما تقرر في الأزل أن يقع، وأن فيه آيات أخرى أكثر من الأولى بكثير تؤكد أن الإنسان فاعل مختار، وأنه لهذا مسؤول عما

يقع منه، غير أننا إذا قرأنا القرآن ككل يفسر بعضه بعضاً، وعرفنا الإسلام على حقيقته، تبين لنا أن هذا التضارب المزعوم ليس إلا صورياً وأن حرية إرادة الإنسان هي القاعدة في الإسلام»[1].

وعليه فالحرية مكفولة لبني البشر، يفعل الإنسان ما يشاء، ويظل الأمر متعلقاً بنوعية العمل الذي هو نتيجة طبيعية للفكر البشري، ويبقى العمل هو الفارق بين إنسان وآخر، وما دام الإنسان يقوم بما يفعله عن اقتناع فلا يعلق لومه في النهاية إلا على نفسه، فلا حيرة. والأمر كذلك، يمكن أن يقع فيها الإنسان بين آيات القرآن التي تتحدث عن الحرية والمسؤولية: «والله سبحانه خلق الإنسان حرّاً، واختار الإنسان أن يكون حراً بشهادة الله وإرادته، وامتاز الإنسان بهذا الاختيار أي بالحرية على سائر الكائنات، وتحمل بذلك مسؤولية صناعة التاريخ، والكائنات الأخرى لا تاريخ لها، وآثر أن يكون حراً في أن يصيب وأن يخطئ وهو يصنع تاريخه»[2].

والإنسان بهذا الاختيار في القيام بما يروقه من عمل عليه أن يتقبل النتيجة راضياً، لأنه أصلاً قبل أن يحمل

---

(1) د. محمود حب الله، الثقافة الإسلامية (كتاب) ص32.

(2) د. حسن صعب. الإسلام والإنسان. ص86.

الأمانة، أمانة التكليف، وهذا ما جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[1]. وقد ذهب جملة من المفسرين إلا أن المقصود بالأمانة هنا الحرية، وعلى أساس اختيار الإنسان ورغبته في حرية التصرف كانت مسؤولية الأمانة التي تقع عليه، «فحرية الإرادة والاختيار هما القاعدة في الإسلام، وليس فيه من ناحية نظرية ما يناقض المنطق، أو يقف عقبة في طريق تقدم الإنسان، أو يحول بينه وبين أي بحث علمي، أو يمنع العقل من العمل على بحث الوجود وفهمه، وأن كل ما هو منطقي من ناحية موضوعية، وكل ما هو حقّ ونافع للإنسان من ناحية موضوعية فهو إسلامي، وميسور إدخاله ضمن تشريعاته، إن لم يكن هناك بالفعل»[2].

ويتعلق العمل بالإسلام بسموّ روح المسلم ونقائها، وإذا ترفعت النفس عن الانحراف والتفريط، واتّسمت بالموضوعية واليقينية فإن الإنسان يسلم من التهاوي في ظلمات الشر، والحديث عن الروح في القرآن الكريم جاء

(1) سورة الأحزاب، الآية: 72.

(2) د. محمود حب الله. الثقافة الإسلامية. ص35.

متصلاً بإعجازه، حيث التوجيه بالإيمان المطمئن صاحبه بالروح وما يلهمها به، وما تدرك، وهي من قبيل الغيبيات الواردة في القرآن، وعلى المسلم أن يؤمن بها يقيناً منه بعلم الله الأزلي وبقدسية الكتاب الخالدة، ومن هذا اختبار لقوة الإيمان وصدقه.

وحديث القرآن جاء قريباً إلى الحياة الباقية، وبعيداً عن المدارك الحسية، واختصه الله بعلمه لأن العقل البشري لا يستطيع أن يحيط بمداركه، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]. والمؤمن هنا مكلف بالإيمان الغيبي المطلق، لأن الإيمان كل لا يتجزأ، «أما النفس والعقل في بيان القرآن الكريم، فالراجح أن النفس أقربهما إلى الطبع أو القوة الحيوية التي تشمل الإرادة كما تشمل الغريزة، وتعمل واعية كما تعمل غير واعية، وتأتي في مواضعها من الآيات الكثيرة مرادفة للقوة التي يدركها النوم، والقوة التي يزهقها القتل، والقوة التي تحسّ النعمة والعذاب، وتلهم الفجور والتقوى، وتحاسب على ما تعمل من حسنة وسيئة، فهي القوة التي تعمل وتريد، مهتدية

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 85.

بهدي العقل، أو منقادة لنوازع الطبع والهوى، وتوضع لها الموازين بالقسط يوم القيامة»[1].

يقول تعالى:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾[2].

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[3].

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[4].

وهذه النفس التي اتضح أمرها للإنسان في حاجة إلى فعالية لأنها تمثل القوة الداخلية للإنسان التي تدفع إلى الهوى والانحراف، وعلى صدى القرآن الكريم فإن يتسنى للإنسان «أن يعلو على نفسه بعقله، ويعلو على عقله بروحه. فيتصل من جانب النفس بقوى الغرائز الحيوانية ودوافع الحياة الجسدية، ويتصل من جانب الروح بعالم البقاء وسرّ الوجود الدائم وعلمه عند الله. . وحق العقل أن

---

(1) عباس العقاد. الإنسان في القرآن. ص388.

(2) سورة البقرة، الآية: 48.

(3) سورة البقرة، الآية: 286.

(4) سورة آل عمران، الآية: 145.

يدرك ما وسعه من جانبه المحدود، ولكنه لا يدرك الحقيقة كلها من جانبها المطلق إلا بإيمان وإلهام»[1].

وبعد هذه الجولة مع عالم القرآن الرحيب في بيانه وإعجازه، بقي أن نبحث باختصار تأثيره في الحياة اللغوية على أساس أن القرآن طبع حياة الأمة بطابعه، وأثّر فيها تأثيراً كبيراً، وليس الأثر الذي أحدثه في لغتنا بأقل من الأثر الذي يحدثه في حياتنا، كيف لا؟! واللغة العربية أعظم استعداداً لاستيعاب الجديد مرحبة به في إتاحة المجال أمام الإبداع، وقد كان القرآن حدثاً ضخماً في تحويل حياة اللغة وتوجيهها إلى أن تكون لغة فكر يخطط لمستقبل هذه الحياة، ويصلح واقعها ويدل على مواطن العبرة في مظاهرها الكونية، كما أنه بدأ الخطوة الأولى لوضع الأسس الكفيلة ببناء وتشريع منظم يفي بحاجات هذه الحياة»[2].

تلقت اللغة هذا المؤثر العظيم، وفيها من الحصانة وعندها من الاستعداد وبفضل ما تتمتع به من حيوية

---

(1) المرجع السابق. ص391.

(2) د. السيد أحمد خليل. دراسات في القرآن ص35.

متجددة، فتمّ الانسجام والتكامل، ومكنها ذلك من الانتشار إلى أوسع رقاع الأرض، فلم يعجزها أن ترى ما لم تكن ترى من قبل، فقامت به واتسعت له، مستعينة بكل وسائل التطوير فيها، ولأجل ذلك قام العلماء على إمعان النظر فيما أصبح بين أيديهم من قضايا اللغة، يقيسونها قبل كل شيء بمقياس القرآن، ولأن النفوس مفطورة على حبّ الكمال، ولأن القرآن يدعونا ويحفزنا إلى أدقّ خصائص الكتاب الكريم، «كما أن دراسة النص القرآني ابتغاء الوصول إلى أدق خصائص إعجازه كان من بين العوامل التي وجهت النشاط اللغوي المتعدد في البيئة الإسلامية، وبخاصة ما كان منه يتصل بالنحو والصرف وتاريخ الألفاظ الدخيلة على العربية، والكشف عن مسالك دخولها، ومقدار ما أصابها من تغير في النطق أو في الدلالة، وكيف استطاع القرآن أن يحول هذه الدلالة من عمل وجداني إلى عمل تطبيقي واقعي محسوس، وبهذا ربط القرآن بين الوجدان والواقع، وهذا الربط بطبيعته يهيئ لنوع خاص من السلوك يكون عنواناً على ما في هذا الوجدان وما يعتمل فيه، وما يضطرب في أطوائه»[1].

(1) د. السيد أحمد خليل. دراسات في القرآن. ص159.

وحسبنا بعد هذا وذاك أن نتذوق عذوبة القرآن في كلمه ومعناه، في دلالته ومبناه، وأن ندرك وقعه وتأثيره في أعماق نفوسنا، ونحن على كل حال لن نستطيع أن نخرج بكل ما نريد من القرآن ولكن بما نستطيع، وهذا في حدِّ ذاته أعظم دلائل إعجازه.

الفصل الرابع

مع الرسول في المنهج والحياة

ـ 1 ـ

الرسالة:

تتّسم الحياة بنظامها واضطرابها مما يدفع الإنسان إلى التأمل فيها، بل وتثير غرابتها الأفكار التي تتناول وجوهها وتسير في مساربها، وحياة العرب قبل الإسلام مدعاة لكثير من التساؤلات، ومثار العديد من المناقشات، وليس أسهل على المرء من المرور سريعاً أمام واجهات الأحداث هروباً من التأمل وإمعان النظر، ولكنه يجد نفسه في كثير من الأحيان مضطراً إلى الوقوف والانتظار ريثما يعثر على ما يرضي طموحه وفضوله، ولو أردنا أن نفتح صفحة الحديث عن حياة ما قبل الإسلام لطال بنا المقام، ولكن الذي يلزمنا أن نلم به هو ذلك النمط المضطرب من الحياة العقدية الذي

ساد في ذلك العصر، وما أحدثه من تأثير على الحياة العامة والفكرية منها على وجه الخصوص.

لم تكن الأوضاع التي مرت بها البشرية في عهودها المظلمة من السلامة حتى يطمئن إليها وإلى الحياة تحت ظلها، فكان لا بد من إحداث تغيير جذري يشكل ثورة شاملة على تلك الأوضاع، فيقلب وجه الحياة، ويعيد تنظيمها من جديد، فكانت الرسالة التي بعث بها رسول الله محمد ﷺ، هدف أن تكون المنقذ للإنسان مما آل إليه من فساد، وأصاب حياته من طغيان واستبداد.

وتعتمد مسؤولية الرسل في نشر الدعوة إلى ما أودعه الله سبحانه فيهم من عقلية متميزة تفهم الأمور حقّ الفهم، ولكن مع هذا «فإن الإسلام لم يتخذ من خوارق العادات دليلاً على أن الحق بغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولم ترد فيه كلمة واحدة تشير إلى أن الداعين إليه يمكنهم أن يغيروا شيئاً من سنة الله في الخليقة»[1]، ولكنهم يتمتعون ببصيرة نافذة يفهمون بها طبائع البشر، ويسهل عليهم معها حلّ القضايا، فلا تحول المشاكل والعقبات بينهم وبين

---

(1) محمد عبده. الإسلام والنصرانية. ص51.

تبليغهم الرسالة، وقد عصمهم الله تعالى بما ينأى بهم عن ارتكاب الأخطاء، ذلك لأنهم قدوة للناس، لا يدعون كشف غيب، فهم لا يفتشون عن القلوب، ولكنهم يدعون إلى كلمة الله، وعلى هذا «فالنبي في الإسلام داعٍ إلى الهدى بحجة العقل والضمير وليس منجماً لاستطلاع الغيب، ولا وسيطاً لدفع الكوارث وجلب المنافع بين الخالق ومخلوقاته»[1].

فالأمانة الموكولة إلى الأنبياء والرسل هي من عند الله مقدسة لا يجوز بأي حال أن يوجه الشك إليها، ومجرد الشك يكون مدعاة إلى الكفر، فالرسل مأمورون بتبليغ الدعوة، ومكلفون بإرساء دعائم العدل والحق والخير لتسود الطمأنينة والسلام على الأرض، وهم يدعون إلى الإخاء والمساواة لتزول الفوارق التي تميز طبقة عن طبقة من الناس.

وعلى هذه الأسس لدعوة الأنبياء وما يحملون من أمانة، كانت دعوة النبي محمد ﷺ تحمل شمولها وعمومها على أساس أنها للناس كافة توازن وتنسق بين مطالب الدين

---

(1) عباس العقاد. الإسلام دعوة عالمية. ص84.

والدنيا، فمن تثبيت لأمر العقيدة الإلهية الواحدة وما يتبعها من عبادة إلى تعويد المسلمين على الحياة الجديدة التي تغاير من ناحية وتصلح من ناحية أخرى ما تعودوه من قبل في حياتهم، وإلى إيجاد مجتمع منظّم قوي يحكمه دستور واحد ويتساوى فيه كل الناس، وينال الجميع حقوقهم، ويقومون في الوقت نفسه بتأدية الواجبات المنوطة بهم، وهذه الأمور مجتمعة ليست بالأمر الهين، لأنها تحتاج إلى صبر وجلد ومجاهدة، وقد تمثل في الرسول كل ما يدعم سعيه في سبيل أدائه الرسالة السماوية، ومن ذلك «أن كانت مهمة محمد هي القضاء على النظام القبلي القوي الذي كان مسؤولاً عن اندلاع نار الحرب على نحو موصول تقريباً بين العرب، والاستعاضة عنه بولاء لله يسمو على جميع الروابط الأسرية والأحقاد الصغيرة»[1].

وهذه المهام الجسيمة كان يستدعي تنفيذها من قبل النبي استعداداً فطرياً يتمتع به فيؤهله للقيام بواجباته، ويفسح في نفسه مجالاً رحباً لبذل جهد غير عادي، ولقد كانت نفس النبي فيها من الاستعداد ما يتكفل بتلبية الواجب، وقد أهله الله تعالى ليقوم بأداء رسالته، فكان أن

---

(1) روم لاندو. الإسلام والعرب. ص33.

تكاملت شخصيته عليه السلام إيماناً وقوة وصبراً وعزماً، فلا يعرف اليأس إلى قلبه سبيلاً، ولا يسلك الشيطان إلى نفسه طريقاً، ولا توهن قوة الأعداء من عزيمته، ولا الصدود يقف في طريق دعوته، لأن إيمانه بها واندفاعه في سبيل نشرها، واكتمال مؤهلات النبوة لديه تقف أمام التحديات، وأما إذا اشتد الأمر عليه، وضيق القوم عليه الخناق في بداية الأمر، فما عليه إلا أن يرفع يديه إلى السماء يدعو ربه: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي وهواني على الناس، أنت أرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدوٍّ ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي. . . ! أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل عليّ غضبك، أو أن ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

كان النبي ﷺ يدرك أن الصعاب أمامه كثيرة، وأن عليه مسؤولية شاقة وخطيرة، ولهذا فقد كان إيمانه لا يحد، وصبره لا ينفد، تعرض لكثير من العذاب والإرهاق والسخرية، مما يمكن أن يثني أي إنسان عن دعوته، ولكن

الرسول واجه كل شيء بقوته، ومن أمثلة ما تعرض له، أن كان أبو جهل يتساءل بسخرية عندما يرى النبي: هذا نبيكم يا بني عبد مناف؟ وهذا السخف مع تأثيره المحزن على نفس النبي ما كان لينتزع منها صبرها، فيقول عليه الصلاة والسلام متبصراً بين خطوط ومعطيات الأيام المقبلة: «أما أنت يا أبا جهل فوالله لا يأتي عليك غير بعيد حتى تضحك قليلاً وتبكي كثيراً، وأما أنتم يا معشر قريش فوالله لا يأتي عليكم غير كثير حتى تدخلوا فيما تنكرون».

إن رؤية النبي كانت صادقة صدق جهده ونافذة نفاذ إخلاصه، وإن ما كانت تثيره دعوته بين قومه من تضارب واختلاف بين محبّ وكاره، وبين مؤيد ومعارض، ليدل أيضاً على مستقبل الدعوة القادم، والذي سينهي حياة ويبني حياة جديدة، وكان النبي لكل هذا يتصف بكل ما تتطلبه المرحلة الحاسمة من حركة وعمل. ومن معرفة بأحوال الناس وطبائعهم، «فكان في جوهره رجلاً عملياً عرف مواطن الضعف ومواطن القوة في الخلق العربي، وأدرك أن الإصلاحات الضرورية، ينبغي أن تقدم إلى البدو الذين لا يعرفون انضباطاً وإلى المدنيين الوثنيين، في آن معاً على نحو تدريجي، وفي الوقت نفسه كان محمد يملك إيماناً لا

يلين بفكرة الإله الواحد ـ وهي فكرة لم تكن جديدة كل الجدة في بلاد العرب ـ وعزماً راسخاً على استئصال كل أثر من آثار عبادة الأصنام التي كانت سائدة بين الوثنيين العرب»[1].

تميَّزت رسالة الإسلام بالعموم والشمول، فاستوجب الأمر أن يبعث الرسول بالكتب والرسائل إلى الأباطرة والحكام في بلادهم، حتى يعلم الناس في مناحيهم البعيدة أن الإسلام دين الناس أجمعين، وأنه ليس بعيداً عنهم كما أنهم ليسوا بعيدين عنه، ونزلت الآيات الكريمة تخبر بعموم الرسالة ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾[2]، ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۖ﴾[3]، وكان حديث الرسول في هذا الشأن عن نفسه ومنزلته من الأنبياء، بقوله: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون هل وضعت هذه اللبنة؟ فأنا تلك اللبنة. وأنا خاتم النبيين»[4].

من كل هذا يدرك كل متبصر ومتأمل أن الإسلام خاتم

(1) روم لاندو. الإسلام والعرب. ص33.
(2) سورة سبأ، الآية: 28.
(3) سورة البقرة، الآية: 119.
(4) أخرجه البخاري ومسلم (من من كتاب فقه السيرة لمحمد الغزالي) ص141.

الديانات، وأن الرسول آخر الأنبياء والمرسلين، فكان تبليغ الناس كافة من طبيعة الدين الإسلامي، وهذا معنى أن القرآن الكريم يصدق الكتب السماوية السابقة عليه ويهيمن عليها، ومن هنا تعتبر عالمية الدعوة الإسلامية من خصائص الإسلام الأولية، ولكي تنتشر على المستوى العام، كان لا بدّ لها أن تمر أولاً بمرحلة الخصوص، وذلك بنشر الإسلام في بلاد العرب، بل وأخص منها أن تنتشر بين من يحيطون بالرسول، ومن ذلك ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1]، صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي ـ لبطون قريش ـ، حتى اجتمعوا، فجعل الذي لم يستطع أن يخرج يرسل رسولاً لينظر، ما هو؟ فجاء أبو لهب وقريش، فقال النبي ﷺ أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيّ؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد!». فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم. ألهذا جمعتنا[2]! فنزل قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[3].

---

(1) سورة الشعراء، الآية: 214.

(2) أخرجه البخاري. (من كتاب فقه السيرة للغزالي) ص101.

(3) سورة المسد، الآية: 1.

لماذا تحمل الرسول كل هذا المكروه الذي نزل به؟ ولماذا صبر على خصام السفهاء له؟ ولماذا واصل طريق الدعوة رغم الصعاب البالغة ورغم العذاب والعناد؟ لو كان لمطمع مادي لجمعوا له الثروة التي عرضوها عليه، ولو كان لغرض دنيوي لمال إلى الحكم والسلطان والسيادة على قريش وقد استعدوا أن يسودوه عليهم. فإذا لم يكن صموده وثباته على المبدأ لأي غرض من الدنيا، فإنه سيكون لشيء غير ذلك هو أسمى، بل إن المقارنة غير منطقية لبعد الفارق، فقد أقبل على الله تعالى بكل جارحة فيه، وتجرد من أي شيء يمكن أن يخفف من ثباته، حتى إنه لم يترك فرصة لأحد أن يتصوّر بإمكانية أن يكون (الرسول) واسطة بين أي إنسان وبين الله تعالى، فلما حدد مسعاه في بداية الدعوة لأقرب الأقربين إليه، فيما يرويه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت رسول الله، سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً»[1].

(1) أخرجه البخاري. (عن كتاب فقه السيرة للغزالي) ص19.

فهل لو كان وراء ما يدعو إليه الرسول غير هدف نشر الإسلام، هل كان يقف عنده المواقف المجردة من قومه وأهل بيته؟ تقول: في وسط تلك الأوضاع في الجزيرة العربية التي كان عليها الناس هناك لم يكن لينجح صاحب أطماع، وما كان ليثبت حامل طموحات شخصية على ما يدعو إليه، ولكن صاحب الدعوة الذي يتجرد من ذلك كله ليخلص وجهه إلى الله، هو من جعل بصدقه وإخلاصه وتفانيه في سبيل الله تعالى كل عرب الساحة يدينون بما يدين به، لأنهم وجدوا أن صاحبهم بعيد عن الظنون مترفع عن الشبهات، وكانت طبيعة الدعوة الإنسانية سبباً واضحاً أشعر الناس خارج الجزيرة أن الإسلام هو ما كانوا ينتظرون، ووجدوا أنهم في إسلامهم سيدخلون حياة كثيراً ما كانوا يتمنون أن يعيشوها.

كان الرسول يحزن للإعراض المقرون بالتكذيب والتحدي، وتظهر علامات الأسف على وجهه، ولكنه لم يكن لييأس، أو ينسى ـ ولو لحظة ـ دعوته ـ لأنه يحملها أمانة يعلم ويحسّ ثقلها ويؤمن بقدسيتها، ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[1].

(1) سورة الأنعام، الآية: 33.

ومع هذا التثبيت الإلهي للرسول، كان لا يترك أية مناسبة إلا ويدعو فيها إلى الله، ويملأ قلوب أصحابه ثقة وطمأنينة، يؤملهم في نصر الله قائلاً: «والله ليتمنّ الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمه»:

إن دعوة الرسل إلى الأديان التي يكلفون بنشرها، هي دعوة إلى تغيير حياة بلغت حدّاً مؤثراً في الفساد والطغيان، بحيث لا يعود معها الإنسان مطمئناً على نفسه، لَذلك «فإن مهمة أي دين سماوي شامل هو أن ينقل البشرية من وضع معين إلى وضع أرقى منه، وفقاً للمهمة التي أنيطت بالإنسان عندما استخلفه الله على الأرض واستعمره فيها»[1]، وعليه فقد كان على كل التيارات المتقابلة والزعامات المختلفة في أي عصر «أن تفسح الطريق للقادم الجديد كي يأخذ على عاتقه مهمة القيادة في عملية الإعمار والتحضر»[2].

ومعنى الإسلام هنا أن يلغي كل المفاضلات التي كانت قائمة تميز بين إنسان وآخر أو بين طبقة وأخرى

---

(1)،(2) د. عماد الدين خليل. دراسة في السيرة. ص54.

بمظهر زائل من مظاهر الدنيا، وهو في جوهره إصلاح يشمل كل أمور الحياة.

رأي من الغرب:

لأن الإسلام لاقى نجاحاً كبيراً وانتشاراً واسعاً، فقد قام كثير من الكتاب الغربيين يتصدون للإسلام، يكيدون له ويشوهون صورته، حتى تمكنوا من الحدّ من انتشاره والتقليل من عدد الداخلين فيه، ولن يعجز أحد أن يلتمس هذه الحقيقة في كتابات وأعمال الغربيين، سواء أكانوا من المستشرقين أم من المبشرين، أم انطلقوا من منطلقات شخصية.

ومن السهل على هذا الصنف من الكتاب التهجم على الرسول ووصفه بما لا يتفق والذوق الإنساني، ذلك لأن الحقد أعماهم فضلوا السبيل، ولأن حججهم يعتريها الزيف والبهتان، فإنهم دائماً في مثل هذه الكتابات يخالفون المنهج العلمي الصحيح الذي يزعمون التمسك به. وسنعرض موقفاً مخالفاً لكتابات التهجم، لا نقول كل المخالفة لكنهم يتميزون عنهم بمحاولة الاقتراب من الحقيقة، صاحب الرأي الذي نعرضه (مونتجمري وات) صاحب كتابين خصهما عن الرسول، الأول: محمد في

مكة، والثاني: محمد في المدينة. يقول الكاتب: «واتهام محمد بأنه «دجّال» يثير من المشاكل أكثر مما يحل، ومع ذلك فليس هناك شخصية كبيرة في التاريخ حطّ من قدرها في الغرب كمحمد، فقد أظهر الكتاب الغربيون ميلهم لتصديق أسوأ الأمور عن محمد، وكلما ظهر أي تفسير نقدي لواقعة من الوقائع ممكناً قبوله»[1]. وهو هنا لم يضع السكين على المفصل ـ كما يقولون ـ لعلهُ لا يريد أن يغضب بني قومه مرة واحدة، ولكنه على كل حال يقف موقفاً متميزاً عن الغالبية منهم، وهو يعرض لبعض آرائهم ويبدي موقفه منها، يقول: «ولقد أكد أعداء الإسلام غالباً أن محمداً كان مصاباً بالصرع، وأن تجاربه الدينية لهذا لا قيمة لها، ولكن الأعراض الموصوفة لا تشبه أعراض الصرع، لأن هذا النقص يؤدي إلى تخاذل جسدي وعقلي، بينما ظل محمد حتى آخر حياته مالكاً لقواه العقلية، حتى ولو أمكن ادعاء ذلك فإن الحجة تظل مناقضة لكل رأي سليم إذ لم تقم إلا على الجهل والوهم»[2].

ويظهر أن الكاتب يحترز في الرد، إلا أننا لا ننتظر أن

---

(1) مونتجمري وات. محمد في مكة. ص94.

(2) المرجع السابق، ص101.

يكتب بنفس إسلامي ساخن، وحسبه علمية أنه يحاول التجرد من الكيد والدسّ، وإن كان أحياناً يصل إلى حدّ المغالطة، أو لعلها سوء الفهم لروح الإسلام والذي أوقع كثيراً من المنصفين في المغالطة العلمية. فهو يورد هذه الآيات الكريمة: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾[1] ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾[2].

يبدي رأيه فيقول: «يدل على أن التفاصيل لم تكن جميعها معروفة من محمد نفسه، ويجب مع ذلك أن نذكر هنا بأن التمييز الغربي بين الواقعة المجردة ومغزاها ليس مفهوماً في الشرق، وربما اطلع محمد على الوقائع المجردة في الآيات المذكورة تتعلق القصص بمريم وعيسى وزكريا وحنا، الذين كان محمد يعرف عنهم بعض الأشياء، لكنه ربما لم يقدر مغزى هذه الوقائع المجردة، فكان بحاجة لإدراك هذا المغزى تماماً أن يزيد معلوماته عنها. ومهمة هذه المعلومات في نظر الغربي أن تعبر عن المغزى وليس أن توضح الواقعة المجردة، أما في الشرق العربي، حيث

---

(1) سورة البروج، الآيتين: 17 و18.

(2) سورة آل عمران، الآية: 44.

لا يقيم الناس مثل هذا التمييز فيكفي القرآن أن يقول أنباء»[1].

تبدو المغالطة واضحة في رأي الكاتب، وليس صحيحاً أن القرآن يكتفي بذكر الأنباء، وهذا هو سوء الفهم الذي يقع فيه مثل هذا الكاتب والذي كان أولى به أن تكون دراسته للقرآن كلية، وذكر الأنباء في القرآن لا يتجرد من المعنى والمغزى، ونرد عليه من القرآن نفسه، يقول الله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[2]. ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3]. ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[4]. ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[5].

ففي هذه الآيات الكريمة الدلالة الواضحة لمعنى القصص القرآني والذي لا يتوقف عند مجرد ذكر النبأ، ومع أن الكاتب كما نرى يقيم الحجة من آن لآخر على من

---

(1) المرجع السابق. ص142.

(2) سورة هود، الآية: 120.

(3) سورة الأعراف، الآية: 176.

(4) سورة يوسف، الآية: 111.

(5) سورة النور، الآية: 34.

يتهجمون على الإسلام من أبناء جلدته إلا أنه يقع في الخطأ نتيجة عدم فهمه الكامل لروح الإسلام، وهنا يلزم التنبيه إلى أنه يجب علينا أن نكون حذرين مما يكتبه الغربيون مهما التزموا الروح العلمية، لأن عدم فهمهم لأصول اللغة يوقع الكثير منهم في مثل هذه الأخطاء.

ونختم عرضنا لموقف الكاتب برأي يبدي فيه إعجابه بالرسول، يقول: «كلما فكرنا في تاريخ محمد وتاريخ أوائل الإسلام، كلما تملكنا الذهول أمام عظمة مثل هذا العمل، ولا شك أن الظروف كانت مواتية لمحمد، فأتاحت له فرصاً للنجاح لم تتحها سوى للقليل من الرجال، غير أن الرجل كان على مستوى الظروف تماماً، فلو لم يكن نبياً ورجل دولة وإدارة، ولو لم يَضَعْ ثقته بالله، ويقتنع بشكل ثابت أن الله أرسله، لما كُتب فصل مهم في تاريخ الإنسانية»[1].

وليس لنا إلا أن نؤكد بشكل لا يقبل الجدل على أن الرسول ﷺ أحدث بالإسلام تغييراً جذرياً في الحياة الإنسانية، تمثل في حضارة خالدة نعم الإنسان في ظلها وتحققت إنسانيته في صورتها الرائعة.

---

(1) مونتجمري وات. محمد في المدينة. ص512.

ـ 2 ـ

الواقع العملي في حياة الرسول:

يرتفع الواقع العملي في نبوة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بكل الحقائق المتعلقة بالرسالة إلى مفهوم العقل البشري يرتاح إليها، ويتقبلها المنطق السليم بكل رضى، ومنذ أن استمع الرسول إلى الوحي الإلهي: «يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل». بدأت النبوة مرحلتها العملية، ولم يكن أدل من شدة تأثير الواقعة هذه على النبي من طلبه من أهل بيته ـ السيدة خديجة أنذاك ـ: دثروني.. دثروني، فنزل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ * وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾[1]. فهي الرسالة، وهي النبوة.

انطلق الرسول يدعو إلى دين الله، ويعمل على أن يفهم الناس بأن دعوة الإسلام في أصولها وفي تطبيقاتها المختلفة هي دعوة إلى الإنسان كي يتحرر من كل أشكال العبودية التي كبلت عقله وعرقلت حياته، ليجعل عبوديته لله فقط، ومن خلال الوصايا التي حملها الرسول سفراءه

(1) سورة المدثر، الآيات: 1 ـ 7.

وقادته، «كان حريصاً فيها على حقن الدماء، وأهم من ذلك هو الروح السمحة التي تتجلّى واضحة، وهذه الأخلاق الكريمة التي تعبر عن أخلاق الفروسية خير تعبير والتي تنهى عن العلو والغدر والتمثيل وقتل الأطفال»[1].

ومن ثم كان انتشار الإسلام بالصورة التي عرفها التاريخ العالمي، وبشكل لم يسبق له مثيل، ولم يستطع أي مؤرخ ولا كاتب منصف أن يخفي إعجابه بهذه الحقيقة في انتشار الإسلام، وهل يتوقع لدين على هذه السماحة ويحمل المبادئ الإنسانية المثالية أن يتوقف انتشاره عند حدّ معين، أو أن ينتهي في فترة زمنية محددة؟

بدراسة تاريخ الإسلام دراسة موضوعية علمية نتبين أن انتشاره كان يجب أن يكون كذلك، فكل المعطيات من بدء الرسالة ثم انتشارها تشير إلى ما يجب أن يقرّ به كل مدرك لحقائق التاريخ أن الإسلام ظفر بالترحاب الإنساني، لأن الإنسان وجد نفسه في هذا الدين، «وأن اختيار النبي وانتصاره في شبه الجزيرة العربية وتقدم خلفائه الخاطف بالسيطرة في أقل من قرن بعد وفاته على كامل العالم

---

(1) د. صالح البنداق. في صحبة النبي. ص220.

المعروف عندئذ تقريباً ـ باستثناء جزء من أوروبا الخاملة ومن صين صاعدة نحو ذروة تقدمها ـ لا يمكن أن يفهم بدون الاعتراف بمكانة أولى لرسالة نوعية للإسلام»[1].

إن المجتمع الذي بناه النبي بمشاركة المسلمين الأوائل بنته نفوس بلغت شأواً بعيداً من كرم الخلق وسعة الكفاية، وعمق اليقين، وروعة التجرد وسلامة القلب من كل أطماع شخصية، فكان الصدق في المسعى، والإخلاص في العمل طابعاً يطبع المسلمين، ولأن النفوس ربيت على هذه الفضائل، «فقد كان قيام مجتمع المدينة على أساس التآخي بين المسلمين الذين هاجروا من مكة وبين الأنصار من أهل المدينة بداية عصر جديد في التاريخ العربي، فقد حلت رابطة الإيمان المشترك محل الروابط القبلية، وحلت الفضائل الشخصية محلّ التناحر بالأحساب، وحلّ التناصر على البرّ والتكافل لضمان الحياة الكريمة لكل فرد، محل التناصر بالحق وبالباطل، والتباهي بكثرة الأموال والأولاد»[2].

وحتى يتم تثبيت المبادئ الجديدة نرى الرسول الكريم

---

(1) روجيه غارودي. وعود الإسلام. ص24.

(2) د. شكري محمد عياد. الحضارة العربية. ص28.

دائماً ما يتعهد القلوب بالصقل، ويأخذ النفوس بالأدب الشامل، وينسق الصفوف لتظل مستعدة يقظى لكل ما يحدث، واعية لدورها الذي تضطلع به، قائمة بالحق الذي يقطع على الظلم طريقه.

وتحقق للرسول ما خطط له وقام البناء الشامخ على الأصول الراسخة، وذلك «لأن المجتمع الإسلامي الأول لم يتأسس على عاطفة مجردة، أو شعور ساذج، بل قام على عمل جوهري هو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وكان ذلك ميثاقاً لتلك الحركة الحديثة التي حاولت التأليف بين أعضاء المجتمع، تأليفاً يحمل معنى المشاركة في الأفكار والأحوال»[1].

في معايشتنا للوقائع العلمية في حياة الرسول نستفيد دروساً لها قيمتها في حياتنا، ويهمنا ونحن نقلب صفحات تاريخنا الإسلامي أن نقف على بعض كتابات الغربيين الذين كتبوا في هذا المجال، ونعود مرة أخرى إلى (مونتجمري وات) وهو يتحدث عن بناء الدولة في عهد الرسول، ومدى الجهد الذي بذله ـ عليه الصلاة والسلام في ذلك ـ، وهو

(1) مالك بن بني. وجهة العالم الإسلامي. ص178.

لا ينفي جهد النبي ولكنه لا يعطيه الحجم التاريخي المطلوب، يقول: «لا شك أن المصادر حين تتحدث عن فتنة المسلمين إنما تشير لمثل أعمال أبي جهل، وهي ليست فتنة قاسية، يتأكد ذلك إذا ما فحصنا بدقة سِير ابن هشام والطبري وابن سعد، لأن ما يذكر فيها يتحدث بلا شك عن أفظع الشواهد، وكل شيء يدعو إلى إقناعنا بأن الاضطهاد كان خفيفاً، ومن الممكن أن المبالغة في الاضطهاد نشأت من محاولة نفي تهمة الارتداد عن الدين عن شخص من الأشخاص»[1].

وهذا يعتبر تخفيفاً من حدة المعاناة التي كان الرسول يعانيها، والمعروف فعلاً أن النبي لاقى الشيء الكثير من العنت والألم، ولكن يظل بعض الكتاب الغربيين - وإن حاولوا أن يتصفوا بالموضوعية - في نفوسهم شيء على الإسلام، كالذي نراه الآن، فيقول الكاتب نفسه في هذا الشأن: «وتشهد الوثائق التي لدينا على مختلف مظاهر المعارضة المذكورة عن ابن إسحاق، فقد شتم محمد وتعرض لإهانات بسيطة كأن تجمع أوساخ جيرانه أمام

(1) مونتجمري وات. محمد في مكة. ص190.

منزله»[1]. ونحن بدورنا نتساءل: هل هذا فقط هو ما لقيه النبي من قومه، فأين أحداث الطائف، وأحداث المقاطعة، وما لقيه من أبي لهب وغير ذلك كثير، أم أن الكاتب أصبح كالذي علم شيئاً وغابت عنه أشياء، مع أنه فرض على نفسه ـ منهجاً علمياً معتدلاً ـ على حدّ قوله: «ألزمت نفسي، رغم إخلاصي لمعطيات العلم التاريخي المكرس في الغرب، ألا أقول أي شيء يمكن أن يتعارض مع معتقدات الإسلام الأساسية، ولا حاجة بنا إلى القول بوجود هوة فاصلة بين العلم الغربي والعقيدة الإسلامية، وإذا حدث أن كانت بعض آراء العلماء الغربيين غير معقولة عند المسلمين، فذلك لأن العلماء الغربيين لم يكونوا دائماً مخلصين لمبادئهم العلمية. وأن آراءهم يجب إعادة النظر فيها من وجهة النظر التاريخية الدقيقة»[2]. وهذا كلام نقبله، ولكن الذي لا نقبله هو عدم التقيد به، ومن هنا وجب أن نقرأ ما يكتبه غير المسلمين عن الإسلام بعناية، ولا نسلّم بكل ما يكتبونه، حتى لا تغدو آراؤهم محلاً لليقين.

---

(1) المرجع السابق. ص191.

(2) المرجع السابق. ص6.

بدأ الرسول ﷺ عملية الدعوة على النطاق الواسع خارج شبه الجزيرة، بالدعوة السلمية إلى الدين الإسلامي، يدعو الناس محبباً مرغباً، فكانت الكتابات لحكام الدول، وكان «المكسب الأكبر الذي حققه الرسول من وراء كتاباته تلك أنها جاءت حملة (إعلامية) على النطاق الدولي من أن هذا الدين ليس دين عرب أو جزيرة عربية، وإنما هو دين الإنسان حيثما كان هذا الإنسان، ونداء إلى السلطات الحاكمة أن تستجيب للدعوة، أو تسمح ـ على الأقل ـ لدعاتها بممارسة نشاطهم بحرية، ولشعوبها في مقابلة هؤلاء الدعاة والاستماع إليهم لكي يختاروا عقيدتهم على بينة بعيداً عن الضغط والقسر والإكراه، وإنذاراً لهذه السلطات بأنها إن لم تلبّ وتستجب فإن جيوش الدعوة الجديدة ستنساح عما قريب في مشارق الأرض ومغاربها»[1].

تذكر هذه الحقيقة من حقائق الدعوة حتى تكون فكرة الحرب في الإسلام واضحة، وحتى لا يبقى هناك مجال لتشويه معالم الإسلام بجعله دين سفك للدماء، فالإسلام دين قوة ومنعة، يقوم المسلمون فيه بحماية أنفسهم، والدفاع عمن والاهم وعاهدهم على الصلح، فهل إذا

---

(1) د. عماد الدين خليل. دراسة في السيرة. ص293.

حافظ المسلمون على قوتهم، وحاربوا من يناصبهم العداء وقاوموا الجيوش التي تقف في طريقهم، يعدون محبين لسفك الدماء؟.

من هنا يقال «إن الحرب في الإسلام حرب دفاعية بكل ما في الكلمة من معنى، لا يبدأ المسلمون فيها الاعتداء على أحد، ولا يريدون من ورائها إلا حماية نشر الدعوة، وتوطيد أركان الإسلام في العالم، لأن الإسلام جاء للناس كافة، لا لأمة من الأمم، ولا لشعب من الشعوب، ولكنه للعالم كله آملاً في تحقيق فكرة سامية، هي فكرة وحدة الإنسانية جمعاء»[1]. من هذا المفهوم لفكرة الحرب في الإسلام، ومن وعينا لحقيقة الدعوة الإسلامية نفهم قول الله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾[2]، فماذا يريد الناس أكثر من هذا، إن أحبوا الأمن والطمأنينة، وإن آثروا السلامة وحقن الدماء عاشوا في رحاب الإسلام في هدوء واستقرار، لأن السلام للجميع ، ومن أهداف الإسلام أن يحقق السلام لكل الناس.

وحتى عندما نرجع إلى بداية الدعوة، اتخذ الرسول

---

(1) محمود شيت خطابّ. الرسول القائد. ص16.

(2) سورة الأنفال، الآية: 61.

الطريق السلمي، ولكن كبر على المشركين ما يدعوهم إليه رسول الله، فأقدموا على محاربته بالكيد تارة وبالإغراء تارة أخرى، ورفض الرسول عروضهم، وعندما ضُيّق الخناق على أبي طالب من كفار قريش، قال لابن أخيه: أبقِ على نفسك وعليّ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق». ولو أن الأمر كان عند الرسول مجرد استجابة عاطفية، أو كان يدعو إلى تضامن سريع مع العم لانتهى كل شيء عند ذلك الحد، ولكنها الأمانة العظمى التي تمر بهذه المواقف فتجعلها محك تجربة وتحملها رصيداً لأحداث عظيمة مقبلة، للجهاد بكل تبعاته وعواقبه ومتطلباته ونتائجه، فأخفق الإغراء وخاب الإرهاب، وفشلت المؤامرات، وأدركت قريش أن ما يدعو إليه محمد غير ما كانوا يظنون، فكان الكيد وكانت المكابدة الصعبة، وكانت الهجرة لوناً من ألوان الجهاد في سبيل الله، وانتهى الأمر باستقرار الرسول مع المسلمين في المدينة.

كوّن الرسول أو جيش في الإسلام، وأحرز المسلمون انتصاراً مؤزراً في بدر، حينها أيقن المشركون أن الخطر يحيط بهم، وأنهم مقبلون على نهاية تذهب بسيادتهم وكبريائهم، وأما المسلمون فقد اطمأنوا كل الاطمئنان إلى

النصر، فحملوا مع الرسول مسؤولية نشر الإسلام، فكان تأييدهم آية من آيات الولاء والطاعة، «والمسلم الصحيح هو الذي يقدر الرسول حقّ قدره، فيعترف بأن كفاءة الرسول قائداً ممتازاً، وكفاءة أصحابه جنوداً ممتازين، هي التي أمنت لهم النصر العظيم[1]، ولأن هذا الموقف تحقق عملياً فقد كانت النتائج حاسمة في إيجابيتها لصالح الإسلام.

* * *

وتطل علينا أحداث غزوة أحد، وسوف نقف عندها بعض الوقت متأملين تجربتها وأبعادها، ولن نخوض ـ على أي حال ـ في التفاصيل التي أصبح القارئ في غنى عنها، ولكننا نحب أن نشير إلى بعض الآراء التي تقدم رؤية خاصة إلى هذه المعركة.

يعتبر الكاتب العسكري محمود شيت خطاب أن ما حدث في أحد هو نصر للمؤمنين، وهي في الوقت نفسه تعتبر مواجهة حقيقة بين الرسول والمرحلة الجديدة في البناء... والدعوة.. والجهاد.

يقول شيت خطاب: «ولا يمكن اعتبار فشل القوة

---

(1) محمود شيت خطاب. الرسول القائد. ص8.

الكبيرة في القضاء على القوة الصغيرة مادياً ومعنوياً في مثل هذا الموقف الحرج للغاية إلا فشلاً لها، ولم تستطع قريش أن تؤثر على معنويات المسلمين أيضاً وإلا لما استطاعوا الخروج لمطاردتها بعد يوم فقط من يوم أحد، دون أن تتجرأ قريش على لقائها بعيداً عن المدينة، خاصة وأن الرسول قد خرج للقاء قريش بقوته التي اشتركت فعلاً بمعركة أحد، دون أن يستعين بغيرهم من الناس»[1].

وصدق الرسول الوعد لقريش في اللقاء حتى يثبت لهم أن الإسلام ما زال بخير، وأن المسلمين ما زالوا أقوياء، ولن يكون بمقدور معركة أن تنهي كل شيء كما توهم المشركون، وفي هذا الشأن يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

كانت تجربة قاسية بلا شك مر بها المسلمون، ولا بد من خوض التجارب في حياة الأمم والشعوب، وخاصة في

---

(1) محمود شيت خطاب. الرسول القائد. ص120.

(2) سورة آل عمران، الآية: 152.

بدايات التكوين والبناء، ويظل الأمر معلقاً على مدى الاستفادة من التجربة، وقد كشفت الأحداث المتالية على أن تجربة أحد رجعت بمردود إيجابي كبير حيث فشل المشركون فشلاً كبيراً، وأحرز المسلمون انتصاراتهم المشهودة التي كللت بفتح مكة.

ويرى (مونتجمري وات) رأياً قريباً من رأي شيت خطاب، يقول: «وإذا لم تكن معركة أحد هزيمة تامة للمسلمين، فإنها لم تكن انتصاراً للمكيين، إذ كان الهدف الاستراتيجي للمكيين القضاء على الأمة الإسلامية لا أكثر ولا أقل، ولم يحققوا هذا الهدف»[1].

نتبين من ذلك أن أحداً كانت درساً عظيماً تلقاه المسلمون ومثل هذه الدروس مهمة إلى حد بعيد، يعاد فيها النظر إلى كثير من الأمور، وتعرف حقائق كانت غائبة، كما أنها تبعث على تجديد البناء في المجتمع ليتكافأ والأحداث التي تمر بها الأمة.

تهيأ المشركون لغزو المدينة، يريدون القضاء على

---

(1) مونتجمري وات. محمد في المدينة. ص42.

الإسلام، بضرب المسلمين ضربة قوية، يريدون لها أن تكون الأخيرة، ليريحوا أنفسهم من هم أرهقهم وشتت عليهم تفكيرهم، وكما خططوا فقد تجمع الأحزاب لتحقيق ما هدفوا إليه.

وفي المدينة تظهر براعة النبي وكفاءته الفذة والنادرة في القيادة والعمل، ويبذل المؤمنون إلى جانب الرسول جهوداً عظيمة لحماية دينهم، فأنجزوا جميعاً حفر الخندق، وكان النبي ﷺ يردد شعر عبد الله بن رواحة أثناء العمل يشد من أزر المسلمين:

والله لــولا الله مــا اهــتــديــنــا

ولا تــصــدقــنــا ولا صــلــيــنــا

فــأنــزلــن ســكــيــنــة عــلــيــنــا

وثــبــت الأقــدام إن لاقــيــنــا

إن الألــى قــد بــغــوا عــلــيــنــا

إذا أرادوا فــتــنــة أبــيــنــا

وقد أيد الله تعالى بنصره المؤمنين وامتدحهم في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا

ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا﴾[1].

وأما ضعاف الإيمان والمنافقون فإنهم ينتهزون الفرص ليفروا أو يوقعوا الفتنة بالمؤمنين، وقد كشفهم القرآن الكريم في قول الله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ۞ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ۞ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا﴾[2].

فشلت الأحزاب فشلاً ذريعاً في تحقيق الأهداف التي روجتها من وراء الغزوة، كما أنها أحدثت ردّ اعتبار قوي للمؤمنين، فاكتسبوا من النصر مزيداً من الثقة والطمأنينة، ونمت الدعوة نماء ملحوظاً، وأصبح معنى «فشل الأحزاب بعد هذا التحشد الهائل، أنهم لن يجتمعوا مرة أخرى وأنهم لا يستطيعون القضاء على المسلمين بعد ذلك منفردين بعد أن عجزوا عن القضاء عليهم مجتمعين، ولهذه النتجية أثر حاسم على انتشار الإسلام فيما بعد»[3].

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: 22.

(2) سورة الأحزاب، الآيات: 12 ـ 14.

(3) محمود شيت خطاب. الرسول القائد. ص158.

وتغير الوضع العسكري متطوراً على أيدي الرسول والمؤمنين بعد تلك الأحداث، ولأنها كانت بالغة الأهمية، فإن التطور الناجم عنها لا بد أن يكون ملحوظاً وبشكل يدعو إلى الإعجاب والفخر، «فقد انتقل المسلمون من دور الدفاع إلى دور الهجوم في اليوم الذي انتهت فيه غزوة الخندق، لذلك قال الرسول لأصحابه بعد انسحاب الأحزاب: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا»[1].

تحققت عملياً نتائج غزوة الأحزاب، وأسفرت عن حساب لقوة المسلمين، وأنها قوة لا يستهان بها، وأن الأيام القادمة في حياة المشركين، لا يطمأن إليها، فتم صلح الحديبية، وتفرغ المسلمون بهذه الهدنة لنشر الدعوة الإسلامية داخل الجزيرة العربية وخارجها، وأخذت قوة المسلمين في التزايد يوماً بعد يوم، فإذا بهم على مشارف مكة يحملون في قلوبهم إيماناً ثابتاً، وفي نفوسهم عقيدة لا تتزعزع، وفي أيديهم قوة تحمي الإيمان وتنشر العقيدة وتقهر أعداء الله.

سلك الرسول ﷺ كل الطرق السلمية في فتح مكة،

---

(1) المرجع السابق. ص158.

من إيقاد النيران، ومن تمكين أبي سفيان من رؤية الفرق الإسلامية وهي تسير صوب مكة، وأعطى الأمان لمن يعلن إسلامه أو يدخل البيت الحرام أو دار أبي سفيان، أو يلزم بيته، «إذ ليس من السهل أن ترضى قريش بمصيرها هذا وتقبل على الإسلام طائعة وتحمل رايات الجهاد، لو لم تعامل هذه المعاملة السلمية التي لم تكن تتوقعها، وبذلك انقلب موقفها من أشد الناس عداوة للإسلام إلى أحرص الناس على رفع راية الإسلام»[1]، فكان تحقيق الانتصار في فتح مكة خلاصة للتجارب السابقة التي استفيد منها بحقّ.

تمثلت في الفتح الأكبر مواقف عظيمة أشرقت بها صفحات التاريخ، وكان أبرزها موقف الرسول، الذي جسم فيه مبدأً إسلامياً خالداً، وأعطى فيه الصورة الحقيقية لمعنى التسامح والأخوة في الإسلام، قال وهو القوي: «يا معشر قريش! ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً. أخ كريم وابن أخ كريم، قال: فإني أقول لكم ما قال يوسف لإخوته، لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء». وكيف تظهر القوة المؤمنة إن لم تظهر في مثل هذا اليوم،

---

(1) المرجع السابق. ص240.

وهي قوة بناء تهدي إلى الخير والرشاد، ولا تعمل على الإفساد والتخريب كما هي عادة الجيوش الغازية التي تتسلط بقوتها على الضعفاء. وما دام المؤمن قوياً فلن تصده العقبات، أو تضعف من عزيمته القوة المناوئة، لأنه قادر على التحدي والمواجهة، وقادر في الوقت نفسه على البذل والعطاء وعلى الحركة الفاعلة البانية.

ولكي تكتمل فكرة الإعداد والقوة في الإسلام نُعرّج على غزوة حنين، وهي التي سجلت صفحة هامة في التاريخ الإسلامي، وقدمت الدرس المتجدد عظة وعبرة في تهذيب النفوس وتقويمها، وهنا نتساءل: هل يكفي أن نكون كثراً حتى ننتصر؟ وتعجبنا الكثرة فتقلل من جهدنا وعزائمنا. وهذا ما جال في نفوس كثير من المسلمين في المرحلة الأولى من المعركة فاضطربت صفوفهم، ولكن صمود الرسول ومن حوله جمع الصفوف من جديد، وتمّ تحقيق النصر، ونزلت آيات الله تتحدث بكل صراحة عن هذا الموقف، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا

وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1]، فكان الدرس وكانت العظة أمرين لازمين في حياة المؤمنين.

إن تشخيص العيب ومعالجته يذهبان بالوهن، ويجددان النشاط ويدفعان إلى القوة، وغزوة حنين وما حدث فيها قدمت هذا المعنى متكاملاً، حتى نتحاشى السلبيات، وتتعزز في نفوسنا القوة الروحية المعنوية لتقف مساندة القوة المادية تثمرها لتعملا متكافلتين في كل وقت، والذي يؤخذ بالاعتبار «أن انتصار المسلمين لم يكن لكثرتهم في أي معركة خاضوها بل كان انتصارهم لعقيدتهم الراسخة، وأكبر درس يمكن استنتاجه من معركة حنين هو فشل المسلمين على كثرتهم في مستهل المعركة لوجود بعض ذوي العقائد الواهنة بين صفوفهم، أما انتصار المسلمين في حنين بعد ذلك فكان بثبات ذوي العقائد الراسخة وقيامهم بالهجوم المقابل، فانتصروا على الرغم من قلتهم ـ قلة الذين صمدوا»[2].

يعلمنا الرسول بذلك كيف نكون أقوياء في أنفسنا، في عقيدتنا، وكيف نثبت على المبدأ، وأن نبتعد عن الغرور

---

(1) سورة التوبة، الآيات: 25 و26.

(2) محمود شيت خطاب. الرسول القائد. ص261.

لأنه مطية المهالك، وقد دفعت مواقف الرسول بأقلام بعض الكتاب الغربيين إلى الإعجاب، يقول واحد منهم ومعقباً على انتصارات الرسول، بعد فتح مكة على التحديد: «ونحن لا يسعنا في كل ذلك إلا أن نعجب بإيمان محمد بقضيته، ببعد نظره وحكمته، وبينما أمته لا تزال صغيرة، تكرس كل قواها لكي لا يقضي عليها أعداؤها، إذا به يعمل لتوحيد شبه الجزيرة العربية والتوسع بها نحو الخارج»[1].

بكل جهد وبكامل التقدير كان الرسول يزن الأحداث، ويعطي المواقف حقها من النظر، ويتثبت من كل شيء قبل الشروع فيه، وإذا كان قد حدث أن اضطربت الأحوال في بعض الحروب التي خاضها مع صحابته، فإن مرد ذلك راجع إلى عدم التنفيذ الصحيح، أما الرسول «فقد عمل بكل مبادئ الحرب المعروفة إضافة إلى مزاياه الشخصية الأخرى في القيادة، ولهذا انتصر على أعدائه، ولو أغفل شيئاً من الحذر والحيطة والاستعداد لتبدل الحال غير الحال»[2].

---

(1) مونتجمري وات. محمد في المدينة. ص104.

(2) محمود شيت خطاب. الرسول القائد. ص7.

حياة حافلة بالبذل والعطاء والتضحية، كانت حياة النبي، وروح بلغت المجد في عزتها وقوتها، كانت روحه ﷺ، اتسع قلبه لدقائق الأمور وعظائمها، واتسع صدره للصغير والكبير، يدفعهم إلى العمل، ويربيهم على مكارم الأخلاق، ويحرضهم على القتال في سبيل الله، ويعلمهم كيف يكون الإيمان، فعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ القرآن. فقلت: يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أُنزل، قال: إني أحب أن أسمعه من غيري، قال: فقرأت له سورة النساء حتى إذا جئت إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[1]، قال: حسبك الآن، فالتفتُّ إليه، فإذا عيناه تذرفان».

كم كان يشعر بعظم المسؤولية على نفسه، وقداسة الأمانة التي يحملها، فأداها على وجهها، فكان عظيم الخلق، وكان نعم الأسوة والقدوة.

* * *

موقف اليهود من الدعوة الإسلامية:

نتعرض لهذا الموضوع هنا لأنه يتعلق بالأحداث التي

---

(1) سورة النساء، الآية: 41.

مرت بها حياة النبي، ولأن الحديث ينصبّ على اليهود في المدينة، وكيف كانت مواقفهم.

بكل وسائل الخبث والتهالك على المادة يظهر اليهود على صعيد الأحداث، ولدوافع العقدة التي ترسبت في نفوسهم على أساس أنهم يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار، فإنهم لا يرون أحقية لغيرهم في الحياة الكريمة، فقتل الصالح من غير اليهود من تعاليمهم البارزة، والسلب والنهب والاستغلال من طبائعهم المتجذرة عبر تاريخهم، فهم يرون أن غير اليهودي لا يستحق ثروة، وليس جديراً أن يحظى بأي قسط من السعادة والطمأنينة في الحياة، لكل ذلك لم يجدوا في نفوسهم حرجاً من معصية رسل الله وقتلهم، يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۞ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[1].

ولأنهم تعمدوا العصيان والتورط في اقتراف الذنوب واجتراح السيئات حقّت عليهم اللعنة ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

(1) سورة المائدة، الآيتين: 70 و71.

مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ * كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ * تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾[1].

فلا عجب وحال اليهود هذه أن يكيدوا للرسول ولرسالته، فقد ساورتهم الأطماع والأحلام أن يكون النبي منهم، ولكن أوهامهم تبددت مزقاً، فزاد ذلك حنقهم، مما أدى بهم إلى اقتراف الجرائم البشعة من محاولات الفتنة، والإيقاع بين المسلمين، ونقض العهود والمواثيق التي أبرموها مع الرسول. ومؤامراتهم لقتله.

وعندما كان متجه الرسول إلى بيت المقدس في الصلاة، كان للتأليف والتقريب بين المسلمين واليهود، وليشعر اليهود بسماحة الإسلام وشموليته، وأن لا ضير عليهم الدخول فيه لأن مكانتهم ستتعزز، ولكن الذين بدلوا آيات الله واتخذوها هزواً لن يقبلوا الأمور على صحتها وسلامتها، فهم اعتادوا السير في طريق السفاهة، فكانت

(1) سورة المائدة، الآيات: 78 ـ 80.

حادثة القبلة مجالاً لسخافاتهم، ونزل قول الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

ظن اليهود أن المسلمين أصبحوا ضعفاء بعد أُحد، وجرياً على عاداتهم الذميمة من تحين الفرص وانتهازها في الخديعة والإيقاع، فكروا في الأخذ بثارات إخوانهم من بني قينقاع والثأر لكعب بن الأشرف، فلم يتوانوا عن تدبير المؤامرات وافتعال المشاكل مع المسلمين، فحينما حاول بنو النضير قتل النبي، بإلقاء حجر عليه وهو متكئ على ظهر الجدار، وسلم النبي، واكتشفت المؤامرة، أمرهم الرسول بترك المدينة، ولكن المنافقين بزعامة عبد الله بن أُبيّ، أطمعوهم في البقاء على أمل أن المسلمين ما زالوا متأثرين بجراح أُحد. وماطلوا في الخروج، فحاصرهم النبي وقطع نخلهم، فلما رأوا الخطر محدقاً بهم من كل جانب اضطروا إلى الرحيل، ونزل قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ

---

(1) سورة البقرة، الآية: 142.

لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾[1].

وهكذا كان مصير بني النضير الذين لم يرعوا إلاً ولا ذمة، وطهر الرسول المدينة منهم، وكان خروجهم منها مظهر ذلة لهم، فكان لكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليهم ما يحملون، وخلفوا وراءهم كثيراً من الغنائم للمسلمين، وارتفعت الروح المعنوية عند المسلمين بهذا الفوز المبين.

وليس أدل على المرارة التي ما فتئ اليهود يتجرعونها من جراء حسدهم الرسول ونقمتهم على الإسلام أن محاولاتهم الخبيثة من الكيد والمكر لم تنقطع، نكث بنو قريظة عهدهم مع المسلمين عند تجمع الأحزاب حول المدينة، وتحالفوا مع المنافقين، ولكن الهزيمة حلت بالأحزاب، وبقي بنو قريظة مع خطاياهم يرقبون القصاص العادل، وتمّ إخراجهم من المدينة.

وأما يهود خيبر «فإنهم استمروا على تحريض القبائل وجمع الأحلاف ضد المسلمين والغدر بهم كلما رأوا إلى ذلك سبيلاً»[2].

---

(1) سورة الحشر، الآية: 2.

(2) محمود شيت خطاب. الرسول القائد. ص198.

وقعت حصون خيبر الحصن تلو الآخر في سيطرة المسلمين، واضطر من بقي من اليهود بعد المعارك المضنية أن يطلبوا الصلح على أن يحقن المسلمون دماءهم، وأبقاهم الرسول على أرضهم مقابل نصف ثمرها فقط، وهكذا حدث مع يهود فدك ويهود وادي القرى ويهود تيماء، فقد استسلموا كلهم على مثل شروط يهود خيبر، وبهزيمتهم جميعاً تمّ تطهير المدينة من اليهود.

وجاءت كل هذه الانتصارات بفعل القيادة النبوية الرشيدة، وبفعل الحكمة التي هدف إليها الرسول من وراء صلح الحديبية الذي لم يرق لبعض المسلمين، «وهكذا فقد أتاحت الحديبية للمسلمين القضاء على اليهود عسكرياً في المدينة، كما أتاحت لهم السيطرة على القبائل شمال المدينة حتى حدود العراق والشام»[1].

من كل ذلك نعلم أن اليهود يسعون إلى محاربة القيم الروحية والمبادئ الإنسانية، وإلحاق الدمار بها، يتوسلون بشتى الطرق لتحقيق أطماعهم، فهل ندرك هذا الخطر ونتداركه؟!.

(1) محمود شيت خطاب. الرسول القائد. ص223.

المؤمنون على طريق الدعوة والجهاد:

ينابيع الخير تتدفق من النفوس الصالحة فتثمر مجتمعاً قوياً يتّسم بالتكامل، ويفيض بالخير والجمال، وإن نفوساً تستجيب إلى الله عز وجل أجدر أن تفعم بروح الإسلام فتنهض بموازين الحق والأمانة، وتعرف الوفاء وحسن التقدير وتنشد إلى سلامة القصد هادفة إلى تحقيق القيم والمبادئ.

والرسالة التي حمل الرسول أمانة تبليغها ضبطت أحوال المؤمنين، وعملت على تربية الإنسان والتي هي من أعسر الأعمال، لأنها تتعلق بالمعاني الروحية وبالقيم الأخلاقية، لتشق فيما بعد المسالك اللائقة لحياة أمة مجيدة. والحفاظ على المكاسب التي تتحقق أشق من كيفية إنجازها أو هما في مستوى واحد. ومن هنا كانت الدعوة إلى البناء وكان التحريض على الجهاد والدفاع.

إن شعور الإنسان بالحاجة الملحّة إلى تجديد صيانة وغرس وتثبيت قيم الخير فيها يبرهن على الحاجة الماسة إلى الإيمان بالله وإلى اتباع دينه، لأن الإيمان هو الضمان بتحقيق ما يصبو إليه الإنسان، ورغبة المؤمن في الإصلاح

واندفاعه إليه تجعله يسير بلسان الدعوة ويحمل راية الجهاد.

وعلى هذه الأسس سار المؤمنون مع رسول الله ﷺ يساندونه ويعينونه، يتحملون البأساء والضراء، ويصبرون على الحصار الاقتصادي، وملاحقة الكفار لهم بالتعذيب والتنكيل والسخرية، تبعد عنهم متع الحياة فيزدادون من الله قرباً وبرسوله تمسكاً.

وعلى الطريق نفسه كان موقف الأنصار من أهل المدينة يعلنون المبايعة على الحماية ونشر الدعوة، يبيعون أنفسهم في سبيل الله لا يخافون لومة لائم.

إن الدرس الذي قدمه الفقراء والمساكين وبعض الأغنياء والسادة ممن أسلموا في مكة لدرس عظيم في الصبر والثبات على المبدأ، وإن الدرس الذي قدمه الأنصار في الولاء والطاعة وفي القوة والشجاعة لدرس عظيم أيضاً، تسطر كلها صفحات خالدة من تاريخنا حرية بالدرس والتأمل والتجديد.

يبرز دور الصحابة الأول في الاستجابة والمساندة، نذكر منهم مصعب بن عمير، وكان من شباب مكة المترفين

المنعمين، ولكنه انصرف عن الترف والملذات، وفارق متعة الجسد إلى استساغة الإرهاق والعذاب في سبيل الله، فكان صادقاً وكان طائعاً، فاستحق أن يكون أول داعية خارج مكة، يسير بين أهل المدينة يعلمهم القرآن ويدعوهم إلى الإسلام، وهنا تحضرني كلمات للأستاذ محمد الغزالي أسجلها له هنا، يقول فيها: «ولا تحسبنّ مصعباً كأولئك المرتزقة من المبشرين الذين دسّهم الاستعمار الغربي بين يدي زحفه على الشرق، فترى الواحد منهم يقبع تحت سرير مريض ليقول له هذه القارورة تقدمها لك العذراء، وهذا الرغيف يهديه إليك المسيح، وربما فتح مدرسة ظاهرها الثقافة المجردة، أو ملجأ ظاهره البرّ الخالص، ثم لوى زمان الناشئة من حيث لا يدرون، ومال لهم حيث يريد، هذا ضرب من التلصص الروحي يتوارى تحت اسم الدعوة إلى الدين، والذين يمثلون هذه المساخر، يجدون الجرأة على عملهم من الدول التي تبعث بهم»[1].

أما دعاة الإسلام وعلى رأسهم مصعب بن عمير فإنهم لا يريدون إلا أن يكون الدين كله وقلوبهم تفيض بالإيمان والخوف من الله، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ

---

(1) محمد الغزالي. فقه السيرة. ص156.

قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1].

ويشتد المشركون في حصارهم على المسلمين، يزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافاً، حتى إن المسلم يرجع إلى أطفاله وهم يتضورون من الجوع، وليس في يده شيء يطعمهم به، ويغدو التجار على أبي لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس، حتى جهد المؤمنون جوعاً وحاجة.

وتتوالى المواقف الخالدة في الصبر والمجالدة لتدل على عظمة النفوس المؤمنة، فهذا أبو سلمة وزوجه أم سلمة يلاقيان الهول في هجرتهما بعد أن فرق القوم بينهما وخلعوا يد ابنهما وهم يتجاذبونه. وهذا صهيب، يقول له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت ثم تريد أن تخرج بمالِك ونفسك، والله لا يكون ذلك ، فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي، أتخلون سبيلي؟ قالو: نعم! قال: فإني قد جعلت لكم مالي. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: ربح صهيب»[2].

---

(1) سورة الأنفال، الآية: 2.

(2) محمد الغزالي. فقه السيرة. ص166.

وضرب الأنصار الأمثلة الرائعة في المواقف الصامدة التي تدل على البطولة والشجاعة، ينهض الأنصار لمبايعة الرسول، يخاطبونه بقولهم: يا رسول الله علام نبايعك؟؟ قال ﷺ: «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكلّ، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقوموا في الله لا تخافون لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم ما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة».

وهنا يقول جابر بن عبد الله: فقمنا إليه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو أصغر السبعين بعدي، فقال: رويداً أهل يثرب، فإننا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وإن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف. فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه، وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله! فقالوا: يا أسعد، أمط عنا بيدك، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها، فقمنا إليه رجلاً رجلاً فبايعناه».

ولا ينسى دور النساء في الجهاد والمصابرة وتحمل المشاق والعناء في سبيل الله، فكانت نسيبة بنت كعب،

وأسماء بنت عمر بن عدي ضمن أصحاب بيعة العقبة الثانية، فماذا كان وراء كل هؤلاء من دافع إلى هذا الطريق الصعب إلا الإيمان والإخلاص للدعوة. «وكما أن سنة الله اقتضت أن يكون الأنبياء والمصلحون هم المبلغون إلى الناس دعوته وشريعته، فإن من سنة الأنبياء بدورهم أن يكون لهم دعاة يبلغون عنهم ويعاونونهم في الدعوة والتبليغ وهؤلاء جميعاً يجعلون صفتهم الأساسية أنهم دعاة إلى الله، واستجابة الناس لهذه الدعوة هي هدفهم الأساس في الحياة»[1].

والدعوة بهذا المعنى الدقيق ليست قصراً على ناس دون آخرين من المسلمين، وإنما يعتبر كل مسلم داعية إلى الله تعالى، وإن المواقف التي تمر بالمؤمنين هي التي تكشف مدى الصدق والإخلاص، وحبهم في الدعوة إلى الله، والمعروف أن المؤمن يصبر ويصابر عند اشتداد البأس، وعلى سبيل المثال نذكر غزوة أحد واشتداد القتال فيها، وحينئذ برزت النفوس القوية تبدي شجاعات تعزّ في مثل هذه المواقف، «فقد اندفع أبو دجانة ـ صاحب العصابة الحمراء ـ وفي يده سيف النبي وعلى رأسه عصابة

(1) د. محمد ظفر خان. الإسلام والإنسان. ص81.

الموت، فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله حتى شق صفوف المشركين، ثم رأى إنساناً يحثّ المشركين على القتال فحمل عليه بالسيف، فإذا بهند بنت عتبة تولول، فارتد عنها أبو دجانة مكرماً سيف الرسول أن يضرب به امرأة»[1].

وشجاعة المؤمن ليست الشجاعة التي تبعث على الغطرسة وحبّ الفتك، وإنما هي التي تصقل النفس فتزيد من عزتها وتمنحها مدداً متجدداً من العفة والطهارة، تتطاير عنها القشور، وتظل الأصول راسخة ثابتة، وبما أن الحرب نضال شامل في الداخل والخارج، فإن حشد الطاقات كلها واستنفار كل القوى المادية والمعنوية سبل الانتصار فيها، وحتى لا تؤثر النكسات على قوة الأمة، فكان لذلك تقدير المسلمين لما يمكن أن يحدث بعد أُحد، «فكان عليهم أن يعيدوا الكرة للقيام بالتطهير العام، حتى يعيدوا النظام إلى صفوفهم، وحتى يستعيدوا السيطرة الكاملة على المدينة وما حولها، وعلى المشركين من قريش والقبائل الأخرى»[2].

وتحقق بالفعل ما سعى إليه المؤمنون بقيادة الرسول،

---

(1) محمود شيت خطاب. الرسول القائد. ص114.

(2) محمود شيت خطاب. الرسول القائد. ص129.

لأن تجميع القدرات المادية إلى جانب الروحية تعاونت على تجديد الثقة وتثبيت الأمور، فالتضحيات تحقق ما يطمح إليه المرء، وقوة العقيدة قادرة دوماً على إنارة درب الحقّ، ولكي تظل النفوس على صفائها ونقائها كان لا بد من التمحيص والتدقيق، وحتى لا يتغلغل المنافقون بين صفوف المسلمين لا بد من الكشف عنهم ومعرفة نواياهم، وهذا ما حدث في أُحُد حينما انسحب المنافقون بقيادة عبدالله بن أُبي، فنزل قول الله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾[1].

ومن دروس التربية القرآنية تنشأ نفوس المؤمنين قوية مستعدة، تلبي نداء الواجب في كل وقت، «ولم تعرف الدنيا ديناً أقوى حساسية من الإسلام في تطهير النفوس وتنظيم الحياة والسموّ بالمسلم ليرتفع بنفسه عن ارتكاب الخطايا والدنايا، ويترفع عن فعل الخسيسة والنقيصة، وليعيش في المستوى الخلقي الكريم، فلا يقبل الإسلام فقر

(1) سورة آل عمران، الآية: 167.

الهمم ولا نومة الضمير ولا ركود الفكر وضعف العزيمة»[1]. لهذا كان التمحيص المستمر للنفوس هو مرفأ الأمان للاطمئنان على السلامة المنشودة لأركان المجتمع، حتى لا يصيب الغرور الأمة بعد النصر، ولا الانكسار بعد الهزيمة، وإنما تظل على كل حال مستعدة للمقاومة والبنيان، ومن ذلك نفهم قول الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[2].

---

(1) د. محمد خان. الإسلام والإنسان. ص88.

(2) سورة آل عمران، الآية: 179.

الفصل الخامس

المؤمنون.. في مواجهة الحياة

يكره الإسلام الخنوع، وينهى عن الاستسلام لتحديات الحياة، لأن الإسلام قوة تحمي وتبني. تحمي المسلمين بقوتهم وتدفعهم إلى بناء مجتمع قوامه المبادئ الخلاقة التي تستعصي على الهدم والفناء.

وفيما يتعلق بالنهي عن الاستسلام والضعف، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[1].

فإعداد القوة واجب، ليكون منها سلطة مؤمنة تردع

(1) سورة النساء، الآيات: 97 ـ 99.

الطغاة والشاردين عن الحقّ، وتحفظ على الأمة أمنها وسلامتها، وتقطع الطريق على الفتنة التي يحاول أعداء الله إثارتها بين المسلمين، والحياة في نظر الإسلام تتكامل أجزاؤها، حيث إنه يبغي تحقيق المعاني الإنسانية في نظرته الشمولية، من غير مغالاة ولا تطرف، ومن هنا «جاء الإسلام وسطاً يدعو إلى الرحمة ولا يغفل القوة، وهو عندما يدعو إلى القوة، يدعو إليها بعبارات تخاطب القلب وتنفذ إلى الوجدان فتهز المشاعر هزّاً عنيفاً»[1].

فإذا تمعنا ملياً في قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[3].

فإننا نجد أن القلوب تنشد بقوة نحو الأمر الإلهي بالإعداد والتقوية، وهل يرضى قلب المؤمن أن يسكنه الخوف من أعداء الله؟! فواجب المسلم أن ينهض لتعاليم

---

(1) د. مصطفى الشكعة. إسلام بلا مذاهب. ص69.

(2) سورة الأنفال، الآية: 60.

(3) سورة آل عمران، الآية: 103.

القرآن الكريم ويكون على مستوى مسؤولية التنفيذ لأوامر الله، ولا ينخدع بما يحاوله المغرضون من صرفه عن دينه بالأوهام والخداع. ويحلم الحاقدون الطامعون إلى إيجاد حاجز بيننا وبين الإسلام وذلك بأن ينفذوا إلينا بما يوهمنا ويضللنا، وأن نعيش على أحلام الانغماس في الروحانيات فقط، «وحَسِبَ المزيفون بذلك أنهم يقوضون أساس الفكرة الإسلامية الناهضة، بل لقد بلغت بهم القحة أن يهزأوا بالمسلمين عندما انفضحت مكيدتهم، حتى لقد سمعت بنفسي (المتحدث مالك بن بني) أحد كبار الأساتذة في باريس وهو يعلن: هل المسلمون بحاجة إلى أن يحموا القرآن والله [سبحانه وتعالى] قد وعدهم بحفظه»[1].

يريد الطامعون في العالم الإسلامي السيطرة عليه، ويسعون إلى إثارة الفتن فيه، وتطبيق مآسي الصراع التي دارت في أوروبا بين العلم والدين، وذاق هناك العلماء ويلاتها على أيدي الرهبان، ونسوا بذلك أن المؤمن يجمع بين الدين والتطبيق في جميع ما أمر به وشرعه، وتحركه عقيدة واحد وعقلية تستظل بها، «لأن حياة الإسلام تتسع

---

(1) مالك بن بني. وجهة العالم الإسلامي. ص124.

ذلك الاتساع الذي لا يحده زمان ولا مكان، لذا تكون مواجهته للتغيرات التي لا مفرّ منها بصورها غير المحدودة، وحيث تمتد حياة الإسلام ودعوته، ذلك الامتداد الزمني بتتابع القرون والأدهر، التي تتغير معها وبها الأحوال، ويلمسها الإنسان في أدوار الحياة الفردية، واختلافها من طفولة ومراهقة وشباب، وكهولة وشيخوخة، ويفهمها في حياة الجماعات، كما هي في حياة الأفراد. وأقوى الأشياء ـ كما قيل قديماً ـ هو الزمن، فأي تغير يستدعي تطوراً أكثر مما تستدعيه دعوة وحياة تريد لنفسها أن تعمر ذلك العمر الأبدي، في الأمكنة كلها، مع هذه الأزمة على طولها..؟»[1].

ولكن الأعداء لا يرتضون إلا أن يشوّهوا صورة المسلمين بالتجني على الإسلام، كما أنهم يعملون على تصدير أشكال الصراع التي تعيشها أوروبا إلى العالم الإسلامي حتى يفرضوا السلبية والعجز بين المسلمين عن مواصلة المسيرة الإسلامية وفق مقتضيات التقدم الهائل الذي أحرزه العقل الإنساني في العصر الحديث.

ونرجع إلى أحداث التاريخ الماضية حتى نقف على

---

(1) أمين الخولي. المجددون في الإسلام. ص39.

أمثلة من صور التشويه، «فقد ظهر في أوروبا شبه نزاع بين العلم والدين بعد ظهور الإسلام واستقرار سلطانه في بلاد الأندلس واحتكاك الأوروبيين بالمسلمين في الحروب الصليبية، ورجع الآلاف من الغزاة الصليبيين إلى بلادهم وحملوا إلى الناس أخباراً تناقض ما كان ينشره دعاة الحرب من رؤساء الكنيسة من أن المسلمين جماعة من الوثنيين غلبوا على الأرض المقدسة وأجلوا عنها دين التوحيد ونفوا منها كل فضيلة وإخلاص، وهم وحوش ضارية، وحيوانات مفترسة، فلما قفل الغزاة إلى ديارهم، قصّوا على قومهم أن أعداءهم كانوا أهل دين وتوحيد ومروءة، وذوي ودّ ووفاء وفضل ومجاملة»[1].

ولكن كيف يمكن تصحيح ومقاومة المغالطات التي تشاع ضد الإسلام.

ولنتذكر في الوقت نفسه أن حالة المسلمين من التمزق والتفرق تساعد الأعداء على بثّ دسائسهم وأكاذيبهم، لهذا يجب الإصلاح من الداخل حتى يمكن مواجهة الضربات الخارجية، وسواء أكان يقصد الكتاب الغربيون الإساءة أم

---

(1) محمد عبده. الإسلام والنصرانية. ص32.

أنهم يسيؤون عن سوء فهم لحقيقة ديننا، فإننا في كلا الأمرين يلزمنا أن نتصدى لهم حتى نكشف زيف ما يكتبون، يتحدث كاتب منهم عن الرسول وما كان يشغل تفكيره ﷺ. «من أنه كان يحرم القتال والنهب بين المسلمين، وبهذا إذا دخل عدد كبير من القبائل وقبلت زعامة محمد لها، فكان عليه أن يبحث عن متنفس آخر لطاقاتها، وقد نظر محمد إلى المستقبل، ووجد أنه يجب توجيه غرائز السلب والنهب عند العرب نحو الخارج، نحو المجتمعات المجاورة لشبه الجزيرة العربية، كما أدرك إلى حدّ ما أن نموّ طريق سورية هو إعداد للتوسع»[1].

ومثل هذه الأفكار التي تشاع حول الرسول لتنال من الرسالة الإسلامية ليست غريبة علينا، ونعرض نماذج منها حتى نتبين المقاييس التي يطبقها كتّاب الغرب على المسلمين، وهي نظرة يعممونها على الشعوب الشرقية كلها، ويعتبرونها شعوباً لم تتحضر، وأنها لا تفهم من الحياة غير قشورها، وهذا ما يجعل أطماعهم في بلاد المسلمين غير محدودة، ولذلك «فإن هناك نتيجة منطقية

---

(1) مونتجمري وات. محمد في المدينة. ص67.

وعلمية تفرض نفسها، هي أنه لكي نتحرر من «أثر» هذا الاستعمار، يجب أن نتحرر أولاً من سببه وهو القابلية للاستعمار، فكون المسلم غير حائز جميع الوسائل التي يريدها لتنمية شخصيته وتحقيق مواهبه: ذلك هو الاستعمار، إما ألا يفكر المسلم في استخدام ما تحت يده من وسائل استخداماً مؤثراً، وفي بذل أقصى الجهد ليرفع من مستوى حياته حتى بالوسائل العارضة، وإما ألا يستخدم وقته في هذه السبيل، فيستسلم ـ على العكس ـ لحظة إفقاره، وتحويلاً كمّاً مهملاً، يكفل نجاح الفنية الاستعمارية، فتلك هي القابلية للاستعمار»[1].

ومعنى هذا أننا إزاء قوة باغية تحشد كل ما لديها من وسائل لمهاجمتنا وإدراكنا لخطورة ما نتعرض له يحتم علينا أن نحشد في المقابل كل إمكاناتنا للمواجهة، ونمتلك الإرادة التي تدفعنا للإعداد والتصدي، والإيمان القوي هو السبب القوي للانتصار، «فالعناية الإلهية منحت الإسلام في الزمن القصير من القوة على مدافعة أعدائه ما لم تمنحه لغيره في الزمن الطويل، فتيسر له في شبيبته ما لم يتيسر

---

(1) مالك بن بني. وجهة العالم الإسلامي. ص105.

لغيره إلا في كهولته أو شيخوخته»[1]. وإن تقديرنا لهذا العطاء في الإسلام يجعلنا بعيدي النظر في تقديرنا لما تتطلبه ظروف الحياة من مواقف إيجابية، وما تحتمه الظروف العالمية من تبين أنفسنا في الصراع الدائر، ثم تحمل مسؤولياتنا في الصراع القائم بيننا وبين الغرب المعادي والمناوئ، والذي يفرضه هو علينا في كثير من الأحيان، ولن يكون تواجدنا قوياً إذا لم يكن لدينا المنهج الواضح في إعداد أساليب القوة التي تضع حدّاً للتحدي الاستعماري الرهيب، ومن هنا نقول إنه لا بد من عودة جادّة إلى الأصول التي صنعت المجتمع الإسلامي القوي، ونذكر دائماً «أن الإسلام أعطى بمجتمعه الأول ذلك النموذج الذي عاش مدى العصور في نفوس المسلمين وعقولهم مثلاً يحتذى وصورة شامخة من صور المثل الأعلى للمجتمع الإنساني السليم المتكامل الذي يقوم على الإخاء والحبّ والتسامح والتكامل، وليس هذا المجتمع صورة مثالية غير واقعية، ولكنه تطبيق أمين لمفهوم الإسلام ومضمونه، وما تزال صورة هذا المجتمع الإسلامي الأول

---

(1) محمد عبده. الإسلام والنصرانية. ص63.

باتساقها وصلابتها وسلامتها في مفهوم مضمون الإسلام ومنهجه تعطي علامة القوة في تطبيق الإسلام»[1].

تقوم كل النتائج في دراسة المجتمع الإسلامي على إثبات أن الدين كان الأساس دائماً في تقدم المجتمع ورقيه، وفي قوته وانتصاره، وبرايته سارت الجيوش تنشره وتبشر بميلاد الإنسان الجديد الحرّ، ولا يخفي بعض كتاب الغرب إعجابهم وثناءهم عند دراستهم للتاريخ الإسلامي، ولكن أقلام الكثيرين منهم لا تزال تعبث لإفساد التاريخ الإنساني بالتجني على الإسلام، وأصبح الذين يتخصصون منهم في دراسة الأديان دراسة مقارنة يتعمدون الإساءة إلى الإسلام، لأنهم لا يقصدون أصلاً الخروج بنتائج موضوعية، لكنهم ينحازون بداية إلى أفكار سابقة، وهذا الاتجاه المغلوط لا يرضي بعض الكتاب هناك مما دفع أحد منصفيهم إلى القول: «إن مصيبة تاريخ الأديان المقارن هي أنه يحمل في الغرب طابع العصر الذي نشأ فيه، عصر العقلانية الوصفية» التافهة، وأنه يستبعد من حيث المبدأ كل ما يتجاوزه، بحيث إنه في مواجهة الإسلام يرفع بديلاً، مسيحية دغماتية وطائفية متعصبة، تنادي بمصداقية وحيها

(1) د. عماد خليل. دراسة في السيرة. ص168.

الخاص وتنكره على الإسلام، في حين كانت وجهة نظر القرآن ووجهة نظر كبار مفكري الإسلام مختلفة وبخاصة فيما يتعلق بأهل الكتاب، أما القرآن فلا يكفّ عن الترديد بأن الله قد أرسل لكل شعب رسوله»[1]، ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[2].

ولا يفوتنا في هذا الحديث عن مواجهة الإسلام والمسلمين للحياة وتحدياتها، أن نعرج مروراً على الاستشراق في موقفه من الإسلام متعاوناً مع التبشير الصليبي لقلب حقائق التاريخ الإسلامي، وهم يحاولون أن يظهروا وكأنهم سدنة التطور المفروض على أساليب الحياة وغاياتها، كما يحاولون في الوقت نفسه أن يغضوا النظر عن «كون الإسلام تمكن من الانتشار بمثل هذه المقدرة (المعروفة تاريخياً) وبهذه السرعة بادئ ذي بدء في بلاد العرب ثم من المحيط الأطلنطي إلى بحر الصين، وذلك لأنه كان يحدد معنى الحياة لدى شعوب ضلت الطريق

---

(1) روجيه غارودي. وعود الإسلام. ص67.

(2) سورة المائدة: الآية: 48.

بتفكك مجتمعاتها وثقافاتها وعقيدتها»[1]. فعلى الذي يدعي أنه ينشد المعرفة ويتوجه بالبحث العلمي لخدمة الإنسان أن يحترم العقل وأصول البحث والنظر في الأمور والقضايا حتى يتسنى له أن يخرج بالنتائج العلمية الصحيحة، ولكن لن يؤتى ذلك حاقد أوكاره، أو رصد نية سوء قبل شروعه في العمل.

ولا يصعب على المؤمن السير في درب الحق لأنه يمتلك ضميراً حيّاً ووعياً ناضجاً ويتبع ديناً قيماً، ولكن من عنوا بهدم التاريخ يتناسون أن المؤمنين أرحب عاطفة وأوسع إدراكاً نحو الحياة والأحياء، وأن الحضارة التي يشيد المفتونون بمفاخرها ما هي إلا ثمرة ناضجة من ثمرات الإسلام، «فالإسلام يعلمنا أن الله خلق الكون وسخره لسعادة الإنسان، وهؤلاء الذين يغزون الكون بعلمهم أخذوا يسخرون الإنسان لعشوائية الطبيعة، بدل أن يسخروا نظامية الكون لسعادة الإنسان»[2].

ولأن الإسلام أزاح كل العوائق التي تقف في سبيل

---

(1) روجيه غارودي. وعود الإسلام. ص66.

(2) د. حسن صعب. الإسلام وتحديات العصر. ص54.

التطور العلمي والتقدم الإنساني، فإن الإسلام مدعو إذن أمام المغالطات التي يواجهها أن يعيد البنية العقلية الصحيحة، ومنهج الإسلام قادر على إنقاذنا من مهالك التنازع، وذلك إذا أسرعنا بتبني المعجزة الحديثة في مجال العلم، وحتى لا تضيع الفرصة في التحذير ونحن ننوّه بالدور الذي يجب أن يلعبه المسلمون في مسيرة الإنسان المعاصر، فإنه «جدير بنا أن نلفت النظر إلى أن الاستشراق باستثناء حالات نادرة تقريباً، سوف يلعب دوراً غامضاً متعدد الوجوه، في خدمة الكنيسة والسياسة والاستعمار أو لصناعة (شرق) وفقاً لأمنيات ولحاجات الهيمنة الغربية، هذا الاستشراق الذي كثيراً ما جند في خدمة المشروعات التبشيرية والامبريالية والاستعمارية أو السياسية في العالم الثالث، قد ساهم على نطاق واسع لخدمة الغربيين، في خلق تسويغ علمي لأحكامهم المسبقة ولطموحاتهم ومزاعمهم في الهيمنة، وفي النهاية لسيطرتهم بداية في صياغة أسلوب للنظر إلى الآخرين، ليس بمحاولة التعلم منهم عقيدتهم وثقافتهم اللتين تساعدان على النظر إليهم من الداخل وإنما على العكس بالحكم عليهم من الخارج انطلاقاً من معايير الغربيين الخاصة كما لو كان مسار

الحضارة الغربية هو النموذج الممكن الوحيد الذي يجب أن يتبع، وفي أحسن حالات هذا الاستشراق كان (يعرّف)، ولكن من دون أن يحب»[1].

إن الخصومة التي تسيطر على أقلام هذه الفئة من الكتاب وتسير بها ضمائرهم تقودها ضلالة الجهل بحقيقة التاريخ الإسلامي أو الجمود والظهور بمظهر المكابرة والاستعلاء، وهم يحتالون على بلوغ مآربهم بوسائل كثيرة منها الإعلامية والمادية والتشجيعية على سلوك سبيل المهاجمة والتشويه، وليس غريباً أن يحظى هذا الاتجاه بمساندة أصحاب نفوس ضعيفة تستهويهم أطماع الشهرة، فيقعون فرائس التبعية، ولكنهم سريعاً ما يسقطون في الهاوية وتتكسر أقلامهم لأنهم تنصلوا من أصالة تاريخهم، فانسلخت عنهم القيم، وفارقهم شرف الكلمة وأمانة القلم، لأنه كان الأحرى بهم أن ينغمسوا في تربة تاريخهم يغذون الجذور حتى تثمر شجرة الحضارة.

وحتى لا نحرم ذلك العدد من كتاب أوروبا الذين يميلون إلى الإنصاف في حديثهم عن سلوك المسلمين

---

(1) روجيه غارودي. وعود الإسلام. ص89.

العلمي، نورد موقف (جوستاف لوبون) الذي يقول: «والإنسان يقضي العجب من الهمة التي أقدم بها العرب المسلمون على البحث، فإذا كانت هناك أمم قد شاركت العرب في ذلك، فإنك لا تجد أمة فاقتهم على ما يحتمل، فالعرب كانوا إذا ما استولوا على مدينة صرفوا همهم إلى بناء مسجد ومدرسة فيها، فإذا كانت المدينة كبيرة أسسوا فيها مدارس كثيرة»[1]. كما بذل المسلمون مجهوداً كبيراً في إرساء دعائم الحضارة الإنسانية ولم يبخلوا على أحد جاء يطلب علماً، وتسامحوا كثيراً مع أبناء أهل الذمة حيث أفسحوا لهم المجال في أعمال التأليف والترجمة، واستفاد العالم بالمخطوطات العربية التي تزخر بها المكتبات العالمية، وكل هذا يبين «أن علماء الإسلام العرب كانوا وحدهم أساتذة الأمم النصرانية عدة قرون، وأننا لم نطلع (بشهادة جوستاف لوبون) على علوم قدماء اليونان والرومان إلا بفضلهم، وإن التعليم في جامعاتنا لم يستغنِ عما نقل إلى لغاتنا من مؤلفاتهم إلا في الأزمنة الحاضرة»[2].

مثل هذا الموقف لم يجيء عفو الخاطر، وإنما أسفر

(1) د. عائشة عبد الرحمن. الشخصية الإسلامية. ص160.

(2) المرجع السابق. ص162.

عن حقائق تاريخية لا يمكن تغييبها، وإلا بتر جزء مهم من التاريخ العالمي، وما دام الإسلام قد وضع أسس المعرفة فما على المسلمين إلا أن يتمسكوا بهذا التوجه، فالإسلام ليس ديناً مجرداً من العمل، وإنما هو دين عملي يسعى لبثّ الحياة والحركة في النفس والمجتمع، «فالإسلام حركة اجتماعية واسعة لا تجد حركة موازية لها في التاريخ الإنساني كله، إن الإسلام ليس فلسفة ينطوي بها الإنسان على نفسه مقطوعاً عن كل ما حوله، ولا هو دين قومي محلي لا يدخل فيه إلا جماعة ظنت أن الوجود كله وجودها هي، وأن البشر كلهم أفرادها وحدهم وأن سائر الناس همج لا يدخلون في نطاق الإنسانية، ثم ليس الإسلام مذهباً عجز عن معالجة الحياة من أوجهها المتعددة، فقصر همّه على جانب واحد منها، تهمه التقوى ولا يهمه العلم، يعنى بالفرد ولا يأبه بالمجموع»[1] ولكن الإسلام دين تتكامل فيه أمور الدين ومطالب الحياة، يعنى بإسعاد الإنسان وإرشاده في حياته كما يهديه إلى خير الطرق لسعادته ونجاته في الحياة الآخرة، وهذا معنى أن الإسلام دين عام شامل، يعلم الإنسان، ويبني الحضارة، يوافي

(1) د. عمر فروخ. تجديد من المسلمين لا في الإسلام. ص60.

الحياة بحاجاتها وحاجات الأحياء، ويحفظها من التحطيم والفناء، ويحفظ للإنسان الذي هو أرقى نماذج الحياة ما يكفل له إنسانيته في المادة والنفس، ومن هذا التناسق في طبيعة الإسلام استمد عموميته وشموليته، فليس في الإسلام تعصب ولا طائفية، على عكس ما ساد أوروبا من تعصب على الإسلام، وغدت الطائفية الأوروبية هي المسيطرة على السلوك هناك، «وهذه الطائفية المتعصبة قادت أوروبا إلى ركود دام عدة قرون، في حين أن المسلمين المتصرين بدلاً من أن يدمروا، عرفوا الاندماج والتكامل، وهكذا كان ازدهار ثقافتهم ممكناً، وممكناً كان إشعاعها، وهي المستوحاة في جميع وجوهها من رؤية القرآن الكريم التوحيدية»[1].

حدث ذلك البناء الحضاري واعتنق الناس في مشارق الأرض ومغاربها الإسلام لأن المؤمنين تمسّكوا بحقائق الإسلام ومبادئه، وعنوا بتوصيل أصوله وتعاليمه إلى الناس، فلم يفرطوا في شيء، ومن ثم كانت جهود مفكري الإسلام مثمرة، ومن هنا كان الفرق بين منهجنا في

(1) روجيه غارودي. وعود الإسلام. ص93.

الإسلام، ومنهج المصلحين في المسيحية، «ففي الحين الذي يقوم فيه المصلحون والمجددون النصارى ـ وكانوا كثاراً منذ مطلع النصرانية ـ بالتجديد في الدين النصراني نفسه، نجد أن الإصلاح والتجديد في الإسلام يتناول ردّ المسلمين إلى حقيقة الإسلام، كان المصلحون النصارى يريدون إنقاذ الناس من قبضة الكنيسة ورجالها، أما المصلحون في الإسلام فكانوا يريدون أن يفهموا الناس ـ كلما انتكس الناس في جاهلية ـ حقيقة الإسلام»[1].

هذا هو مفهوم الإسلام في شرائعه ونظمه، يلتقي المسلمون عند القاعدة الكلية له ولا يتفرقون، يأخذون بمبادئه العامة في الأخلاق والمعاملات ويبنون عليها ما تتطور إليها حياتهم، وبذلك يتمكن الفرد في المجتمع الإسلامي من بذل أقصى نشاطه، فتعطي الحياة كل ما أودع الله فيها من الطاقة، وتنمو ما قدر لها الله من النماء، وتبرز المصالح العامة والخاصة مشتركة مجتمعة في المسلك والهدف، لا غلوّ فيها ولا عوج ولا شذوذ، دون أن يفقد الفرد كينونته وشخصيته وكرامته، ودون أن تتفسخ وحدة

---

(1) د. عمر فروخ. تجديد في المسلمين. ص12.

الجماعة وتفقد مصالحها وتناسقها، ويجد كل إنسان حريته وحقه، وإرادته الواعية في التصرف والعطاء، «فالإسلام مجموعة من القيم التي لا أحسب عاقلاً على وجه الأرض يرفض شيئاً منها، من حيث هي مثل عليا، سواء مكنتنا التربية والتنشئة من تمثلها ومن العيش على غمارها أم لم تمكنا من ذلك»[1].

ومن خلال التعقد والتراكب في المجتمع الحديث وما يسوده من صراعات مادية، فإننا نلمس الحالة الصعبة التي يتعرض لها إنسان اليوم الذي يقع في كثير من الأحيان ضحية القلق والشك نتيجة إحساسه بعدم الطمأنينة، والإنسان ينظر إلى لحظة الخلاص من كل ما يعيق حركته ويكبل حريته، وينظر بعين الأمل إلى قيام التوازنات التي تضبط شؤون الحياة علمية وعملية وفكرية وروحية، معنى هذا أن الإنسان وصل إلى درجة كبيرة من الوعي، ولكن القضية أنه تائه ضائع في مفترق الطرق، وما دام الأمر كذلك، وما دمنا قد عرفنا بأن الإسلام فيه ما يحقق حلم الإنسانية في التواجد الحقيقي، فإن على المسلمين أن

---

(1) د. زكي نجيب محمود. تجديد الفكر العربية. ص68.

يواجهوا كل هذه المتطلبات وأن يهبوا بجهد مكثف لإثبات دورهم الإيجابي في صنع المستقبل الجديد لإنسان اليوم الذي يتوق للوصول إلى المثل الأعلى.

الفصل السادس

اليوم الآخر.. إصلاح وإعداد

ربما يتوارد إلى الأذهان عند ذكر الآخرة والحديث عن ذلك اليوم العظيم، أن يلقي الإنسان بالحياة الدنيا وراء ظهره مرة واحدة، ذلك لأنه يظن أن إعداد النفس يتطلب هذا الاتجاه، وأن ينقطع انقطاعاً تاماً عن أمور الدنيا منزوياً في ركن خفي حتى يتوفاه الله، والأمر ليس كذلك لأن حقيقة العمل في الإسلام شملت الدنيا والآخرة.

جاء الإسلام ليرتفع بالإنسان عن مثل هذا السلوك الذي هو أقرب ما يكون إلى الرهبانية، فلا رهبانية في الإسلام، وعلى المسلم أن يباعد بين نفسه وبين أن يعمد إلى فهم الدين بتطرف فلا تقاس مقدرة الإنسان الروحية بانزوائه عن الحياة وضجتها، وابتعاده عن الناس وحركتهم الدائبة، وإنما يصح القياس إذا خاض المرء

غمار الحياة، وجربها بعد عراكه لها، وعندئذ يتبين لمن تكون الغلبة.

وهنا تبرز قوة العقيدة عند المرء، وعلى أساسها تنبني حياته الروحية والعملية، فالعقيدة إذن هي الرباط الذي يربط كيان الإنسان ويوحد اتجاهه، وهي العقدة الصلبة التي تمنع انحلاله. وعقيدة المؤمن توازن بين مطالب النفس المتشعبة، فهي مثلاً لا تمنع الاستمتاع بالطيبات من الرزق، ولا تحرم زينة الله التي أخرج لعباده، بل هي تدفعه إلى إشباع النفس من هذا المسلك الحسن، ولا تحول بين الإنسان وبين عمله على تنظيم المجتمع وتقدمه، وانظر إلى قول الله تعالى عن قارون لتقف على لطف الله بعباده، من خلال ما تهدف إليه الآيات الخاصة بحياة الإنسان: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1].

نرى الدنيا مرتبطة بالآخرة بأسباب الإعداد والبناء، فالعمل الواجب للآخرة ميدانه الحياة الدنيا التي هي النافذة

---

(1) سورة القصص، الآية: 77.

المطلة عليها، «فلا ينقسم المسلم قسمين بين الدنيا والآخرة، أو بين الجسد والروح، ولا يعاني هذا الفصام الذي يشق على النفس احتماله ويحفزها في الواقع إلى طلب العقيدة، ولا يكون هو في ذاته عقيدة تعتصم بها من الحيرة والانقسام»[1].

ومن هذا التماسك والانسجام الذي يقيمه الإسلام يستطيع الإنسان أن يدرك قيمة عمله المنوط به، ويتسنى له إدراك عظمة الله من وراء سعيه المتواصل لإدراك أسرار الحياة، ويعرف وزنه من اندماجه بالناس وتعامله معهم، ثم تكون هناك الموازنة المعملية بين الدنيا والآخرة.

ونحن نسعى إلى إشباع الحاجات التي يطلبها الجسد، ونتطلع إلى آفاق أخرى ـ إيجابية بطبيعة الحال ـ تربط بين الناس برباط الأخوة، نهدف من وراء ذلك إلى الإحساس بجمال الحياة، ومن ثم استشعار الجمال في كل شيء في التعبير والسلوك والشعور؛ لتتكامل معاني الحق والخير في النفس البشرية. والإنسان العاقل لا يبتغي ذلك دون أن يستدعي نفسه للعمل الجاد حتى يصبح مسؤولاً ومدركاً

---

(1) عباس العقاد. حقائق الإسلام. ص29.

لأعباء المسؤولية، فهو ما خلق إلا ليعمل،، وما هذه الحياة إلا دار اختبار لعمل الإنسان وكفاءته، معنى ذلك أن الأمانة أضحت واضحة وعلى المرء أن يقوم بتأديتها وتحملها.

إن نصيب الإنسان من دنياه أن يعيش ويأخذ حاجته من الطعام والشراب غير مضيق عليه، وفي الوقت نفسه يجمع بين مطالبه هذه وبين مطالب روحه التي يفترض أن تأخذ نصيبها من الحق والخير، «فليس السعي في سبيل الدنيا ضلالاً عن سبيل الآخرة، وليس في القرآن فصام بين روح وجسد، أو انشقاق بين عقل ومادة، أو انقطاع بين سماء وأرض، أو شتات في العقيدة يوزع الذات الإنسانية بين ظاهر وباطن وبين غيب وشهادة، بل هي العقيدة على هداية واحدة تحسن بالروح كما تحسن بالجسد في غير إسراف ولا جور عن السبيل»[1].

ومن يخرج عن هذا التوسط النابع من روح الإسلام فإنه يحكم عليه إما بالجهل أو بالكبر، وهؤلاء الذين

---

(1) عباس العقاد، الإنسان في القرآن. ص384.

يسلكون سبيل التعامي لا يسألون يوم القيامة سؤال العتاب واللوم، إذ هم ليسوا من المعتبين، وإنما سيتعرضون إلى سؤال التوبيخ لأنهم اتخذوا من الإسلام محلاً للسخرية والاستهزاء، وقد نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ * كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ * فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[1].

لذلك فإن الحياة لم تشرع كي يسير الإنسان فيها بالغطرسة والجبروت، ولكن حتى ينظم الناس أنفسهم فيها، ويجعلوا علاقاتهم مبنية على العدل والرحمة إذ منهما تنبعث المودّة، والسؤال هنا: هل يوجد دافع أقوى من الإيمان بالله لبناء هذه الحياة؟ وإلا فما شكل الحياة بدون تنظيم؟ ألا تغدو الصلات فيها متقطعة بين البشر، ويصبح كل فرد منعزلاً وحيداً لا يجد مساعداً ولا نصيراً، وتسود الحياة قوة الغاب تضيع فيها الحقوق وتنتهب الخيرات؟.

وقد بين الله تعالى أن الناس لم يخلقوا ليعيشوا أشتاتاً

---

(1) سورة الحجر، الآيات: 89 ـ 96.

متفرقين، وإنما خلقهم ليتعاونوا على أعباء الحياة بالحبّ والتراحم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1].

ولمعرفة طريق التقوى يأتي دور العلماء في الترشيد والتوضيح، وهو دور لا يستهان به، لأن عليهم أن يبنوا للناس حقائق الدين، والذين يفترض أن يكونوا أكثر الناس خشية لله لأنهم الأكثر معرفة. لهذا يوضع في الاعتبار أن يكون بيان العلاقة بين الدنيا والآخرة من الأمور التي يجب أن تكون واضحة أمام المسلمين، فالرسول ﷺ وصحابته لم يأخذوا العقيدة على أنها عواطف ووجدانات فحسب منفصلة عن الأحداث اليومية والتشريعات الاجتماعية والنواحي الاقتصادية، ولكنهم فهموا أن تنظيم الحياة لا يتم بمعزل عن الدين، فاتصلوا بالله تعالى اتصالاً وثيقاً في العبادة والعمل العام، وعلى هذا فإن الدين بروحه ونصوصه وتشريعاته وتوجيهاته يحكم على كل صغيرة وكبيرة في المجتمع، وهذا التهذيب الروحي والتوجيه الخلقي يجعل إطاعة القوانين نابعة من أعماق النفس برغبة

---

(1) سورة الحجرات، الآية: 13.

إيجابية في عمل الخير، ومن الطبيعي أن يتمخض عن ذلك ربط القلوب بعضها ببعض في شعور إنساني كريم مما يدعم العمل على تثبيت المبادئ التي ترفع المجتمع إلى الآفاق الإنسانية، لأن الإنسان أعدّ نفسه للآخرة فحافظ على البناء الموصل. فنجد أن الطريق أصبح واصلاً بين الدنيا والآخرة.

والإنسان مدعوّ إلى إقامة العدل ونشر الإصلاح، وإلا فإنه سيكتب على نفسه الخسران يوم القيامة، لأنه قابل نعمة الله بالكفران والجحود، ولذلك كان تبشير الله لمن أراد الخير العام للجميع، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]. ومعنى ذلك أن تقوى الله حاجز حصين من الوقوع في مستنقع الاستعلاء والاستبداد، ويصبح في مفهوم الإنسان أن سلوكه في حياته اليومية، وما يقدمه من خير، أو ما يرتكبه من سيئات محسوب عليه، وهو عندما يتذكر مفارقته الدار الدنيا، ويحسب حساب ما بعد الموت، يهون عليه ما يتصوره صعباً، ويتذكر أنه في حاجة إلى الرحمة عند ساعة الموت فيرحم غيره، والقرآن الكريم يذكرنا برحمة الله في

---

(1) سورة القصص، الآية: 83.

هذه الساعة الفاصلة، فيقول تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[1].

ويعطينا أحد العلماء مدلول هذه الآية الكريمة بقوله: «إنما تدل على الرفق والرحمة والمساعدة عند الموت، إذ إن الله جلّ شأنه رحمة بعباده لم يتركهم عند الموت لأنفسهم، بل أرسل رسله - أي ملائكته - للمعاونة والرحمة»[2].

وهو درس حقيق أن يستفاد منه في سلوك الإنسان اليومي، فلا يقصر في مد يد العون رحمة بغيره، يأسو جراح الآخرين، ويخفف عنهم ضغط الحياة، وما أكثر ما شجعنا القرآن الكريم على فعل الخير، وكرهنا في السيئة وجعلها في النتيجة بمثل ارتكابها حتى يكون في ذلك مندوحة لمرتكبيها أو لمن يفكرون ارتكابها أن يجانبوها. فقال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[3].

ويتعلق الأمر هنا بالصمود أمام إغراءات الباطل حتى

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 61.

(2) عبد الرزاق نوفل، الحياة الأخرى. ص93.

(3) سورة القصص، الآية: 84.

يتمكن المسلم من إقامة شريعة الله، وبما أن الإسلام دين عملي فإن القواعد والأنظمة التي ينص عليها القرآن ليست جامدة، وذلك لكونها تتكيف مع الأحوال والأزمنة التي تتوالى على الإنسان، ولهذا فإن المسلم يجد أن في ميسوره التزام أحكام دينه، وهكذا ينعم بالأمن وطمأنينة النفس»[1].

(ولكننا نود أن نصحح عبارة الكاتب الأوروبي فنقول إن المسلم يكيف حياته ومتطلباتها حسب تعاليم القرآن الكريم حتى لا نحتال على النص القرآني).

وعلى هذا الأساس يتهيأ المسلم لليوم الآخر لأنه وعى طريق الإسلام وهديه واتخذ من وحي العقيدة مسلكه الواضح مع النفس والحياة، وعلى سبيل المثال نقول: إنه في الوقت الذي يستطيع فيه المسلم أن يحقق مثله الحيوية في الإسلام متوزعة على الحياة والآخرة، نجد أن المسيحي لا يستطيع تحقيق هذا الانسجام، لأن كل همه، هو أن يشبع فكرته الرامية «إلى الاتحاد بالمسيح في المستقبل بوصفه غاية الغايات في حياته الدينية»[2].

فالأمر إذن يختلف كثيراً بين المسلم وغيره. فبُعد أي

---

(1) روم لاندو. الإسلام والعرب. ص52.

(2) المرجع السابق. ص52.

إنسان من غير المسلمين عن العمق الديني الذي نفهمه في الإسلام سيفقده الكوابح التي تمنعه من ارتكاب المعاصي واقتراف الآثام، فالامتناع عن الذنوب والأخطاء يحتاج إلى إيمان قوي بالله، فذلك وحده هو الضمان، حتى تصلح النفس فلا تندفع وراء الجريمة واجتراح السيئات، ولأنه يحدث في النفس رهبة تقهر رغبة الانحراف، ومن ثم يفهم معنى العبادة في قول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[1]. ورد النهي في الآية حتى لا تتعطل طاقة النفس البشرية، وحتى لا يتعطل الإنتاج، ولا ينشغل الإنسان بنزواته فيعرض نفسه للهلاك، وبهذا فإن الإسلام يرعى في النفس قوتها ومنعتها لبعد المؤمنين للعمل المثمر.

وحتى تنتظم أحوال الناس وأمور معيشتهم في حياتهم الدنيوية، كانت الدعوة إلى الاستعداد للحياة الآخرة قائمة على أساس فهم الدنيا فهماً صحيحاً يقيم التوازن المطلوب، «وملاك الاعتدال في الخلق الإسلامي أن المسلم يؤمر بالعمل لدنياه كما يعمل لدينه، ويؤمر بصلاح

---

(1) سورة العنكبوت، الآية 60.

الجسد كما يؤمر بصلاح الروح، فلا يكون في هذه الدنيا روحاً محضاً، ولا يكون فيها جسداً محضاً، فمن العنت أن يقال إنه يعمل ليكون جسداً محضاً في عالم الرضوان، عالم الروح والصفاء»[1]. ولا شك أن أمر الإنسان بين الدنيا والآخرة يتعلق بالعمل بالأحكام والتعليمات المتعلقة بالأخلاق والاجتماع والقانون التي تتعاون لحفظ المجتمع الإسلامي من نشوء الرذائل وانتشارها، والعمل على تداركها أين نشأت وانتشرت، وقد بين القرآن الكريم كيفية إصلاح الحياة البشرية وتقويم اعوجاجها، وحرص المؤمنين على الإصلاح يتمثل في توجههم إلى الله بالدعاء ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[2].

وفي إطار إصلاح المجتمع حافظ الإسلام على بقائه نقياً طاهراً من المفسدات ومن الفواحش، كما حذر الذين يلفقون الأخبار الكاذبة المسيئة إلى سمعة المسلمين، أو يحاولون أن تشيع الموبقات في المجتمع الإسلامي، وهؤلاء لا يستحقون الحماية أو التستر عليهم، بل هم أهل للعقاب الذي أسرعوا

---

(1) عباس العقاد. حقائق الإسلام. ص268.

(2) سورة البقرة، الآية: 201.

إليه، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾(1). ويمكن للإنسان أن يتصور عذاب الدنيا وأن يتغلب على جزء منه بعض الأحيان، ولكن ورود ذكر الآخرة والعذاب فيها، فليس للإنسان أية حيلة في دفع أي منه، لهذا كان التخويف بالغاً بذكر الآخرة، حتى يشعر الإنسان أن الحياة الدنيا دار إيداع وتوديع، تتوالى أحقابها ثم تفنى وتزول، ولأن الأمر كذلك، فقد حرص الإسلام على سلامة نفوس المسلمين في هذه المرحلة الانتقالية، يتعاونون فيها على البرّ والتقوى، لا ينتشر بينهم ظلم ولا يتعاملون بالقسوة ولا بالخشونة، لأنهم رحماء فيما بينهم وأشداء على الكفار، وقد وضح الله تعالى كيف يتراحم المسلمون فيما بينهم، فرخص سبحانه للأعمى والمريض والأعرج أن يأكلوا من بيوت أقاربهم من غير استئذان، وهم ليسوا في هذه الحالة في عداد السارقين، وحتى لو كان الأقارب متغيبين عن بيوتهم لهم ذلك أيضاً، فقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾(2).

كما جعل الدين من حقّ الأقرباء والأصدقاء الذين لا

---

(1) سورة النور، الآية: 19.

(2) سورة النور، الآية: 29.

كلفة بينهم أن يأكلوا من بيوت بعض، كأن الفرد يأكل من بيته، ليزول التباعد بين الناس، وتسود بينهم روابط المودّة والأخوة.

والعلاج النفسي الذي نحن بصدد الحديث عنه اهتم به الإسلام على أساس أنه جاء في طور الإعداد ليوم القيامة إعداداً يتناسب وأحوال ذلك اليوم، ينتقل الإنسان إليه بعد ساعات عسيرة عند الموت سواء أكانت على الميت نفسه أم على أهله، ويقرب الله الأمثال فيها على رحمته بعباده لتسود بينهم الرحمة، يقول تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾[1]. فيعلم الإنسان متأملاً مدى المعاناة الواقعة في هذا الموقف الذي يحدث فيه الفراق، «ويجد في هذه الآية إشارة إلى رحمة الله بالإنسان عند انتقاله، وأنها تعلمه أن الله سبحانه وتعالى يكون أقرب لروح العبد من أهله، وأن هذا القرب إنما هو قرب الرحمة والمعونة والمساعدة، فأهل المحتضر إنما يلتفون حوله في محاولة يائسة لدفع الألم عنه ومساعدته في تخفيف عذابه،

(1) سورة الواقعة، الآية: 83.

وينظرون ماذا يمكن عمله لمعاونته»[1]. ولكن إلى أين ينتقل هذا الذي يودعنا؟ هنا يجب أن يمعن الإنسان تفكيره ويدقق تأمله.. إلى الحياة الآخرة. وماذا أعدّ من زاد لتلك الحياة؟... مواجهة لا شك صعبة، ولقاء ما بعده لقاء، انظر إذن إلى حياتك الدنيوية وراجع فيها حساباتك، واكشف صادقاً مقيماً علاقتك بالله سبحانه وتعالى، وسوف تجد أنك مدعو إلى العمل الصالح الذي يرفع درجتك، فيجيء الترغيب في عفو الله وعطفه على عباده مقروناً بالعبادة التي تظهر طاعة المؤمن، فقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾[2].

والعبادة من شأنها أن ترتفع بالمسلم عن مواطن الشهوات، وتنأى به عن الشبهات، ليتبين من ذلك أن الإصلاح من الأمور التي تقدم بها الإسلام، وقدم إصلاح النفس ليصلح ما بعدها، الإنسان... والمجتمع.

وليعلم الإنسان أن الإسلام دين الإصلاح والبناء، وليس باستطاعة القوانين الوضعية أن تقوم مقامه لأنها أثبتت

(1) عبد الرزاق نوفل. الحياة الأخرى. ص92.

(2) سورة هود. الآية: 114.

عجزها عن إصلاح أحوال البشر، ومن يضعونها معرضون هم أنفسهم للخطأ والانحراف، فكانت الأديان السماوية البديل الحقيقي ليسير الناس على هداها، وكان الإسلام آخرها الهادي إلى سبيل الحق والخير، والآخذ بأيدينا إلى يوم القيامة، وإلا فكيف يكون الأمر إذا فقد الناس ثقتهم بأن هناك يوماً للحساب، فكان لا بد من عقيدة تربطهم به، وتثبت إيمانهم بعدالة الله المطلقة تعوضهم في ذلك اليوم عما لا قوة في الدنيا، وإلا فكيف يعيش المظلومون وهم لا يرجون ثواب الآخرة؟! إذن فلا بد من بيان ومعرفة الطريق إلى تلك الحياة.

وإذا كان المحسنون قد أحسنوا العمل، فإن النعيم الذي هم فيه يوم القيامة، لايعدله إحسان المحسنين مهما بالغوا فيه، وإنما هو فضل من الله عليهم، ومضاعفة للجزاء الحسن. وهذا ما يشير إليه قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

ومن هنا كان وجوب اعتقاد الإنسان بأن رسالات

---

(1) سورة يونس، الآيتان: 25 و26.

الأنبياء أعمق ما يمكن تصوره تأثيراً في النفوس، لأنها قامت على الإصلاح الجذري الذي يربي الإنسان على الفضائل، ويربي العقل على الفهم والتفهم، وجاء الإسلام ليكون عقيدة شاملة يحتوي كل مفاهيم الحياة بكل نشاطاتها وأهداف الإنسان فيها غير منفصلة عن الآخرة، وقد وضح الإسلام «بالقول الفصل مسألة البقاء والفناء، فالعقل لا يتصور للوجود الدائم والوجود الفاني صورة أقرب إلى الفهم من صورتهما في العقيدة الإسلامية، لأن العقل لا يتصور وجودين سرمديين، كلاهما غير مخلوق، أحدهما مجرد والآخر مادة، هذا وذاك ليس لهما ابتداء وليس لهما انتهاء، ولكنه يتصور وجوداً أبدياً يخلف وجوداً زمانياً أو يتصور وجوداً يدوم ووجوداً يبتدئ وينتهي في الزمان»[1].

وعلى هذا الفهم يقوم المسلم بما يتوجب عليه في الدنيا فينفذ ما أمر به الله ويجتنب ما نهى الله عنه؛ حتى لا يتعرض إلى عقاب في الدنيا وعذاب الآخرة.

والعقاب المشروع في الدنيا على أسس الدين جاء

---

(1) عباس العقاد. الله. ص161.

تطهيرا للمجتمع، وتخليصاً له من المشاكل التي تعترض طريق بنائه، فيعرف المخطئ خطأه بعد أن ينال جزاءه، ويكون في ذلك عبرة للآخرين حتى لا تتكرر الآثام والجرائم، ويقع الناس ضحيتها، وإقامة موازين العدل بين الناس من النعم التي تستوجب الحمد والشكر من المحسنين والمسيئين على السواء، فتعود النفس إلى جادة الصواب وتنزاح عنها غشاوة الواقع المنحرف التي هوت فيه.

وحديث القرآن عن العذاب يبعث الخشية من الله في النفوس، وأما من لم يتعظ بما يسمع فيتحقق له العذاب المذكور، ففي قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1]. إشارة إلى تحذير شديد لمن يكذب بنعم الله سبحانه، وعندها يقوم المتدبرون العاقلون مندفعين شاكرين أنعم الله استعداداً للقاء اليوم الموعود ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[2].

---

(1) سورة الرحمن، الآيات: 43 ــ 45.

(2) سورة التحريم: الآية: 6.

وهؤلاء الذين نهوا أنفسهم وخافوا ربهم لهم التكريم والدرجة الرفيعة عند الله تعالى، ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[1]. جزاءً عظيماً له لأنه أعدّ نفسه ليوم الحساب وأقرّت في قلبه الطاهر النصائح والمواعظ.

أما المستكبرون الذين استنكفوا عن عبادة الله، ولم يجدِ معهم التخويف ولا الزجر، فإنهم سيكونون يوم القيامة في حالة سيئة، ترتسم على وجوههم علائم الذلة والهوان ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ * بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2]. ويجيء التوكيد بعد ذلك بما سيظهرون به يوم القيامة من صورة تدل على فداحة ما ارتكبوه في الدنيا ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[3]. وفي الصورة المقابلة نرى الإحسان والفرحة والطمأنينة تملأ

---

(1) سورة الرحمن، الآية: 46.

(2) سورة الزمر، الآيات: 56 ـ 59.

(3) سورة الزمر، الآية: 60.

قلوب المؤمنين ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

وهكذا نجد أن الإيمان باليوم الآخر أساس لبناء النفس المؤمنة التي يهمها أن تظل مشرقة يحوطها النور من جميع جوانبها، فالمؤمن لا يَغْرَقُ في منافع الحياة الدنيا لأنه يدرك أن وراءها عالم الخلود الأبدي.

(1) سورة الزمر: الآية: 61.

الفصل السابع

التوبة.. والتربية الخُلقيَّة في الإسلام

اعتنى الإسلام عناية فائقة بالإنسان، فقام يوجهه نحو طريق الهداية التي يجد فيها نفسه، وليتمكن المسلم من السير بخطى ساعية تجاه الأهداف التي وضعها الإسلام، ولوجود الصراع في النفس الإنسانية تحتم على الإنسان أن يكون مع أحد طرفيه، مع الحقّ أو الباطل، مع الخير أو الشر.

ومفهوم الصراع الذي تشتعل ناره في النفوس يدور حول الانتصار لمعايير الخير أو الشر، «ولقد لخص الإنسان منذ فجر نشأته تجربته الحضارية في إطار الدين، فكانت النظم الدينية تعبيراً على المستوى الفكري والروحي والأخلاقي لعلاقة الإنسان بالطبيعة وبما وراء الطبيعة وبالمجتمع. وحاجة الإنسان الروحية نابعة من طبيعة تكوينه

وانفصام شخصيته إلى جسد وعقل أو روح، فهو دائم البحث عن أفق أعلى من مستوى حاجاته الجسدية، وهو دائم التسامي إلى ما فوق نزوات الجسد»[1].

ومن هذا التكوين الذي وجد عليه الإنسان، يحاول الشيطان جاهداً إحراز انتصاره على قيم الخير، متدخلاً بحيله ونصب شباكه ليوقع فيها أكبر عدد من الناس إلى جانبه. وتجابهه في اندفاعه هذا قوة الخير الكامنة في الروح البشرية الطموحة إلى التكامل والانسجام في المحيط الإنساني، وهي قوية ثابتة الأصول بما تزودت به من قيم استقتها من مفاهيم وأصول الدين، وهي قادرة على قهر الشيطان، وباستطاعتها أن تصرع مطامعه، فيرتد عنها خائباً ذليلاً.

وأما النفوس الضعيفة المهينة، فهي غير قادرة على الصمود أمام إغراءات الشيطان وتهديداته، ومن هنا كان تحذير القرآن الكريم بالغ الأهمية في قول الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[2].

---

(1) د. عون الشريف قاسم. مجلة الدوحة. فبراير/ 1980. ص25.

(2) سورة الإسراء، الآية: 53.

سلك الإسلام أقوم الطرق لتخليص الإنسان من ربقة الشيطان، وذلك ضمن منهجه في التربية الأخلاقية، فوجّه المسلمين نحو العبادة لكونها تسمو بالسلوك الإنساني، «فغاية الاعتقاد والعبادات الإسلامية هي تعميق وتوسيع وعي الإنسان الكوني، والارتقاء بهدي هذا الوعي في معراج الكمال الذاتي»[1]، وينشأ المسلم على هذا الأساس نشأة تتوفر فيها كل إمكانات المقاومة ضد تيار الباطل ودوافع الشر.

والذي نعرفه أن الخطأ يعتبر من الأمور التي يتعرض لها البشر، ومن الخطأ يتولد الصواب، ولكن العيب يترسب عندما يصر المخطئ على ما وقع فيه بل ويتعمده أيضاً، لأنه في ذلك يخالف الفطرة السليمة التي تتراجع بطبيعتها عن الخطأ، ولا تتمادى فيه، وبما أن العقيدة الإسلامية تربي الفطرة الإنسانية على السلوك الصحيح، فإن الدين يعتبر إذن مستودع كل التراث الإنساني، وهو في ذات الوقت عنصر هام من عناصر الإلزام الخلقي والردع الاجتماعي لما فيه من ترغيب وترهيب وثواب وعقاب، وفي الالتزام بقيمه التزام بفطرة الله التي فطر

---

(1) د. حسن صعب. إسلام الحرية لا إسلام العبودية. ص15.

الناس عليها، وجاءت رسالات السماء تذكر الناس بهذه الفطرة، وتردهم إليها بالأحكام والشعائر والعبادات والمعاملات»[1].

ولطبيعة الإنسان التي خلق عليها وهب العقل للتمييز، وبين الله الخطأ من الصواب موحياً بذلك إلى رسله، حتى لا يترك الإنسان صريع الأخطاء والمآثم، وإلا تحولت الحياة إلى دائرة من الخطأ يعسر معها بل يستحيل أن تمضي الأمور بحيث تنتهي إلى السلامة وسعادة الإنسان، فكان الدين طريق الإنسان الفطري، وكان علينا من ثم أن ندرك «بأن مبدأ الوحدانية مرتبط بمبدأ الخير، وهو المبدأ الجامع لكل أفعال الله، والتلازم بين الوحدانية والخير هو تلازم بين الوحدانية والحقيقة، وبينها وبين الحق وبينها وبين العدل، فالله الواحد هو الحقيقة الواحدة والشرع الواحد والعدل الواحد والميزان الواحد لجميع البشر، وليس هذا الميزان ميزان الأصل أو العرق أو النسب أو الجنس أو الطبقة بل ميزان العمل»[2].

---

(1) د. عون الشريف قاسم. مجلة الدوحة. فبراير 1980/ ص25.

(2) د. حسن صعب. إسلام الحرية. ص24.

وبما أن الإسلام دين هدفه إنقاذ الناس من الظلمات والفساد، إلى النور والصلاح، فإنه اهتم كذلك بمتابعة المسلم في عمله وسلوكه، والقيام بتخليصه مما يقع فيه من أخطاء، فالمؤمن يعمل متوكلاً على الله تعالى، وإذا أخطأ فإنه لا يقصد الخطأ أصلاً، ثم هو لا يصمم على مواصلته أو التمادي فيه، ولكنه تعرض لظرف معين. وجد نفسه مخطئاً فيه، مع علمه أن دعاءه إلى الله بالتوبة والغفران مفروض عليه لأن توجهه من علامات الإيمان.

يقول تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[2].

وفهمنا لهاتين الآيتين يجعلنا نتصور العلاقة بين الإرادة الإنسانية وبين ما لا نستطيع إدراكه من أسرار الكون، وهذا

(1) سورة الأنعام، الآية: 59.

(2) سورة البقرة، الآية: 186.

التصور «هو الذي وعاه المسلمون في عصور عزتهم، ولم يكن الإيمان العاجز بالقضاء والقدر إلا تشويهاً له، إن الإسلام يدعو الإنسان إلى محاولة فهم القوانين الإلهية والعيش بمقتضاها، وعندئذ فلن يقف في سبيله شيء، فالانسجام بين الإرادة الإلهية والإرادة البشرية هو هدف الإنسان، وأوامر الله ورغبات الإنسان الحقيقية لا ينبغي أن يكون بينهما تناقض لأن صراع الإنسان الأكبر إنما هو ضد نفسه، حتى يهيئها الله لقبول كلماته تعالى»[1].

وفي الوقت الذي يطلب فيه الإنسان العدل ويسعى وراء الحقّ، وتتمنى نفسه أن يكون الخير رائدها، يكون البحث عن الحقيقة وعن الصواب هو الطريق الذي ينتهي بتحقيق الحقّ والعدل، ومعنى ذلك أن الخطأ الذي يمر به المسلم لا بد من الرجوع عنه وتفاديه، ويتم إبعاد الخطأ عن طريق التوبة التي تربي النفس على مخالفة الهوى وتقربها من الخير وأهله، فكانت المغفرة هي المكافأة التي يستحقها التائبون على هذا الطريق، فيقول تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[2].

---

(1) د. شكري محمد عياد. الحضارة العربية. ص15.

(2) سورة طه، الآية: 82.

واستحقاق المغفرة هنا جاء نتيجة أن صاحبها استطاع أن يحارب الشيطان وأن يتغلب على نزواته، فهو ـ أي التائب ـ جدير بأن يتمتع بالسكينة والاطمئنان في رحاب الإيمان وهدى الإسلام.

والذي يفهم من التوبة وهي مبدأ هام من مبادئ العقيدة في الإسلام، أنها تسهم بدور رئيسي في صلاح النفس، والتوبة لا تتجرد من العمل وإلا فقدت قيمتها، وإنما الذي يعطيها محتواها العقدي والعملي، أن تحاط بسياج العمل النابع من صدق الإيمان، ومن هذا المنطلق نستطيع أن نفهم قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَءَامَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

وتعتبر التوبة المحك العملي الذي يبين مدى الصدق الذي ينويه الإنسان وهو يعلن توبته، «فالتوبة الحقة لمن يشاؤها ليست تلك التي تمر بالخاطر ثم تسقط منه على اللسان، كلمات يتمتم بها أو تملأ فمه في ساعة من ساعات الضعف أو العجز، ولكنها هي تلك التي تتم داخل النفس في ساعة القدرة وعنفوان القوة، ثم تصدر في كلمات أو

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 153.

خلجات أو أنفاس متقطعة من القلب كلها دم ولحم وعظم»[1]، وهنا يتجسّد معنى مغادرة الذنب وعدم الرجوع إليه مرة أخرى، وسوف يجد التائب نفسه غير ما كانت عليه ساعة اقتراف الخطيئة أو الوقوع فيها، لأنه لمس من الخير والنقاء ما كان يفتقدهما، فيستقيم سلوكه وتطهر نفسه، وما أجمل ما قال أحد الشعراء الصالحين:

وفـؤادي كـلـمـا عـاتـبـتـه

عـاد لـلـذات يـبـغـي تـعـبـي

لا كنت يا نفس ولا كان الهوى

فـاتـقـي الله وخـافـي وارهـبـي

ولكن الذي لا يخفى على العاقل أن النفوس الضعيفة يثقل عليها أن تتقيد بالأحكام السماوية، لأن ضعفها لا يمكّنها من أن تستقيم مع جوّ الدين النقي الطاهر، فهي نفوس انحصرت في أهوائها الصغيرة، وانزوت في أركان النزوات، فعميت عن رؤية الصالح من الأمور، وعندما يُسألون عن جدوى إصرارهم على الخطأ، فما عساهم يجيبون؟ إن أبسط ما يقال هنا أنهم يفتقرون إلى الشجاعة

---

(1) محمد شاهين. مع الفكر الإسلامي ص106.

التي من شأنها توفير معيار الصدق المطلوب. وهو لا يجرؤ على أن يكاشف نفسه لأنه افتقد سبب الإصلاح، أما المؤمن الذي سكن قلبه نور الهدى واليقين إذا وجد في مسلكه اعوجاجاً فإنه سرعان ما ينهض إليه يقومه، فينقذ نفسه من انحراف كاد أن يقع فيه، ومن ثم يظهر الفرق واضحاً بين الطرفين، ومن هذا نستطيع أن نقف على حقائق الدين الإسلامي في الوضوح ومعالجة الأخطاء وبيان الطريق الصحيح الواجب الاتباع.

ويقع المغالطون في الانحراف حينما تزين لهم شياطينهم إثارة الخلاف والجدل في صفوف المسلمين، ذلك لأن تلك النفوس قد تأزم مرضها وأصبح لا يجدي العلاج معها، وقد غشيت قلوبهم ظلمات الجهل والضلال حتى أنه أصبح من العسير عليهم تبين الطريق الصحيح، يقول الله تعالى مبيناً الفرق بينهم وبين أهل الإيمان: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

(1) سورة آل عمران، الآية: 7.

فالمؤمن شجاع في عقيدته قوي في تمسّكه بالمبدأ، وهو يترك كل ما من شأنه أن يوقعه في دائرة الحيرة والقلق، لأنه يعلم أن في ذلك انزلاقاً إلى الخطأ الذي هو في غنى عنه، وقد فهم أن حياته تقوم في الإسلام على أساس التبصر عند الاختيار على تناول المسلم لأمور الحياة، «وإذا كانت وسائل التربية الحديثة في أروع صورها، ودعوات الإصلاح في قمة صيحاتها قد قررت أن السلبية التي تصيب بعض الأفراد لا يقتصر ضررها على ما تصيبهم بها، بل يتعدى ذلك إلى الدولة نفسها. . وإذا كانت الأبحاث والدراسات قد وصلت إلى أن ممارسة النقد الذاتي هو السبيل الوحيد لردّ أخطاء الفرد وعلاج سلبيته، وأن اعتراف الإنسان بخطئه وإعلانه وإظهاره إنما يجنبه عواقب التمادي فيه، فإن القرآن الكريم يكون قد سبق هذه الدعوات بعشرات من مئات السنين حينما دعا إلى ممارسة النقد الذاتي في آيات كثيرة تدعو إلى الاستغفار، وما الاستغفار إلا اعتراف بالذنب وندم على فعله وعهد على عدم العودة إليه»[1].

---

(1) عبد الرزاق نوفل. القرآن والمجتمع الحديث. ص139.

وعندما نريد العظة والعبرة فإننا نلجأ أولاً إلى القرآن الكريم نتزود من آياته الكريمة، وقد علمنا منها أن اللعنة التي مني بها بنو إسرائيل وقعت عليهم لأنهم أكثروا من ارتكاب الإثم والجرائم ولم تترفع نفوسهم عن الأخطاء كبيرها وصغيرها، ولم يكلفوا أنفسهم جُهْدَ الابتعاد عنها، فقال تعالى فيهم: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ * كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ * تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾[1].

وبما أن الذي يعمل يتعرض للخطأ، فعند ذلك ينبغي أن يراعى العامل المخلص، لأن الذي عرف عنه أنه حريص لا يخطئ، ولكن ليس معنى ذلك أن يتكرر الخطأ، وعلى هذا الإنسان أن يلجأ إلى التوبة، حتى يحترز في أعماله ويستفيد من تجاربه في الحياة، وقد رحّب الله بالعاملين التوابين الذين يرجعون إليه سبحانه بالتوبة والعمل

---

(1) سورة المائدة، الآيات: 78 ـ 80.

الصالح، فقال تعالى فيهم: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1].

أرأيت إذن قرب المسافة بين التوبة والإيمان، فالدليل الساطع على صحة التوبة هو العمل الصالح، وليس ضعف الإنسان وعجزه عن ارتكاب المعاصي، وليس الصدق في الإسلام كلمة تباع وتشترى ولكنها كلمة تنبع من قلب يفيض إيماناً وإخلاصاً وتتجلّى في عمل يفيد وينفع ويثمر، وترغيباً للمؤمنين في التوبة الصادقة جاء تقديم التائبين صفة أولى للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

ومجتمع يتعامل أبناؤه بالصدق بينهم يطمئن إلى أنه

---

(1) سورة النساء، الآيتان: 17 و18.

(2) سورة التوبة، الآية: 112.

مجتمع قوي، فلا مجال للأخطاء أن تعيش في جنباته، لأن الجميع يسارعون إلى ملاحقة الخطأ والقضاء عليه، وهذا هو المجتمع الذي بناه الإسلام، وأوصى أبناءه أن يرجعوا من أخطائهم ولا يعودوا إليها، «لأن منطق التوبة في العقيدة الإسلامية أن الإنسان فيما يبتلى به من معصية وذنب، مرجو لأن يندم ويتوب، فتكون توبته إقراراً بالذنب، وعزماً على عدم الإصرار عليه، والأمر في ذلك كله يخضع لحساب نفسه اللوامة، وليس لإجراءات شكلية يؤديها فيأخذ بها الغفران»[1].

وبلغت رحمة الله بعباده الدرجة التي تتّسع لكل من يراجع نفسه ويرجع إلى الصواب، على ألا تتزامن توبته عند العجز أو قرب الأجل، والله سبحانه قادر على أن يأخذ كل إنسان بخطئه في اللحظة نفسها، ولكنه جعل متسعاً للنفوس النادمة، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[2].

والتوبة على هذا سلوك واقعي في حياة المسلمين،

---

(1) د. عائشة عبد الرحمن. الشخصية الإسلامية. ص52.

(2) سورة النحل، الآية: 61.

يحررهم من أغلال الهوى، ويمنحهم الحرية والنور والكرامة، حتى يستطيع المسلم مواجهة الحياة، لأن أبرز ما يسيطر على الروح الإسلامية هو سيطرة العنصر الأخلاقي على السلوك الخاص والعام، وتعليم النفس السماحة والرحمة، فالنفس التي تطمح إلى الانقطاع عن الشهوات والابتعاد عن المعاصي، جديرة بأن تلزم جانب التسامح والرحمة وأن تتمسك بالقيم العليا التي تحارب الجشع والطمع، وتربأ النفس أن تنحط في مهاوي المصلحة الضيقة التي عادة ما يضر تحقيقها بالآخرين.

إن اهتمام الإسلام بالتوبة يرجع إلى حقيقة هذا الدين العظيم الذي يهدف إلى تطهير النفوس وإعادتها إلى طريق السلامة والصواب، أما من التوت عليه أخلاقه الشرسة فأبت عليه سلوك العمل الطيب، فإنه حتى لو برقت منه بادرة خير، فإنها سرعان ما تنطفئ، وذلك لكونها تمثّل الشذوذ من القاعدة، ولم تجد الروح الطيبة التي تحيا عليها، ولهذا قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرًا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾[1].

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 90.

فينبغي على كل مسلم ألا ينسى الاستغفار والتوبة، لأنها من دلائل الشكر والعرفان، وقد كان الرسول ﷺ كثير الاستغفار لأنه أحبّ أن يكون شكوراً لله باستغفاره، ولهذا فإن التوبة مطلوبة من المؤمنين، حيث يقول تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1]. حيث صفاء النفس مرتبط بالتوبة والرجوع عن الخطأ، وهذا يكشف سلامة الطوية وقوة الروح لدى المؤمن الذي لا يبيّت الخطأ في نفسه.

حقيقة العبادة في الإسلام:

إن الحالة الدينية العامة التي سادت حياة الناس قبل الإسلام انحطت بتفكيرهم إلى درجة من الجهل العقلي، حيث إن الإنسان سيّدَ على نفسه قطعة من الحجر أو الخشب واتخذها واسطة بينه وبين الله تقربه إليه، آلهة قام الإنسان على صناعتها بيده، يعتني بنحتها وزخرفتها حسب أوصاف ومقاييس معينة، وهي قابلة للكسر والحرق، أمر يدعو إلى السخرية، وإلى التغيير الكلي فكانت عقيدة

---

(1) سورة النور، الآية: 31.

التوحيد، وكانت العبادة في الإسلام البديل الحقيقي للعقيدة الزائفة عند الجاهلية.

وإقامة العبادات في الإسلام تشير إلى صحة المجتمع المسلم نظراً لأنها تقوم على توجيه المسلم عملياً وأخلاقياً نحو مواجهة صعوبات الحياة بعزيمة لا تلين، وجهد لا يكلّ.

ولا يخفى في الوقت نفسه ما يؤدي إليه الشرك بالله من تأثير بالغ السلبية على التفكير الإنساني فيقيده وعلى الإحساس فيجمده، ولذا كان الإسلام قد دعا وألحّ في الدعوة إلى التأمّل والتدبر في الكون، فهل كان الإنسان قبل ذلك يدعو نفسه إلى إعمال عقله وتفكيره في الكون، أم أن دعوة الإسلام جاءت نتيجة الفراغ الفكري الذي فرضته عقيدة الشرك والوثنية؟ وهل هناك أعجب من اتجاه الإنسان إلى حجر وجماد يطلب إليه أن يحلّ قضاياه؟

ومن هنا جاء الإسلام يهدم الأفكار الفاسدة ويضع حدّاً للضياع الإنساني، ويغرس العقيدة الجديدة، فيقبل الإنسان على الله تعالى دون واسطة مستجيباً لدعوة ربه، ملبياً أوامره، ويوقن أنه لا فرق بين إنسان وآخر في الصلاة، وينشرح صدره لهدى الإسلام الذي أوجد الترابط

الاجتماعي، ويستشعر في الصوم روعة الخضوع لله دون مراقبة إنسان آخر، ويدرك أن قسوة الجوع تلدغ الآخرين كما جربها وهي تلدغه، فلا يقف بعدها متفرجاً على معاناة الآخرين، فيدفع إليهم ما يتوجب عليه من الزكاة والصدقة، ويتعلم دروساً مستفادة من الحج إلى بيت الله الحرام.

وهكذا تقوم العبادة كما سنرى على كشف حقيقة الحياة التي نعيشها، وتعمل على الإعداد الخلقي الذي يخلق الشعور بالترابط والتآخي، والإحساس بالأمن في ظل طاعة الله.

عندما نتوجه إلى الله بالعبادة فإننا نعلن عبوديتنا الكاملة له سبحانه، والعبادة علاوة على أنها مخصوصة بزمان أو مكان، وفيها أقوال وأفعال، إلا أنها تهدف إلى التأثير المتواصل في نفوسنا وسلوكنا وتصرفاتنا وتعاملنا، ولا يمكن عزل العبادة عن حياتنا اليومية الاجتماعية والإنسانية، وإلا أفرغنا العبادة من محتواها الحيوي المتعلق بإصلاح البشر، ومن هنا فلا يجوز التقليل من أهمية العبادة ولا من قيمتها العملية، ولكن الذي يجب أن يترسخ في النفوس أن العبادة تطبيق متكامل لمبادئ الدين، وإسهام تقويه أواصر المجتمع حيث تقرّب بين نفوس المسلمين.

يدعو الدين إلى الفضيلة أي العمل الحسن والسلوك الحميد، والخلق الطيب الكريم، وحين نعبد الله تعالى، فإننا نرجع إلى نفوسنا نحاسبها، لأننا ينبغي أن نعلم أن العبادة مقترنة بالصدق والإخلاص، وما دام المؤمن صادقاً مع ربه مخلصاً له، فإنه من الطبيعي أن يكون كذلك في حياته الإنسانية، لأنه تمسك بالفضيلة ويعمل على تطبيقها، ولا يتلفظ بها وحسب حتى يوصف بها مجرد وصف سطحي، وإنما يعمل من أجل بناء مجتمع فاضل يتعامل أفراده مع بعضهم كأحسن ما يكون التعامل، فالمؤمن والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يعين الواحد منهم الآخر على العمل الصالح، ويحذره وينهاه عن الرديء من الأعمال والتصرفات، لأن الإساءة هنا لا تتوقف عند حدود المسيء، ولكنها تؤثر سلباً على المجتمع كله، هذا إذا ترك المسيء يتصرف كما يحلو له دون نهيه وعقابه.

وحينما نذكر أنفسنا بأن العبادة يجب أن يتمحض عنها سلوك حميد، فإنما نعني بأهمية العبادة في إصلاح النفوس وتهذيبها حتى لا تترك نهباً للشهوات، ولا مرتعاً للشيطان يفسدها ويهدمها، بل نعمل على أن تظل مؤمنة قوية، يبتعد أصحابها عن السطحية، ويبحثون عن الجوهر، وقد بيّن لنا

الإسلام كيف نتناول الأمور ونعالجها، ونجد الحلول الناجعة لمشاكلنا وقضايانا.

وحين يهتدي الإنسان إلى الطريق الصحيح. تنتظم حياته وتنضبط تصرفاته، وعملية النظام في الحياة الإنسانية كما وضحها الإسلام شاملة، لأن المؤمن هنا يرفض العبودية البشرية، ويتجه نحو عبوديته لله وحده، فيغدو أكثر شجاعة وأمناً، لأن قوته تنبعث من إيمانه القوي، والقوة لا تتجزأ في المجتمع المسلم لأنها تتناول كل الجوانب التي تهم المؤمن في حياته وآخرته.

وفي الوقت الذي تتضح فيه طريق الهداية أمام الإنسان يدرك بعقله المستنير بمبادئ الدين وهديه الفرق الكبير بين الكفر والإيمان، الكفر وما فيه من جهالة وضلال وفساد وتعتيم على العقل حتى لا يستبين سبيل الخير من الشر، والإيمان المنبعث من القلب والعقل، القلب الذي تفتح للنور، والعقل الذي يستقبل المعرفة الحقيقية.

إن النفس التي رضيت وانطوت على هذا الإيمان فصلحت وتهذبت وقويت تصبح قادرة على فعل الخير، وتقدم باطمئنان على أعمال البرّ والإحسان، بل إن صاحبها لا يجد راحته ولا يتذوق حلاوة الطمأنينة إلا إذا استمر على

هذا الدرب دونما تقصير فيه، لأنه يعلم أن هناك صراعاً دائراً بين الخير والشر، وإذا لم ينتصر هو ـ أي المؤمن ـ للخير، فمن سينتصر له؟! ومن المسلّم به أن يجد نفسه عاملاً بصدق وإخلاص تاركاً كلّ المظاهر السطحية التي تضعف نفسه وهو يتذكر قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾[1].

فالإسلام نور الحقيقة، والعبادة منبع هذا النور، فالصلة وثيقة بين العبادة والتفكير الذي نطمح دائماً أن نصل به إلى الحقيقة.

وقد كرّم الله تعالى الإنسان، وحسّنه بهذا الشكل الآدمي وفضله على سائر المخلوقات، وعلى الإنسان ألا ينكر هذا التكريم الإلٰهي أو يتناساه، بل من واجبه أن يعتزّ به، وكيف يكون الاعتزاز إذا لم يُبْنَ على الشكر والطاعة، وهما يظهران كأوضح ما يكون في العبادة، التي تعبر عن صدق المؤمن في إيمانه، فيجعل من سلوكه وأخلاقه نتيجة موضوعية للعبادة التي يقوم بأدائها.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 257.

ونتساءل: أليس السلوك العملي الاجتماعي والإنساني المبني على الورع، والتقوى هو الأقوم؟ ولم لا يكون كذلك وهو يدل على عمق صدق المؤمن في عبادته؟ ومن هنا كانت وصية لقمان لابنه بعد أن أمره بالإيمان والعبادة، أمره موجهاً إياه إلى السلوك الحسن، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾[1].

فالعمل مع السلوك تطبيق للعبادة، ويقدر الإخلاص فيهما بقدر ما يكون التصرف حسناً ومقبولاً، واقتران العبادة بالمعاملات يشكل سمة متميزة للأخلاق في الإسلام، ويرسم الطريق بكل وضوح أمام آداب النفس بهدف رقيها.

وبالعبادة يتجدّد الإيمان في القلوب التي تزداد حصانة من وساوس الشيطان، فالصلاة طهارة دائمة للمؤمن في بدنه وثوبه ونفسه، والصوم تأديب وتربية يتواصلان ما دام نبع الإيمان من روح المؤمن متدفقاً، والزكاة إنقاذ لكرامة

---

(1) سورة لقمان، الآيتان: 18 و19.

الفقراء، وأما الحجّ فإن اللقاء بين المؤمنين عند بيت الله تعالى الحرام يوثق الصلات ويدعم أواصر الإخاء والمحبة، ومع هذه المعاني سنعيش الصفحات القادمة.

الفصل الثامن

الصَلاة.. بنَاء وسُلوك جَديد في النَّفس والحياة

تنتفي الوسائط بين الله وعباده في الصلاة، فتنطلق روح المسلم متأملة في عظمة الخالق، لأنها تخلصت مما كان يعيقها، وتفرغت للتفكر في الكون الذي بلغ الإعجاز في نظام وسيره وتعقيده، ولأن العبادة هي الصلة بين الله والإنسان ولأن التفكر والتأمل فيما خلق الله صلة بين إحساس الإنسان وبين ظواهر غاب عنها إحساسه مدة طويلة من الزمن، فإن الصلة بين العبادة والتفكير وطيدة كما فهمناها من الإسلام، وما الفائدة من العبادة إن لم ندرك منها عظمة الله وجبروته.

وأنت حينما تطلب من إنسان أن يحقق لك مطلباً صعباً أو أمنية تحلم بها، فهذا لأنك تعتقد أن لديه قدرة معينة يستطيع بها أن يلبي مطلبك، ويظل مع ذلك معرضاً لما

تتعرض إليه أنت من حياة وموت، فكيف بك إذا عرفت أن الله ليس كمثله شيء، وتحولت هذه المعرفة إلى إيمان؟ إذن من الواجب عليك أن تقوم بما يحقق إيمانك على الصعيد العملي، فتقوم بأداء العبادة، المطلوبة، والصلاة عبادة تبرز عمق الإيمان وصدق العابد، «والواقع التاريخي عن الصلاة ـ بمعنى الدعاء إلى الله أنها ظاهرة روحية تعرف في الديانات العليا، ولا تعرف في الديانات البدائية على هذا المعنى ـ وأما المجموعات البشرية التي عدّدت آلهتها فإن أفرادها على هذا الأساس ـ يجعلون صلاتهم من قبيل المساومة على تبادل المنفعة، لاعتقادهم أن أربابهم تحتاج إلى دعواتهم وقرابينهم كما يحتاجون هم إلى نعمها وعطاياها»[1].

والصلاة المفهومة في الإسلام تعمل على إحلال سلوك خلقي جديد، بدل السلوك الجامد الذي تردت به عبادة الأصنام وجعلت منه صفة تافهة، فالإنسان في نظر الإسلام يلزمه أن يتحلى بمثاليات يصقلها الإيمان وتمارس في ظل العبادة، وعن هذا التأثير يحدثنا أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «أرأيتم لو أن نهراً بباب

(1) عباس محمود العقاد، ما يقال عن الإسلام. ص550.

أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: ـ أي الجالسون من الصحابة ـ لا يبقى من درنه شيء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»[1].

والإنسان إذا جانب الخطايا، وابتعد عن الإثم فإنه يعدّ عفيف النفس كريم الطبع، يطمأن إليه عند العمل، لأنه ألزم نفسه تقواها.

وقد كرّم الله الإنسان وجمّله بحسن الخلقة وبالحواس الخاصة به، فإذا اعتز الإنسان بنفسه أظهر الطاعة والولاء لله شاكراً حامداً، وأما إذا انصرف عن العبادة والطاعة فإنه ينكر على نفسه آدميته، لأنه جعل تفكيره ووجدانه تحت تصرف شياطين الهوى واللهو، وإذا لم يعترف الإنسان بتكريم الله إياه عن طريق العبادة، ومن هنا نعلم يقيناً أن العبادة في الإسلام هي التعبير الصحيح الذي تتجلّى من خلاله نفس المسلم في صفائها وإشراقتها، هذا زيادة على أن «الصلاة والمحافظة عليها وإقامة شعائرها والاعتزاز بأدائها، زاد روحي يعين على مشقات الطريق.. والأمر بالمعروف

---

(1) أخرجه البخاري ومسلم، (عن كتاب فقه السيرة). لمحمد الغزالي. ص143.

والنهي عن المنكر برهان ساطع على صدق الإيمان الذي يغيّر واقع الأرض إلى ما يسعده ويرقيه، ولا بدّ لمن سلك طريق الإيمان أن يصبر على ما يصيبه في سبيل دعوته ومبادئه، فهذا دليل على العزيمة القوية التي لا تضعف أمام ضغط الفساد وقوة الباطل»[1].

والقوة التي تسكن نفس المسلم جاءت نتيجة تخلصها ـ أي النفس ـ من الشوائب والعراقيل التي أزالها الإيمان الصحيح، والعقيدة في الإسلام لا تعني الإيمان المختبئ في النفس، ولكن على المؤمن أن يظهر به قوياً عاملاً على إقناع الآخرين به، تطبيقاً لقول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[2].

يكون عمل المؤمن على مستوى عالم النور الذي يعيش فيه، فيتناسب تناسباً تاماً مع ما يجب أن يكون عليه من أخلاقه وسلوكه، حتى يظهر الفرق الواجب الظهور بينه وبين غيره ممن لم يدخلوا في رحاب الإيمان، ومن ثم

---

(1) د. عبد الفتاح عاشور. منهج القرآن في تربية المجتمع. ص178.
(2) سورة آل عمران، الآية: 110.

نستطيع أن نفهم جيداً وصية لقمان لابنه وهو يقدم حقيقة الإيمان متمثلة في العقيدة الراسخة ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾[1]، فإذا ما اطمأن الإنسان أنه عرف الإيمان فإن عليه أن يتذوّق حلاوته، فيكون للعبادة الدور العملي لتبرز بالإيمان مشكلة التجسيد الحيّ الصحيح لتعاليم الإسلام، فكانت وصية لقمان التالية: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾[2].

واقتران العزيمة بالصلاة برهان على أنها تهب المؤمن قوة تتجدد بأدائه العبادة واستمراره على إقامة الصلاة، والعزم قوة داخلية تندفع بها النفس متجاوزة الأهواء ومتحدية مطامع الشيطان.

إيمان وعبادة، ماذا يتبقى بعد ذلك وعلى أثره؟ أليس السلوك العملي الإنساني والاجتماعي هو الممر الطبيعي الذي ينطلق فيه المؤمن ليثبت لكل من يتعامل معه أن

---

(1) سورة لقمان، الآية: 16.

(2) سورة لقمان، الآية: 17.

الصلاة طهرت نفسه، ونظفت قلبه وجعلت منه إنساناً يحبه الجميع، لهذا جاءت الوصية بحسن السيرة والسلوك نتيجة حتمية بعد الوصيتين الأوليين، ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾[1].

فالإيمان والعمل يشكلان كما يتضح من الآيات الكريمة وحدة في العقيدة الإسلامية لا تتجزأ، وفهمنا للعمل في الإسلام على هذا الأساس عامل مهم لفهم تعاليم الدين وتعميق مفاهيمه في النفوس، والقرآن الكريم يدعونا إلى إقامة شعائر الدين بصورتها الحقيقية التي تلتصق بالصدق في العمل، حتى يعلم حقيقة الإسلام، وما أشد حاجتهم إلى أن يعرفوه على حقيقته، حتى تنزاح بعض المظاهر التي تسيء إليه، ويفهم الجميع أن الإسلام دين الدنيا كما هو دين الآخرة.

وهنا نتساءل: ما معنى أن يدعي إنسان إيماناً يجرده من واقع عملي تظهر به صحة إيمانه وقوته؟ نقول إن مثل هؤلاء الناس يسعون من حيث يدرون أو لا يدرون إلى إفساح

---

(1) سورة لقمان، الآيتان: 18 و19.

المجال أمام من يحاول أن يجرح الإسلام ويتحامل على المسلمين لأن دعاواهم أو مواقفهم تقوم على التضليل أو الضلال. وإذا رجعنا مرة أخرى نتأمل الآيات السابقة من سورة لقمان نجد العلاقة التي لا يمكن أن تنفصم عراها بين العقيدة والعمل، فالصلاة نمت على منابع الإيمان، تؤطرها الآداب المثلى التي تعززها وتحيطها بأنوار المعاني الخالدة.

واقتران العبادة بالمعاملات يشكل سمة متميزة لأخلاق الإسلام، لأنها تفرض مسؤولية على المسلم حيث يلزمه ألا يفصل السلوك عن العبادة، وإلا أتيح المجال للسلبيات أن تتفشى في المجتمع، والإسلام يدعو إلى الخير، ومن ثم فإن اقتران الصلاة مع الآداب يصل إلى المعنى الحقيقي لمفهوم الخير، «والصلاة في الأديان العليا علامة من علامات التقدم الإنساني في فهم حقائق الكون، وفهم الصفات الإلهية، ولا قوام لدين من الأديان بغير الإيمان بالصلاة على معنى الطلب والدعاء، مع الإيمان برياضتها الروحية وصلتها الوثيقة التي تربط عالم الشهادة بعالم الغيب، وتجعل وجود الإله حقيقة أعلى من حقيقة النواميس أو حقيقة الحوادث الكونية التي تهم

الإنسان في مطالب معيشته كما تهمه في مطالب ضميره»[1].

وإذا كان هذا هو من مفاهيم العبادة في الإسلام على اعتبار أنها ترتفع بالنفس البشرية إلى الغايات السامية تسكن الروح عندها ويطمئن القلب، فما بال حفنة من المستشرقين إذن يغوصون في مستنقعات الغي والضلال. يرددون عبارات أضحت عندهم وكأنها حقائق، يقولون إننا لا ننكر الدين ولكننا لا نصلي ولا نصوم، لأننا نرى من المصلين والصائمين من هم أدنى منا إتقاناً للعمل، وأقل إخلاصاً في أداء الأمانة، فإذا كان هذا هو حالهم فإننا في غنى عن هذه (المظاهر)!.

هم يجعلون من العبادة مظهراً فقط، وهذا أول مدارج الخطأ عندهم، فقد خفيت عليهم حقيقة العبادة في الإسلام أو هم قد أغمضوا عيونهم عن رؤيتها، فارتضوا لأنفسهم سخف التفكير، وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فنجح في صدهم عن سواء السبيل، في حين «أن الممارسة التعبدية في الإسلام تقوم على الوضوح والتعقل والمنطق والتدبر

---

(1) عباس العقاد. ما يقال عن الإسلام. ص55.

في خلق السموات والأرض والإنسان، وترفض أشد الرفض الدجل والخرافة والأساطير والشعوذة والطقوس الغامضة المعقدة، تلك التي تمارس في عبادات وشعائر عدد من الأديان»[1].

فالإنسان السوي يرتضي لنفسه أن تستقيم مع المنطق والعقل، والعبادة لا تتجزأ عن المنطق والعقل، ولأن المنكرين لحقيقة العبادة خالفوا التفكير المنطقي فإن العبادة ثقلت على نفوسهم، فلم يتمكنوا من إدراك معانيها ولا أن يفقهوا ما وراءها من حكمة عظيمة نلمسها في قول الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ * ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[2].

يتبين أن من ينكرون ما في الصلاة من تهذيب وتقويم للنفوس قد تلاشت أوهامهم التي اتخذوها حججاً لهم، وخسرت قلوبهم أنوار الإيمان، فغشيتهم ظلمة اليأس من أنفسهم، وافتقدوا إلى المقاييس السليمة التي يعتمدون عليها، وأما ما اتخذوه من تصرفات القليل ممن يقيمون

---

(1) د. عماد الدين خليل. مع القرآن في عالمه الرحيب. ص129.

(2) سورة البقرة، الآيتان: 45 و46.

شعائر الدين وما يظهر عليهم من سلبية، فهؤلاء لا يقوم عليهم قياس لأنهم لا يمثلون عامة المؤمنين، ولم تتشرب نفوسهم روح العبادة التي يؤدونها، ومتى أصبحت القلة النادرة منطلقاً للحكم على الكثرة الغالبة، وكان أولى بمن يقيمون مثل هذه الأحاجي الواهية أن يقرنوا العبادة بأعمالهم الدنيوية التي يجيدونها فيصبحوا هم مثلاً وقدوة لغيرهم، ولعل منهم من يهتدي. ولكن الذي يظل على موقفه إنما يحاول تشويه معالم الدين، وهو يشكل خطورة على الإسلام، وقد كشف الله تعالى هؤلاء الناس في القرآن الكريم حيث يقول: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[1].

ولأن الإسلام دين العقل والمنطق فإن مهاترات الخارجين عليه لن تفلح في النيل منه، والعقول التي بعدت عن الصواب لا تستطيع أن تتماشى مع منطق التفكير، ولأن

---

(1) سورة البقرة، الآيات: 205 ـ 206.

الإسلام يجعل من العبادة مدخلاً إلى المسلك الحسن فإنه يبعد بها عمن يريدون تجريدها من القيم الإنسانية، «فالدين الإسلامي دين لا يعرف الكهانة ولا يتوسط فيه السدنة والأحبار بين المخلوق والخالق، ولا يفرض على الإنسان قرباناً يسعى به إلى المحراب بشفاعة من ولي متسلط أو صاحب قداسة مطاعة. . ، وهكذا يكون الدين الذي تصل العبادة فيه بين الإنسان وربه بغير واسطة ولا محاباة، ويحاسب فيه الإنسان بعمله كما يهديه إليه عقله، ويطلب فيه من العقل أن يبلغ وسعه من الحكمة والرشاد»(1).

الدين واضح في كل شيء من شأنه أن يربط الإنسان بخالقه ويصله بيوم القيامة، مروراً بتهذيبه في الحياة وتعليمه كيفية الوصول إلى أمثل الطرق لبناء نفسه، وتتبين معالم الدين عبر مبادئه الخلاقة التي تبني الإنسان وتقيم المجتمع على أقوى الأسس، وكذلك من خلال تناوله للأمور كلها، ومعالجته إياها بكل صراحة ووضوح، وأن منزلة العبادة فيه فهي منزلة عظيمة، وعندما شرعت العبادة في الإسلام كان التلازم بينها وبين البناء الأخلاقي والنفسي قوياً، واهتمام

---

(1) عباس محمود العقاد. التفكير فريضة إسلامية. ص296.

الإسلام بالسلوك الإنساني نابع من العبادة دليل على أنها ليست وقفاً على اللحظات التي تؤدي فيها فقط، بل إن تأثيرها يمتد بعد أدائها متصلاً مع استمرار الإنسان على العبادة، «فالصلاة كما يجب أن تفهم ليست مجرد ترديد آلي للطقوس، ولكنها ارتفاع لا يدركه العقل، إنها استغراق الشعور في تأمل يخترق عالمنا ويسمو عليه»[1]. ذلك لأن غاية ما يبتغيه المسلم هو أن يصلح ما بينه وبين الله تعالى ويعمل على إصلاح ما بينه وبين أخيه الإنسان.

وإذا كنا نرى في حياة الناس عامة من يتعالى منهم على غيره، اعتزازاً بطبقة أو بما أوتي في الحياة من متاعها، فأخذته الغطرسة واستولى عليه الكبرياء، فإن الصلاة تمحو هذه الرواسب من النفوس، تمحو المفارقات والنزعات عند اجتماع المصلين، فتمحى من حياتهم بعد ذلك، ولأن الإسلام ينكر أن يتمايز الناس بمظهر من مظاهر الدنيا، فإن الصلاة جاءت تنهى عن هذا المنكر، «لأنها تغرس في النفس روح الجماعة بحيث لا يعيش الإنسان لذاته وحدها ولا يحب الخير إلا لنفسه، بل عليه أن يستشعر روح

(1) د. الكسيس كاريل. الإنسان ذلك المجهول. ص179.

الجماعة، وأن يحسّ بما يحسّون وأن يشاركهم حلو الحياة ومرّها»[1].

فماذا يتبقى إذن لمن يحاول أن ينكر فضل الصلاة وتأثيرها الإيجابي على الحياة الإنسانية؟! ولماذا يرتضي الإنسان أن يخبئ في نفسه نور المعرفة فيعجز عن إدراكها، ويخالف فطرة الله التي فطر الناس عليها، فالإسلام ليس دين فرد أو جماعة ولكنه دين الناس كافة لأنه يلبي كل ما يطمحون إليه في دنياهم وآخرتهم.

والممارسة العملية للعبادة في الإسلام تظهر حقائقه التي جاءت لترفع من قدر الإنسان، «ففي الصلاة نرى أن كل مقومات الإنسان وطاقاته العقلية والجسدية والروحية تعمل منسجمة متوازية. .، وتشحذ العبادة الإسلامية قدرة أتباعها على التحرر اليقظ الدائم من الخضوع لأية قوة في الأرض»[2].

يتم التناسق بين المحافظة على الإنسان ومطالبه التي ترقى بحياته، فيجد ما يرنو إليه من طمأنينة في نفسه،

---

(1) د. محمد ظفر خان. الإسلام والإنسان المعاصر. ص112.

(2) د. عماد الدين خليل. مع القرآن في عالمه الرحيب. ص132.

وتنحل منها العقد التي تكبح طموحاته في صورة مأمونة تسلم معها شخصية الفرد من الانحلال أو الانتكاس، ومتى كان الإسلام لا يرعى الطبيعة البشرية ويكلفها بأكثر مما تستطيع؟ إن الذي لا يستطيع أن يقوم بالقليل بالطبع، لا يستطيع أن يقوم بالكثير، والأمثلة كثيرة متعددة على القصد والاعتدال ومراعاة الطاقة البشرية في الإسلام، وليس هذا فقط، بل إن الدين يريد من أتباعه أن يخرجوا من حدودهم الضيقة إلى عالم النور والتأمل والتفكير الرحب الذي يمنح النفس مزيداً من طاقاتها الحيوية على الإبداع، ومن بين أبرز الوسائل العملية التي وضعها أمام الإنسان العبادة، «وهذا الإحساس العميق بحرية الإنسان في تعميق ممارساته التعبدية يعمق في ذهنه وتصوره أحد مفاهيم الإسلام القائمة على حرية الإنسان في صياغة وجوده والتوحد بينه وبين مصيره»[1].

إن وقفة من الإنسان أمام نفسه مكاشفاً ومحاسباً مطلوبة حتى يتسنى له التقييم والتقويم بعد ذلك، فيرى ما إذا كان محقّاً في سلوكه أم عليه أن يغيره أو يغير منه على أقلّ تقدير، ويرى درجة تمسكه بالدين وهل هو على

---

(1) المرجع السابق. ص133.

المستوى الذي يجعل منه مكان اعتزاز وعزّة؟. وينظر بالعين الناقدة النافذة إلى جواهر الأمور إلى من لم يفهموا من الصلاة في الإسلام إلا الحركة والأداء فقط، دون أن يتفهموا معانيها العظيمة، أو من يحاولون بها النفاق والمخادعة، ليعلم هؤلاء أن الله تعالى كشفهم في القرآن الكريم حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا * مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾[1].

إذن أليس من الخير أن يتبع الإنسان سبيل الرشاد، وأن يتبع الحق حيث وجده، ولن يجد بين نفسه وما تكلف به مانعاً أو ثقلاً، بل ستنعم نفسه بالاستجابة وتطمئن بالطاعة.

---

(1) سورة النساء، الآية: 142.

الفصل التاسع

الزكَاة... وَالبناء الاجتماعي في الإسلام

من شأن الديانات السماوية التي جعلها الله شرائع للبشر على مر العصور أن تعيد تنظيم الحياة البشرية، التي تتعرض من فترة لأخرى إلى الاضطراب والفوضى، فتبين الشريعة الإلهية المنهاج الذي يسير عليه الإنسان، حتى يتمكن من التغلب على مصاعب الحياة، ويعدّ نفسه ليكون عبداً مطيعاً لله، ويتخلص من تبعية النفس الأمارة بالسوء، ويتحرر من قيود الهوى، ويهيئ نفسه نحو الإعداد للدار الآخرة.

ومن هذا المنظور العام للدين نستطيع أن نفهم الإسلام بعد البعثة المحمدية والذي يهدف إلى إنقاذ الحياة الإنسانية من مهاوي الفساد والرذيلة، وما لحق الإنسان من قهر وظلم، وقد عرف تاريخياً أن الاستعباد والطغيان تفشيا بين

الناس، ولأن الإسلام يحمل القوة المناهضة لأشكال الظلم والفساد فإنه يقدم مفهوماً إنسانياً يتكامل مع الموقف الحضاري الذي استوت عليه تعاليمه ومبادئه، يعلم الناس الفضيلة، ويقدم الصورة البناءة لحياة يسودها الرخاء والأمن، وينتشر بين جوانبها السلام والعدل، وتنسلخ من بين جنباتها كل أشكال العسف والاضطهاد، فتظهر بحق القيم الحضارية المشرفة على سلوك المسلم وتصرفاته حين يمضي بعقيدته يدعو إلى الإيمان المطلق بالله ناشراً للإسلام.

ينطلق المسلم من واقع إيمانه الراسخ إلى التطبيق العملي المنبعث من حيوية القلب الذي استقى من ينابيع العبادة والعمل الصالح مثبتاً بذلك عن جدارة أنه حقيق بالإسلام، فيظهر للعالم أنه قوي بالدين، وأن الدين به ينتصر، يدفع من حوله الشبهات ودعاوى من يتقولون على الإسلام، فينفي عنه ما يحاول المرجفون إلصاقه به من الضعف والعجز.

وحينما ينطلق المسلم إلى ميدان العمل الخلاق فإنه يفرض على الآخرين احترامه وهيبته، ويقدم له الأمثلة النموذجية في الحضارة الإنسانية، لأن الإسلام في واقعه

دين عمل حضاري ينشد إلى تقدم البشرية ورقيها، ولكي تترسخ قيمة العمل عند المسلمين فقد جاء الأمر به واضحاً في القرآن الكريم: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

ويشعر المسلم بإنسانيته الحقيقية في ميدان العمل من خلال حركته الإيجابية على صفحة الحياة، وهو عند الله صالح موعود بالجنة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾[2]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[3].

وحين شرعت الزكاة في الإسلام، فذلك لأن الحاجة كانت ماسة إلى هذا التشريع، وهي عمل ينضم إلى ما يجب أن يقوم به المسلم، ولولا تشريع الزكاة لظل فقراء الناس ومحتاجوهم نهباً لفرائس الجوع، وضحايا للحرمان، ولوجد الشيطان وأدعياء السوء طرائقهم إلى البائسين يثيرون بينهم دواعي الفتنة، ويوقعونهم في شراكها، ويقدمون إليهم مفاتيح العصيان، ويفسحون لهم

---

(1) سورة التوبة، الآية: 105.

(2) سورة البقرة، الآية: 82.

(3) سورة البقرة، الآية: 227.

ميادين الجريمة يقترفون من الجرائم ما تسوء به حالة الأمة وتضطرب حياتها.

إنها لحكمة بالغة تنبجس من هذا التشريع تهدف إلى إنقاذ أصحاب الحاجة من غوائل الفقر، ثم تمنحهم حقهم الطبيعي المتمثل في إحساسهم بوجودهم الفعلي في حياة كريمة، وبهذا يكون الإسلام «قد جاء بالوسيلة التي لا غنى عنها في مكافحة الفقر وحلّ مشكلته وإنما فرض الزكاة لمن أصابتهم تلك الضرورات وأقعدتهم عن السعي واستنفدوا ـ مع المجتمع ـ كل حيلة في تدبير العمل المستطاع، ومن لم يكن منهم مستطيعاً العمل بتدبير من الإمام أو بتدبير من نفسه، فهو مكفول الرزق بما تجبيه الدولة من حصة الزكاة حقاً معلوماً يتقاضونه من الإمام ولا هوادة فيه»[1].

وأما مقدار الزكاة فهو أقل حدّ يمكن أن يفرض على القادرين الملزمين بدفعها، وفي هذا الموقف الإسلامي نظرة إنسانية بعيدة الهدف يجب أن يتمعن فيها المسلم ليرى مقدار رحمة الله بعباده وتيسيره عليهم، وحتى يعلم

---

(1) عباس العقاد. حقائق الإسلام. ص200.

من ثم كل إنسان أن الإسلام دين اليسر والرحمة، ولن يجد إنسان فيه ما يثقل عليه أو يجهده، ومع ذلك فإننا نجد أن بعض المفروض عليهم أداء الزكاة لا يؤدون هذه العبادة على وجهها الصحيح أو مرة واحدة ينقطعون عنها، ونجد من الموسرين الذين أنعم الله عليهم من يكنزون أموالهم ولا ينفقونها في سبيل الله، فماذا سيحدث لو أن مقدار الزكاة كان أضعاف ما نعلم؟ ولكن لأن رحمة الله تعالى واسعة كان المقدار البسيط الذي نعلمه، انظر معنا إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ * إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ * هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾[1].

فالله سبحانه يعلم دخائل النفوس وخفايا القلوب، وقد وسعتنا رحمته ولأنه يعلم ما سيحدث لو كان المفروض أكثر مما شرع لعاندت النفوس، فشرع المقدار

(1) سورة محمد، الآيات: 36 ـ 38.

الذي نعرفه، ولأجل ذلك جاء التحذير الشديد متلازماً مع الأمر بالتنفيذ الذي يجب أن يقوم به المسلمون المعنيون، وحتى يعلم الجميع أن الرزق إنما هو من عند الله، وأن المال هو مال الله، ولكنه وضع في أيدي الناس ابتلاء وامتحاناً ومن يتأخر عن التنفيذ تقصيراً، وخوفاً من أن يصبح فقيراً إذا صور له تفكيره السقيم هذا الوهم، ونسي أن الذي رزقه هذه النعمة ووسع عليه في الرزق قادر أن يمنعه منه، أو لو أنه أعطى القليل عليه أن يتصور أن ما يعطيه إنما هو فضل منه.

إن معنى الزكاة في الإسلام ينصب حول تطهير النفوس وتثمير الأموال، «فالزكاة ليست تسوّلاً، إنما ضرب من العدالة الداخلية، أعطيت صيغة المؤسسة وهي إلزامية تجعل تضامن المؤمنين فعالاً، أعني أولئك الذين يعرفون التغلب في أنفسهم على الأنانية وعلى البخل، والزكاة هي التذكير الدائم بأن كل المال لله شأنه شأن كل شيء وأن الفرد لا يمكنه أن يتصرف فيه على هواه وأن كل إنسان هو عضو من جماعة»[1]، وأن هذه الجماعة ككل من حقها أن تتمتع بمقدرات المجتمع من غير ظلم ولا تهاون، فلا

---

(1) روجيه غارودي، وعود الإسلام. ص35.

تنسحب على أفرادها أوهام أن الصدقة تسبب الفقر، ويفترض في المسلم أن يؤمن بأن ما يقدمه للفقراء وأصحاب الحاجة من زكاة أو صدقة إنما هو بركة لأمواله وتثمير لها، ولم لا؟ والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾[1].

وفهمنا للإسلام يدعونا أن نقف ملياً أمام توجهه الحضاري الذي يقدمه للإنسانية قاطبة، والذي يقوم على نشر منابع الحياة الثرّة في كلا الجانبين من الناس، سواء منهم الذين يبذلون أموالهم أم المدفوعة إليهم ممن يستحقونها.

فالذين ينفقون أموالهم في سبيل الله يزيدهم إيماناً ويقيناً بأن ما يخرجونه وهم مغمضون فيه إنما هو ذخيرة لهم في الدنيا والآخرة، وأما المستحقون ممن سلبتهم الحياة نعيم العيش ورغد الأيام، فإنهم يجدون عن طريق الدين من يمدّ إليهم يد العون، فتستقيم حياتهم المادية، وتتقوى نفوسهم على خوض غمار الحياة، وترجع إليهم ثقتهم بأنفسهم وبالناس، ومن ثم يزداد اندفاعهم نحو المساهمة الإيجابية

---

(1) سورة البقرة، الآية: 261.

لخدمة المجتمع الذي أنصفهم، وبذلك حتى يعلم الجميع أن «الزكاة في فرائض الإسلام هي المذكر للمسلم بحصة الجماعة من ماله الذي يكسبه بكده وكدحه، وهي المذكر له بأن يعمل لغيره، ولا يعمل لنفسه وكفى، وهي الامتحان له فيما تهوى الأنفس من المال والمتاع»[1].

ونظرة الإسلام إلى الحياة والإنسان غاية في العدالة لأنها تقوم على الاعتدال في كل شيء، وازن بين الروح ومطالب الجسد، وبين شوق النفس ونزعات الغريزة، ويوجد لها النظام الذي يكفل الحياة الآمنة للإنسان في إطار المجتمع. ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[2]؛ ولهذا فلا يستطيع أي إنسان أن ينكر فضل العقيدة في حياته حيث استهدفت أن تساعده في حلّ قضاياه صغيرها وكبيرها، كما جاء الدين ليفتح مجال النشاط الإنساني الذي يقوم على السلوك الاجتماعي والعلاقات الاقتصادية المنظمة، وذلك على اعتبار أن الفرد كالجماعة في حاجة ملحة إلى تنظيم حياته دون الاقتصار على حقل دون آخر فيها.

---

(1) عباس العقاد. حقائق الإسلام وأباطيل خصومه. ص112.

(2) سورة البقرة، الآية: 143.

والإسلام بهذا الاتجاه الحيوي المنظم يركز على الاهتمام ببناء النفس الإنسانية والبعد بها عن كل ما يمكن أن يجرح كرامتها أو يحط من قدرها، وهنا يعجبني قول أحد العلماء في كتاب له: «وما يحسن اليوم أن يكثر الحديث في الزكاة والصوم وعن الفقراء والبرّ بهم وإدخال السرور على أنفسهم، وصونهم عن الاستجداء يوم العيد، لأن ما يؤدي لهم إنما هو حقّ، وحق معلوم بتعبير القرآن والجهد مبذول في أداء حقوقهم لا في إغنائهم عن التسول يوماً وبعض يوم فقط»[1].

لم يقصد الكاتب أن ينفي العاطفة الإنسانية في أداء الشركات، ولكن يحبذ ألا تنحصر فكرتها في قضية جزئية حتى لا تفرغ هذه العبادة من معانيها السامية، وحتى تظل القيم الإنسانية سائدة في ظلال الإسلام، ولهذا جاء الأمر تكليفاً على دفع الزكاة.

ولم يتوقف أمر الزكاة عند دفع الحدّ المطلوب في الإسلام، فوجد المحبون للبذل والعطاء تشجيعاً على المزيد من الإنفاق مساهمة في إكمال البناء الاجتماعي

(1) أمين الخولي. المجددون في الإسلام. ص56.

وسداً لكل ثغرة يمكن أن تسيء أو تشوه هذا البناء، ولنقرأ الآيات التالية بتمعن لنرى المنزلة الرفيعة التي يصل إليها المنفقون في سبيل الله. يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[1].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[2]. ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[3].. ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[4].

وكثيرة غيرها من الآيات التي تحضّ على الإنفاق، انطلاقاً من إيمان المسلم بأن الملك كله لله، واقتناعاً منه بأن ما يقدمه من خير يساهم في التكافل الاجتماعي، وظهور المسلمين بالصورة المتماسكة بحيث لا يكون بينهم

---

(1) سورة سبأ، الآية: 39.

(2) سورة فاطر، الآيتان: 29 و30.

(3) سورة الحديد، الآية: 7.

(4) سورة الأنفال، الآية: 60.

محتاج تذله الفاقة، ولا تلجئه إلى اقتراف الإثم والمعصية، «وما اعتداء الأقوياء على الضعفاء إلا من أجل المال وجمعه، والاستئثار به، ويوم أن ترتفع المجتمعات بحسها فلا تكون مستعبدة للمال فتجعله وسيلة لا غاية، وسيلة لتحقيق السعادة للمحرومين والبائسين في أنحاء الأرض فإن السلام الذي تبحث عنه سوف تجده بين يديها»[1].

ودعوة الإسلام إلى الزكاة وجعلها فرضاً وسيلة من الوسائل العملية لتطهير المجتمع والارتقاع به نحو الآفاق الإنسانية، حيث تتكامل السمات الحضارية لأفراده، عندما تهون عليهم أموالهم في سبيل بناء الحياة الجماعية، وهذا يعتبر تنظيماً علمياً واقعياً لشؤون المجتمع في إطار العقيدة، وإذا كانت الحضارة في مفهومها العقلي تقوم على أسس علمية، فإن عبادة الزكاة التي تعتبر ركيزة حضارية في معناها وهدفها جاءت لتمثّل معلماً حضارياً بارزاً في مسيرتنا التاريخية، وذلك لأن الإسلام دين جاء ليحقق العدالة في الأرض، ويحمي الضعفاء والمساكين ويحرر القلوب من الغلّ والأحقاد، فكانت الزكاة من الأسس الهامة التي أقيمت العدالة على صرحها.

---

(1) د. عبد الفتاح عاشور. منهج القرآن في تربية المجتمع. ص223.

وعندما نقول إن الزكاة بنيت على أساس علمي فذلك لكونها قد تطابقت والتفكير العقلي المنطقي، وهي أول ضريبة شرعت في حياة الناس تسير على نظام وقاعدة مضبوطتين، وهي في الوقت نفسه عظيمة النفع واضحة الهدف، لم تشرع لمنفعة خاصة، ولم يكن الهدف منها طلب وجه معين من وجوه الحياة، وإنما جعلت لكفالة المحتاجين الذين لم يجدوا فرص الرزق لإشباع حاجاتهم، ليقوم هؤلاء بدورهم في تقديم ما يطلبه منهم المجتمع في حدود استطاعتهم.

وتنطوي هذه المسألة هنا على جانب كبير من الخلق الإنساني والاجتماعي، فالمرء حينما يتنازل عن جزء مما يمتلك طواعية، فإن تصرفه هذا يعتبر مسلكاً خلقياً كريماً، مع احتمال أنه يبتغي شهرة أو سمعة ـ على وجه العموم، أما في الإسلام فإن التأكيد على هذا الخلق جاء حاسماً، ولكنه جرده من إطاره المحدود ومن ركنه الشخصي، حيث يقوم المسلم بالإنفاق غير خاضع لقوة دنيوية أو طالب لوجاهة زائلة، لأنه يترفع بنفسه أن تنظر إلى مطلب من قشور الحياة، ويربأ بها أن تفكر في إيذاء من تدفع له الزكاة وذلك لأنه استجاب لله سبحانه متدبراً ما يقرأ في القرآن

الكريم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾[1]، ولماذا هو يخرج من حلال رزقه، يضيع أجره، بكلمة فارغة أو تصرف سخيف، فكان تلازم التربية مع العبادة من الأمور الهامة التي اعتنى بها الدين، وهكذا يسير الدين أشواطاً بعيدة في تخليص النفوس من نزعاتها، وفي إلزام المسلم بالتعامل الخلقي، وجعل منه رقيباً يقف بالمرصاد لنزعات الهوى.

إن الإسلام بكل هذا التوجه الحضاري يحافظ على البيئة الإنسانية، حتى تظل النفوس محتفظة باطمئنانها وسلامتها، وعلى المسلم أن يقدر مبادئ دينه ويعمل على نشرها لأنه مدعوّ إلى المشاركة في البناء الحضاري للإنسانية كلها.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 264.

الفصل العاشر

الصيام.. تربية للضمير الإنساني

إن القلوب العامرة بالإيمان تظل منابع للخير، ومصادر للنفع، ومع ذلك فإنها تبقى في حاجة مستمرة إلى دفقات إيمانية متجددة، وليس لمؤمن أن يقول إنه وصل إلى المستوى الذي لم يعد معه بحاجة إلى من يذكره بالحقّ، ويدله على الخير ويدفعه إلى فعله، ومن هذا الموقف العقدي في الإسلام نتبين الحكمة العظيمة في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[1]، ففي الآية يتضح الدليل على الحاجة الملحة إلى التذكير بالتقوى والرفع إلى صالح الأعمال، ولهذا كان قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ

(1) سورة الأحزاب، الآيتان: 70 و71.

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، مبرهناً على أن القلوب المؤمنة أحرص على التنفيذ والتطبيق، ذلك لأن قلب المؤمن يتسع لجميع معاني الخير وقيم الحقّ.

وإذا كان الأمر كذلك مع المؤمن، فكيف بمن لم يدخل الإيمان قلبه بعد؟! فهذا بطبيعة الحال محتاج إلى الدعوة ليسير في طريق الإيمان، ثم نغذيه بتعاليم الإسلام حتى تتمتع نفسه بالطمأنينة وتسكن إلى برد اليقين، فينضم إلى جماعة المؤمنين فيصبح محتاجاً إلى الذكرى بعد الإيمان.

والعبادة خير مذكر للمؤمن لأنها تصله بالله سبحانه وتعالى، وتحصنه من وساوس الشيطان، فتجعل عمله خالصاً لله، لهذا كان الصدق في العبادة لا يتأكد إلا بمصداقية العمل الذي يخلفها.

والصيام ركن من أركان الإسلام وهو عبادة تهدي إلى العمل الصالح، وسنتعرف على الأهداف التي يرمي إليها الصيام، والصيام المفروض والواجب، المندوب، والذي يهمنا من خلال طرحنا للعبادة في الإسلام هو ما تحمله من

---

(1) سورة الذاريات، الآية: 55.

قيم تهذب النفوس وتصلحها، أما الناحية الفقهية فلن نتعرض لها إلا بما يلزم للإيضاح العام للفكرة التي نكون بصددها. وسوف ينصب الحديث بالدرجة الأولى على صوم رمضان.

أصبح من المعمول به في القوانين المدنية أن يمنح العاملون والموظفون إجازات سنوية، يريحون فيها أعصابهم، وتتاح بها الفرصة لأجسادهم أن تحظى بقسط من الراحة بعد إرهاق وتعب طويلين، يعودون بعدها إلى أعمالهم، وقد تجدد نشاطهم واستعادوا حيويتهم. هذا الأمر يحدث مع الناس في الحياة العامة، فهل إذا منحت المعدة إجازة سنوية، تنظيماً وليس امتناعاً تاماً عن الطعام، أيكون في ذلك ضرر على الإنسان، أم سيعود عليه بالنفع والخير؟.

يجيبنا المختصون بعلوم الطب فيقولون إن تنظيم عمل المعدة من الأمور التي تهب الإنسان مزيداً من الصحة وقوة الجسم.

وعندما نقول بكل ثقة: إن الإسلام دين النظام، فإن نظام الإسلام لا ينطبق على جانب دون آخر ولا يهتم بناحية ويهمل أخرى، فالشريعة الإسلامية جاءت لكي تنظم

بتعاليمها ومبادئها كل ما يتعلق بالحياة الإنسانية، والصيام جزء من الشريعة، فهو إذن مما يعمل على إكمال التنظيم.

يتعلّم المسلم من دينه ما يصلح أمره، فيتعود بالصيام نظاماً مريحاً يحفظ توازنه الصحي والنفسي، كما يوفر له متّسعاً من الوقت يكيف فيه نشاطه، فالإسلام لا يعرف الفوضى التي تخلخل بنية المجتمع بل يعمل على محاربتها لينفي الاضطراب الذي يذهب بالأمن والطمأنينة، فيتعلم المسلم من عبادته لله كل أسس الأخذ بلباب الأمور، وذلك على أساس أن الإسلام يتجاوز بالمسلم الهوامش والقشور لينفذ به نحو البحث عن الجوهر، ومن ثم كانت الدعوة الإلهية للعبادة من مفاتيح هذا البحث.

ومن شأن صيام رمضان أن يقوم بعملية الضبط النفسي والأخلاقي، فمن تلبية لأمر لا يجوز التفريط فيه، إلى سعي حثيث في طريق الخير على امتداد شهر كامل،يفترض أن يمتد تأثيره متجدداً دون انقطاع، يتذكر المسلم في غير هذا الشهر أنه سار على منهاج صحيح فعليه ألا يضيع ثمرات عمله الصالح، هذه المعاودة والمحاسبة النفسية المستمرة تكشف عن أهمية البناء الخلقي في الإسلام، وحيث لا يكون الوازع في اداء العبادة إلا الضمير، لأن باستطاعة أي

إنسان أن يتوارى عن عيون الناس، فيتناول ما شاء من طعام وشراب، ثم يظهر عليهم بمظهر التقي الورع المتحمل لعبء الصوم وجهد الصبر، فهذا الذي نافق نفسه وخدع الناس في أمر يتعلق به، ليس بمقدوره القيام بعمل نافع يطمئن إليه، لأن الذي خان ضميره وخادع نفسه، وانتصر لهواه من السهل أن يكون ألعوبة في يد الشيطان.

ومن هنا تظهر أهمية الدور الخلقي الذي تقوم به العبادة في نفوس المؤمنين وتؤثر في حياتهم الخاصة والعامة، فلا انفصال في الإسلام بين الفرد والمجتمع، وحين شرع الله سبحانه وتعالى العبادة، فإنما شرعها لتكون الرابطة بين العبد وربه موصولة بالإيمان والتقوى، وبين العبد والعبد بالبر والعمل الصالح، لهذا فإن العبادة حينما تترك أثرها الإيجابي الذي يفترض على المسلم أن يعبد الله حقّ العبادة حتى يجني ذلك الأثر. فإنه يتسنى له التغلب على نفسه، يراقبها ويحسن مراقبتها، ويمنعها من تبعية الشيطان، فيغدو مسلماً جديراً أن يعتمد عليه في القيام بالواجبات الاجتماعية والإنسانية التي تتطلب روحاً عملية متنامية لدى الأفراد، فتتشكل الروح الجماعية التي تحفزها القيم والمبادئ السامية نحو تقديم الأفضل ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ

وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

ولا شك أن المؤمن ينظر دوماً إلى تحقيق أقصى ما يمكنه تقديمه، ولأنه ضبط نفسه وسيرها في رحاب الإيمان، وشغلها بالصيام أن تتردى في مهاوي الضلال فهو حري أن يبلغ ما يتمنى، ولهذا «فإن الحكمة الكبرى من الصيام هي القدرة على النفس، فهي الحكمة التي يحتاج إليها الغني والفقير، ويستفيد منها المجدود والمحروم، فالقدرة على النفس هي كل شيء في مقاييس الأخلاق والفضائل، بل هي مناط الأخلاق والفضائل جميعاً في كل حالة وكل معيشة، أيّاً كان حظها من الغنى والفقر. ومن السعادة والشقاء»[2].

ففي رمضان يعود الكثيرون إلى رشدهم بعد عصيان وانحراف، يشعرون أنهم قصروا في حق دينهم وأمتهم، وأنهم ظلموا أنفسهم، ومع أن بعضهم ينصرف إلى سيرته الأولى تعزّ على الفرد منهم حياة اللهو والعبث فتصعب

---

(1) سورة التوبة، الآية: 71.

(2) عباس العقاد. الإسلام دعوة عالية. ص65.

عليه مفارقتها، إلا أن منهم من يستمر على طريق التوبة الصادقة، فتصلح نفسه ويستقيم أمره، وعلينا ألا ننسى أن هؤلاء الذين كان الصوم بالنسبة إليهم باب التوبة، أنهم في حاجة إلى مزيد من التشجيع، ودفعهم نحو أبواب الطاعة، فلا نتركهم دون أن نأخذ بأيديهم، ولا نذكرهم ـ باستفزاز ـ بما كان منهم في الأيام الخالية، حتى لا ينحازوا إلى العناد، وخوف أن يرجعوا إلى ما كانوا عليه، وهكذا فإننا نجد أن الإسلام يهذّب النفوس حتى تنضوي تحت إطار الودّ والرحمة.

ويعتبر الصيام ميدان معركة بين المؤمن والشيطان، يحاول الشيطان بخبثه ومكره أن يصرف المؤمنين عن أداء العبادة، ويزين طريق الغواية بكل إمكاناته، فلن يرضيه أن يرى الناس وقد أقبلوا على الدين يطبقونه فيما بينهم، ومن هنا جاء التحذير القرآني شديداً في موقفه من الشيطان، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[1].

ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

---

(1) سورة فاطر، الآية: 6.

(2) سورة آل عمران، الآية: 175.

والآيات التي تحذر من الشيطان كثيرة وكلها تتوجه إلى تخليص الإنسان من كيد الشيطان أو الوقوع في أحابيله، والمؤمن يبتغي بعمله وجه الله فتنجلي قوته الروحية التي تعززت بها نفسه، وبالصيام الذي هو محك عملي للإيمان يتمكن المؤمن من التصدي لكيد الشيطان لأن كيده ضعيف أمام المجابهة القوية، ولأن المؤمن يعلم أن الشيطان سيتبرأ ممن يوقعهم في شراكه، فإن حذره منه يكون شديداً وحربه إياه تكون قوية.

ولقد أثبت المسلمون أن قوتهم في رمضان أشد وأمضى منها في غيره، فكان الانتصار المشهود في رمضان، يوم أن نصر الله عباده المؤمنين في بدر، وهي ذكرى ملأى بالدلائل على الصبر والإيمان، وبذلك تنتفي حجج القائلين بمبررات الكسل والضعف في شهر الصوم، ويكفي المسلم شعوره أن الملايين يشاركونه الصوم، يضبطهم نظام واحد، عقيدة وزمناً، فتتوحد القلوب وتتوثق الصلات وتقوى الروابط، وهذا الموقف العملي يعطي معنى رائعاً للوحدة في الإسلام، تعود الألفة والمودة بين من باعدت بينهم هوامش دنيوية، كما أن نوازع الدنيا لا تجد مكانها في قلوب المؤمنين، فيكون الصوم بذلك من

العوامل التي تنقي القلوب وتكبح الشهوات، «فالصوم هو إيقاف طوعي للإيقاع الحياتي، وتوكيد حرية الإنسان بالنسبة «للأنا» ولرغباتها، وفي نفس الوقت هو التذكير بوجود من هو جائع فينا، كما لو كان تذكيراً بذات أخرى يجب المساهمة بانتزاعها من البؤس والموت»[1].

ويشعر المسلم في هذه الرحلة العظيمة في متعتها وصفائها بمعاني القوة ويعلم حقيقة العبادة بأثرها البالغ إيجاباً على النفس والجسم معاً.

وهنا نسائل أنفسنا حول من يتقبلون بل يقبلون الصوم راضين، يهدفون به إلى تخفيف الوزن ويبغون طلب الرشاقة، ثم نراهم ينكرون الصوم لله. فما المنطق الذي اعتمدوا عليه يا ترى في موقفهم هذا؟! ألا يحقق الصوم لله ما يهدفون إليه هم أصلاً؟ وهل نفوسهم لم تعد بحاجة إلى طمأنينة متزايدة؟! وهل أدركوا ما بعد الموت فأمنوا على أنفسهم ذلك اليوم العظيم؟! ألم يأنِ لهم بعد أن يعلموا بأن جمعهم للفائدتين أحسن لهم وأقوم، إن الذي يعدّ نفسه إعداداً يجنبها مزالق العصيان «يجد في الصوم استعلاء على

---

(1) روجيه غارووي. وعود الإسلام. ص35.

مطالب الجسد، ومقتضى ذلك أن يكون في إرادته شعور بالمقاومة المستمرة لكل إحساس بالضعف ولكل رغبة في الممنوع المحرم، ولهذا كانت نتيجة الصيام تحقيق التقوى التي تسلك بصاحبها طريق الخير والرشاد»[1].

إن صيام رمضان رحلة مع النفس البشرية حافلة بالمعاني القيمة، وحاملة أهدافاً يتوخّى الإسلام تحقيقها، يقف المسلم مع نفسه وجهاً لوجه أياماً متواصلة تكفي للمكاشفة والحساب، وكفيلة بالتقدير والتعديل، ويحسّ مع هذه المعاودة أن جوانب في بنيته الروحية كانت ناقصة فتكاملت، لأنه تذكر ما كان منه في الأيام الخالية. فكان حرصه على عبادته وما فيها من آداب وفضائل كالإكثار من قراءة القرآن، والقيام بصلاة التراويح يؤديها كل ليلة من ليالي الشهر الكريم، والتصدق على الفقراء والمساكين، كفيلاً بتحقيق الأهداف المنشودة من هذه العبادة، ومن شأنها أن تحدث تكثيفاً وتوازناً في حياته العملية والروحية، «فقد فرض علينا الصيام في شهر رمضان المبارك تراحماً ومجاهدة، ورياضة موسمية تتزن بها شخصيتنا بين المادية

(1) د. محمد ظفر خان. الإسلام والإنسان المعاصر. ص133.

والروحية، فلا تذلنا حاجة ولا تستعبدنا شهوة، ويهون علينا عند الضرورة الصبر على الجوع والعطش والحرمان، ولا يهون علينا التفريط في تكاليف العقيدة والصبر على ضيم وبغي منكر»[1].

والدين الإسلامي على هذا النحو في منهجه مواقف ومبادئ، مواقف عظيمة تشهد على عظمة هذا الدين، وقوة أصحابه المتمسكين به، ومبادئ بلغت الدرجة العالية في المثالية بحيث يتحقق للإنسان فيه ما كان يعسر عليه، وفي هذا دلالة على سلامة العقيدة الإسلامية التي تجعل من المؤمن قوة لا تقهر.

وفي صبر المؤمن وتكيفه مع الدين نسجل ملاحظة فيها عبرة دائمة تتعلق بالوقت الذي يحلّ فيه شهر رمضان، فهو كما نعلم يمر بفصول السنة كلها على مدى الأعوام المتتالية، «وبسبب أن التقويم القمري ينقل رمضان من فصل إلى فصل، فإن المسلمين يصومونه في الصيف أحياناً، وحين يحدث ذلك في البلاد الحارة يصبح الامتناع عن الطعام والشراب خلال ساعات النهار الطويلة امتحاناً

(1) د. عائشة عبد الرحمن. الشخصية الإسلامية. ص88.

حقيقياً للإيمان»[1]، وبالطبع لن يكون في صعوبة الطقس مانع للمسلم من أداء فريضة الصيام لقدرته على التكيّف المطلوب مع الظروف التي يمر بها، ومثل هذا الموقف ردّ صريح على من يحاول أن يشكك في هذا الدين ويدعي بوجود التناقض بين الإسلام والمسلمين، فالمسلم حين يطبق شريعته ويؤدي عبادته على الوجه الصحيح فلن يستطيع أحد أن يشكك فيه ولا في دينه لأنه قدم الدليل الحيّ على التماسك بينه وبين الدين.

إن الإسلام حين يقيم بناءه الشمولي في العقيدة على أساس إنقاذ الإنسان من ظلمات الجاهلية، فإنه يفعل ذلك حتى لا يقع الناس فرائس الهوى والشيطان، وحتى يقوي الإنسان على المقاومة فإن الإسلام اهتم ببناء الضمير الذي يتحرك كل لحظة يمنع الخطيئة ويقدم الخير، فكان منهج الإسلام بهذه الكيفية يقوم على معالجة الواقع من منظور العبودية الخالصة لله وحده متجلية في الاعتقاد والعبادة، لهذا كان التوجه الإنساني بهذا الاندفاع الذي سجله التاريخ نحو الدين يعطي المدلول العملي الصحيح على سلامة الإيمان عند المسلم الذي لم تثنِهِ عقبة في سبيل نشر دينه

---

(1) روم لاندو. الإسلام والعرب. ص49.

لأنه حمل حقيقة الدين وهو يقدمه للناس، وذلك على أساس أن التصور العقدي الصحيح يتولد عن إدراك الإنسان في تلقيه لحقائق العقيدة. والتي يدرك عن طريقها حقيقة خلق هذا الكون وهو يمارس عبادته، ويدرك حقيقة نفسه، وهو متجه إلى الله، يتكيف تعامله مع هذه الحقائق من وعيه المستمد من عقيدته الثابتة التي أبانت له أصول السلوك حتى يشمل نشاط الحياة، متناسقاً مع العقيدة، والعبادة سبيل من سبل التنسيق الهادف إلى تحقيق الراحة والطمأنينة يعيشها المؤمن في دنياه ويبلغ كمالها في الدار الآخرة.

إن الصيام عبادة تكشف عن روح الدين الإسلامي في تعاملها مع الحقيقة، فما المرجوّ من الصيام أن يحققه؟. نقرأ قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1]، فتتبين أن الخوف من الله تعالى أول أهداف الصوم، وهل من غير مخافة الله نستطيع أن نؤدي أي عمل على وجهه الصحيح؟ يجيبنا الرسول ﷺ بقوله: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه».

فالعبادة إذن لا تتجرد من السلوك والأخلاقيات، ولأن

---

(1) سورة البقرة، الآية: 183.

الصيام عبادة شاقة، ما تتطلبه من الصائم الامتناع عن شهواته، والابتعاد عن اللغو، فكان في حاجة إلى أن يجيء الحديث عنه في القرآن الكريم فيه كثير من الترغيب والتحبيب؛ لتقبل عليه النفس راسخة الإيمان قوية اليقين، لا ترى فيه عبئاً ثقيلاً تنوء به، ولكن تراه نعمة وخيراً على المؤمنين، لأنه فريضة خالدة في كل دين، يصل القلوب بالله ويحملها على استشعار خشيته ومراقبته وتقواه»[1].

وإن الذي يستطيع ضبط موازين نفسه، بمقدوره أن يقوم على ضبط موازين المجتمع، فيسعى عاملاً إلى ما فيه خيره وصلاحه، وقد قامت تربية النفوس في الإسلام على أسس تعليم المرء كيفية القيام بتقويم نفسه وإصلاحها.

إن الذي ينتظر من المؤمن هو أن يقدم المدلول العملي لحيثية العبادة في الإسلام، وهو عندما يؤدي الصيام المفروض عليه والمندوب أو المشروع للكفارة، فذلك لأنه ينطلق من واقع إيماني نبع من صلب العقيدة الإسلامية.

وأما متى يقع الخوف على المسلم هنا؟ فذلك حينما تغدو العبادة مجرد عادة تؤدي دون إدراك لمعانيها وقيمها،

---

(1) د. محمد الدسوقي. الصيام في القرآن. ص32.

«وحينما لا تؤدي العبادة غايتها من صلاح الفرد والجماعة تقوى وخشوعاً وتواضعاً وتكافلاً، تؤدي كطقوس شكلية وحركات آلية فقد فقدت مغزاها وحكمتها، وكان منها للمرائين أقنعة زيف وتمويه، يشق بها على الناس أن يميزوا بين تقي وفاجر، بين مؤمن خاشع ومنافق دجال»[1]. ومن ثمّ يظهر الفرق بين صائم لله وصائم للمظهر، ولا شك أن من يصوم لكي يتذرع بالصوم لم يدرك معنى العبادة، ولم يتوصل بعد إلى فهم حقيقة الإيمان في الإسلام.

إن العقيدة الإسلامية تأصلت على فهم كل الأعمال التي نقوم بها، لأن أعمالنا تتصل بالدين، وإذا كان الدين يهدف إلى تحقيق العدل والحق والرحمة، فإننا ندرك هذه المعايير من العبادة، وعندما نصوم ونجاهد أنفسنا ونلزمها المصابرة، فإنه يكون بمقدورنا تجاوز القشور، فلا ينسحب علينا زيف الأباطيل.

وإن النفس الضعيفة التي ليس لها صبر على العبادة يعزّ عليها أن تفارق شهواتها في سبيل الله فلن تستطيع تحقيق الانتصار في ميادين الاختبار العملي عندما توضع معايير

(1) د. عائشة عبد الرحمن. الشخصية الإسلامية. ص185.

الإيمان وتقاس بها الأعمال. وأما النفس القومية بإيمانها وعبادتها فإن بوسعها التصدي والمقاومة والانتصار، «وإن المسلم في صيامه ليذكر حقّ الروح من شرابه وطعامه، ويذكر أنه ذو إرادة تأخذ بيدها زمام جسدها، ولا تترك لهذا الجسد أن يأخذ بزمامها ويتصرف بها على هواه، وأصح ما يكون الصيام الذي ينبه الضمير إلى هذه الحقيقة، أن يقدر المرء على ترك الشراب والطعام فترة من الزمن، ولا يكون قصده منها أن يستبدل شراباً بشراب، وطعاماً بطعام»[1]. وإلا لما كان الصيام الذي عرفناه في الإسلام.

وإن ما يتمخض عن هذه الحقائق في عبادة الصوم هو الإيمان باهتمام الإسلام المتنامي بالبناء النفسي والاجتماعي، والإرشاد نحو تحقيق المثل العليا التي من شأنها أن تقيم دعائم الحياة الإنسانية كما ينبغي.

وكيف لا يحدث هذا وقد أدّى المؤمن بصيامه واجباً مقدساً، تمثل في هذه العبادة الرمضانية الحبيبة إلى النفس والقريبة إلى القلب والمغذية للروح والمنظمة للنشاط.

يقضي المؤمن نهاره صائماً، ثم يجلس إلى مائدة

---

(1) عباس محمود العقاد. حقائق الإسلام وأباطيل خصومه. ص112.

إفطاره فرحاً لواجب أداه، ولنفس تهذبت، ولطعام أصبح الجسم في حاجة إليه يتلذذ به ليس من باب العادة الرتيبة لتناوله ولكن في وقت لا يستطيع أن يخلّ به.

وفرحة المؤمن بصيامه عند لقاء ربه بالأجر والثواب عظيمة فالصيام لله وهو سبحانه الذي يجزي به، فالعبادات الأخرى فيها الجانب الظاهري، فالصلاة تظهر بما فيها من حركات، والحج سعي وطواف، والزكاة عطاء يعلم بها من أعطيت له ـ على أقل تقدير، أما الصيام فلا يعلم به من حقيقة الأمر أحد إلا الله سبحانه وتعالى، ولأن عبادة الصوم يتجلى فيها الصدق كأنقى ما يكون فإنها تربي الضمير الإنساني.

وفي شهر رمضان تتحقق العدالة الاجتماعية في أبهى صورها، فكل المؤمنين صائمون، وهم يعلمون أن الصدقة في هذا الشهر ذات فائدة كبيرة، لأن الصائم كما أسلفنا يفرح عند إفطاره، والمسلم القادر على العطاء يهمه أن يفرح ذوو الحاجة من المسلمين عند إفطارهم، وفي هذا علاج للنفوس التي جرحتها الأيام، ونكبتها المصائب، واختبرها القدر، وعندما يرى المحتاجون أن أيدي الكرماء تمتد إليهم بالإحسان، فإن نفوسهم تطمئن إلى أن الخير في الحياة

موجود، وأن أهل البرّ حاضرون، وأن الفقر عدوّ تسهل هزيمته إذا تكافل أبناء المجتمع الواحد وتعاونوا على قهره، وأما إذا وجد الفقراء أن حالتهم المادية تسوء يوماً بعد يوم، وأن غيرهم يتمتع بترف لا حدود له، فإن الأحقاد تتولد في النفوس، ولا يعود أهل المال مطمئنين على ثرواتهم، ومن هنا شرعت الزكاة بصورة عامة في الإسلام، وفي رمضان شرعت زكاة الفطر حتى لا يظل هناك محروم ولا جائع نهباً لوساوس الشيطان من ناحية، ولا لذلّ الفاقة من ناحية أخرى، لأنه إذا لم يجد اليد الكريمة التي تمتد إليه بالإحسان فإنه سيفكر في أن يمدّ يده بالأذى، وهذا يتنافى مع مفاهيم ومبادئ الإسلام التي قامت على التعاون والتكافل وأوصت ألا يبيت مؤمن شبعان وجاره جوعان، ولذا كانت التقوى هنا الميزان الذي تتباين عنده الأعمال، وتظهر به مقادير الورع.

يتجنب المؤمن إيذاء الناس، بل إنه يصبر على أذاهم صبر القوي حتى يعرفوا أنه قوي النفسِ والقلب، وأنه باستطاعته الرد، ولكنه يعفو ويتجاوز، وهو في الوقت نفسه يعمل ما في وسعه لردّ الأذى ليس عن نفسه فقط، ولكن عن غيره كذلك، فالإيمان كله عدل ورحمة، ومن هنا تأتي

صفات المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم وتعاونهم.

إن العبادة أمانة، وأداء المؤمن لها معناه أن يقوم بأداء الأمانة التي رغب في تحملها، وصيامه أداء لهذه الأمانة، وتصبح من ثم مصدر طمأنينة له، ومد يده بالزكاة والصدقة وفاء بأداء هذه الأمانة، وحفظ الأمانة والقيام بها من شيم المؤمن لأنه في هذه الحالة يقيم الحق ويدافع عنه، وقوم يحفظون الحقوق بينهم جديرون بحب الله ورحمته وحبّ المؤمن لأخيه المؤمن، يؤصل الإيمان في نفسه، لأن هذه العاطفة الإنسانية السامية لا تقوم على مجرد العبارات والألفاظ المنمّقة، ولكنها تحقق بوجوه البرّ والعطف حيث تصل إلى الأهداف النبيلة التي تتكامل فيها جوانب البناء في المجتمع.

والإسلام على هذا النحو يغرس في نفوسنا المبادئ العملية العظيمة حتى تكون منهاجاً في حياتنا، وتهيئ السبيل السليم الموصل إلى الآخرة، وحرص المؤمن على عبادته هو في الوقت نفسه حرصه على دينه، وكونه سلك الطريق الصحيح بينه وبين الله تعالى، فإن عليه أن يسلك الطريق الصحيح بينه وبين المؤمنين.

وفي شهر رمضان الكريم تتقارب النفوس وتتهذّب، وتنجلي القلوب وتطهر الأرواح، وتسمو الضمائر، ولأن المؤمن اهتدى إلى كيفية الانتصار على نفسه فإنه لن يتأخر عن بذل جهده لإسعاد الآخرين، لأنه ابتعد عن الأنانية وأحبّ الفضيلة، واقتنع بأن الظلم والفساد من نتائج الضمائر الميتة التي لا تتحرك مع دواعي الخير.

وينهي شهر رمضان وقد أدى المؤمن ما عليه من صيام وصدقة ويطل يوم الفرحة الكبرى، يوم عيد الفطر المبارك، يوم الأيدي المتصافحة والقلوب المتآلفة والوجوه المشرقة التي تعلوها الابتسامات الصادقة النابعة من الأعماق، ويزداد شعور المؤمنين بعزتهم وكرامتهم، وهم يرفعون أصواتهم بالتكبير والتهليل، وفي هذا اليوم يتبلور شعور الصائم بالمتعة والصفاء في أدائه للعبادة وقد حمل إلى نفسه اليقين، ودعاها إلى الخير لأنه ينظر بعين الجماعة، فالنوازع الدنيوية الذاتية لا تجد مكانها إلى قلوب المؤمنين، ولأن العبادة تساهم بدرجة كبيرة في هذا الالتقاء فإن الصيام يعدّ من العوامل التي تنقي القلوب وتكبح الشهوات وتقوي البناء.

وأما الذي يجب ألا ننساه فهو ما ينبغي علينا من جعل

تأثير شهر الصيام مستمراً في نفوسنا وفي حياتنا، وإذا كان عمل الخير يزداد في رمضان ويتضاعف، إلا أنه ليس مقتصراً عليه وحسب، بل يجب على المؤمن أن يظل كريماً ودوداً عطوفاً ما أمدّ الله تعالى في عمره.

الحج.. الرحلة الخالدة

سهل أن نقرأ ونسمع، والأسهل أن يمر الإنسان على ما يقرأ وما يسمع، ولكن هل من السهل أيضاً أن نفكر فيما نقرأ ونعي ما نسمع؟!

إن التدبر فيما بين أيدينا وما يحدث أمامنا واجب، كي لا يضيع التأثير الإيجابي الذي ينبغي أن يحدث في نفوسنا، ونحن نعلم أن الإسلام مبني على عقيدة التوحيد والعبادة، وهذا العلم ينبغي أن تتلمسه كل جارحة فينا، ليكون التطبيق العملي لقواعد الإسلام مبنياً على العلم والفهم والاقتناع، لا أن يترك العلم فينا انطباعات فاترة، وتأثيرات قلما تصل إلى الأعماق، «فالدين يدعو الإنسان إلى أن ينشد الحقيقة بقلب متفتح وبصيرة صافية لا بتحيز أو تقليد أعمى، وليس الدين مجرد لفظ للعقيدة، أو القيام بسلسلة من الأفعال

والشعائر، إن هذه الأشياء تعابير ووسائط ضرورية، ولكنها ليست نهايات في أنفسها، إن العبادة خدمة مخلصة واشتغال بالنافع طول الحياة، والدين الصحيح - إذن - هو الإيمان الحق بالله، والإخلاص لله وللحقيقة، والانشغال بصالح الأعمال»(1).

فالعمل المبني على صدق الإيمان يكون غرساً متأصلاً نامياً يؤتي ثماره الطيبة، ذلك أن الإيمان يحمل النفس على الاستجابة لدواعي الخير كلما أهابت بها المواقف الإنسانية، فإذا تركت العبادة الأثر الإيجابي في النفوس - وهي لا تترك إلا هذا والقضية تظل متعلقة بالنفوس - فإنها تصلح وتستقيم، ويكون بمقدور الإنسان وقد أصلحته العبادة أن يجابه نزغ الشيطان ومقاومة هوى النفس.

إن الإيمان يدفعه إلى الصبر على العبادة وعمل الخير، ويعوده كرم النفس، ويطبع نفسه على كراهية المعصية، ذلك لأنه يندفع إلى الخضوع لأمر الله فيبادر إلى تنفيذ الاستعدادات الكامنة فيه، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى

---

(1) د. رضا شفق: الثقافة الإسلامية. ص370.

ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[1].

ومن حقائق الإسلام التي أصلت البناء الإنساني دفع المسلم إلى تزكية نفسه، لأن افتقاد النفس إلى الطهارة المطلوبة يجرد العمل الذي تقوم به من محتواه، أما إذا تلازم العمل مع طهارة النفس فإن القيمة تنبع من هذا التلازم، ونستطيع القول إن ضياع هذه الحقيقة يجعل عبادة من لم يزكوا أنفسهم نوعاً من الفساد الملفوف، لأن النيات المدخولة والقلوب الحالكة لا يصلح معها أبداً تزكية للنفس، ومن هنا كانت النية الصادقة أساس العمل في الإسلام، ومن ثم فإن شرط العبادة ألا يقصد بها غير وجه الله تعالى، «وقد امتازت عبادات الإسلام بين عبادات الأديان بمزية لا نظير بالنظر إلى حقيقتها أو بالنظر إلى جماهير المتدينين بها، وتلك مزيته البينة التي ترعى استقلال الفرد في مسائل الضمير خير رعاية تتحقق لها في نظام الحياة»[2]، حيث لا يقف إنسان على عبادة آخر فيقدر ما له أو ما عليه، وحيث يقوم المسلم نفسه بالصلاة في

---

(1) سورة النور، الآية: 51.

(2) عباس محمود العقاد. حقائق الإسلام. ص113.

الزمن المحدد وفي المكان الذي يتواجد فيه ويصوم ويخرج زكاته المقدرة، ويحج في الوقت الذي تتوافر فيه الشروط.

يقصد المسلمون القادرون بيت الله الحرام في كل عام طائعين مخلصين، فالحج ركن من أركان الإسلام، لا يجوز لمسلم توفرت لديه إمكانات الوصول إلى المكان المعين أن يتأخر عن هذه العبادة.

ومعنى أن يتوجه المسلمون إلى تلك البقعة الطاهرة إقرار أكيد على الإيمان بالله بتنفيذ أوامره، ولا يقبل أي مسلم أن يتهاون في العمل بتعاليم الإسلام، وإلا فما معنى الإيمان بدون العمل.

إن المعاني الكبيرة وراء الحج إلى بيت الله تتطلب منا رحلة نفسية وعقلية تصاحب رحبة الحجيج، يبدأ المسلم رحلة الجسد والروح، يترك أهله وأحبابه، يغادر وطنه متحملاً مشاق الرحلة وأعباءها، يرفع يده عن أمواله وممتلكاته في سبيل تلبية الأمر الإلهي العظيم ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[1]. وأمام هذا الهدف المقدس يضع أمور دنياه

---

(1) سورة الحج، الآية: 27.

جانباً حتى يتم ما سعى إليه، أملاً في زيادة النقاء والطهارة النفسية، وعلى هذه الاعتبارات «فإن الحج تجربة عاطفية سامية، وعندما يتخذ الشخص قرار الذهاب إلى الحج، ويترك بيته بغية هذا الهدف النبيل، فإن فؤاده وعقله يكونان مسلوبين بوجدان عميق، وإذا به يترك كل شيء وراء ظهره لإيمانه العميق بحبّ الله، غير آبه بالمشاق والمخاطر التي قد يتعرض لها، وذلك كله استجابة لنداء الله حين ارتحاله إلى الوادي القاحل، أملاً ورجاء في الفوز بهدى الله ورضاه»[1].

فجهز من أجل رحلته عدته، وتزود من خير ما يتزود به المؤمن تنفيذاً لأمر الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾[2]، ونظر ببصيرته إلى ذلك اليوم العظيم ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[3]، وآمن إيماناً لا يتزعزع بعظمة ذلك اليوم، وهول ما يحدث فيه ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ

---

(1) د. محمد ظفر خان. الإسلام والإنسان المعاصر. ص122.

(2) سورة البقرة، الآية: 197.

(3) سورة الشعراء، الآية: 89.

ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[1]. أليس كل هذا كافياً للعظة والعبرة، وللعمل للدار الآخرة؟!

ومن هنا كان تجرد المسلم في الحج من كل زينة تلهيه عن عبادته، فيلبس للإحرام أمتاراً من قماش بسيط، تتساوى فيه طبقات الناس على مختلف ألوانها ومشاربها ومستوياتها، وتباين طبقاتها ومنازلها، حيث يكون الشعار الأعظم ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾، فليس لأحد أن يرفع عقيرته مفاخراً بروائع الثياب ولا بفخامة المظهر، لأن المسلم متجه بجوارحه في رحلة خالدة ملبياً نداء ربه، ومؤكداً بعمله ما ينطق لسانه «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك».

إذن فقد وعى المسلم وعياً أن الأمر كله لله، وأنه في هذه الدنيا يجب أن يسخر نفسه للنفع والخير ليتمثل معنى الأخوة كما يريده الدين، «وإذا كان الإسلام ديناً يدعو الناس كافة إلى عبادة ربّ العالمين، فالحج هو الفريضة التي تتمثل فيها الأخوة الإنسانية على تباعد الديار واختلاف

(1) سورة الحج: الآية: 2.

الشعوب والأجناس، وهي في اصطلاح العرف الشائع بمثابة صلة الرحم، وتبادل الزيارة بين أبناء الأسرة الواحدة يجمعها الملتقى في المكان الذي صدرت منه الدعوة إليها، وهو أجدر مكان في بقاع الأرض أن يتم فيه هذا اللقاء»[1].

معنى ذلك أن الإسلام جعل من العبادة رابطاً إنسانياً واجتماعياً، فيطمئن المسلمون إلى بعضهم، وقد صفت نفوسهم بإيمان عمر قلوبهم ذلك أنهم صدقوا في أداء العبادة، ولنأخذ تجرد المسلم من المخيط والمحيط ليكون مثلاً على تنقية النفس وتقريبها من النفوس الأخرى، يعيش الكثير من المسلمين قبل الحج وقد ازدهتهم الحياة بشيء من محاسنها، ويكون الملبس داعياً إلى شيء من التفاخر، ولكن المسلم في بيت الله، يعيش ساعة يتذكر معها أن هذه الدنيا وما فيها من زخرف ومتاع إلى زوال وفناء، فتصغر في عينيه، ويعلم أنه ما كان مصيباً عندما خامره شعور التفاخر بالمظهر، ويكون له في تذكره لحقيقة العبادة في الحج نبعاً يتزود من معينه الذي لا ينضب لأنه نبع يرفد إيماناً شغل القلب كله، لأنه ذهب في سبيل الله، «فيذهب إلى الحج لا ليغتنم من أحد بركة أو نعمة يضيفها عليه، ولكنه يذهب

(1) عباس محمود العقاد. حقائق الإسلام. ص113.

إليه كما يذهب الألوف من إخوانه، ـ امتثالاً لأمر الله ـ ويشتركون جميعاً في شعائره على سنة المساواة بغير حاجة إلى الكهانة والكهان، وقد يكون السدنة الذي يراهم مجاورين للكعبة خداماً لها وله يدلونه حين يطلب منهم الدلالة، ويتركهم إن شاء فلا سبيل لأحد منهم عليه»[1].

إعداد متقن يقوم المسلم به يتذوق من خلاله حلاوة الإيمان، يسير في طريق واضح لا عوج فيه، ومن هنا كانت حقيقة ثابتة من حقائق العبادة في الإسلام، أن يحاسب المسلم نفسه، فيسد الطريق في وجه الشيطان، ذلك لأن الإيمان والمعصية لا يجتمعان في قلب واحد؛ ولذلك فإن نتيجة الصراع ستكون في صالح الإيمان، لأن المؤمن لا يعرف الاستسلام، ولا يركن إلى الضعف، وخوف الشيطان لا يعرف طريقه إلى قلبه، الذي احتفل بالخوف من الله فقط، فحرصه على أداء العبادة نتيجة حتمية لحبه طاعة الله، ورحلته إلى الأرض المقدسة تأكيد لهذا الحب الذي خلدته طاعته، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2] حقيقة خالدة وعاها المسلم بكل كيانه، وعمل

---

(1) عباس العقاد. حقائق الإسلام. ص27.

(2) سورة الذاريات، الآية: 56.

على أن يجعل من حقيقة العبادة في الإسلام رصيداً لحضارة إنسانية قوامها الخلق والسلوك، فإظهار عبوديتنا سلاح فعليّ يتعزز به وجودنا، فلا خوف مع الإيمان، ولا حزن مع التقوى ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾[1]، وتتسع كلمة الأولياء هنا لتشمل كل المؤمنين العاملين على أن تظل كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

من هذه المفاهيم المشرقة روحاً ومعنى كان الدور الهام الذي أنيط بعبادة الحج أن تنجبس عنه، حيث يرتحل المسلم ساعياً باحثاً عن درب ملؤه الإيمان، وعن معرفة موصلة إلى الحق، يطوف بالبيت العتيق متلمساً بيد التقوى باب التوبة ليتألق تواجده الروحي والذهني، ولا شك أن من بين الأهداف السامية التي رصدها الإسلام للعبادة هو «تذكير الإنسان بوجوده الروحي وتذكيره بوجود أسمى من وجوده وأبقى، وإذا كان تحقيق الغرض من العبادة هو ميزان الفضائل بين الشعائر التوقيفية، فحبّ الإسلام من مزاياه في شعائره أن يوفق بين أوضاعها وأغراضها هذا

---

(1) سورة يونس، الآيتان: 62 و63.

التوفيق، لو لم تكن له مزية أخرى»[1]، فما بالنا إذا عرفنا أن في كل تشريع إسلامي مزية، فالحج ليس أقوالاً وأفعالاً مجردة من المعاني العظيمة، والإسلام يربأ بالعبادة أن تتجرد من معانيها وأهدافها، لأنها بذلك سوف تغدو مجرد عادة يقوم بها المسلم دون وعي أو إدراك لقيمتها، ونظرة بإمعان حول ما يرد حول هذه العبادة من حقائق رائعة تدلنا على الأثر الفاعل الذي تحدثه العبادة في المجتمع، من بناء إنساني واجتماعي. يدلنا القرآن الكريم على الإجابة، فيقول الله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾[2].

وتنفيذ أمر الله حسب وروده في الآية ملزم على التقاء المسلمين حول ما ينفعهم، ويبني حياتهم، كما يبين مدى الاهتمام الذي يكشف عنه القرآن في إطار البنية الاجتماعية، حيث يجب أن ينظر الإنسان إلى أصحاب الحاجة البائسين بعين الاهتمام والعمل على حلّ مشاكلهم

---

(1) عباس العقاد، حقائق الإسلام في أباطيل خصومه. ص113.
(2) سورة الحج، الآيتان: 28 و29.

المادية، حتى لا تأتي نوازل الأيام على ما بقي في نفوسهم من أمل في حياة فاضلة.

كما أن على المسلم أن يظهر بالمظهر الحسن اللائق، فهذا جانب له اعتباره، حتى لا يتخذ المغرضون من المظهر السيئ حجة لتشويه الإسلام مدعين أنه يدعو إلى ذلك، فالإسلام دين الطهر والنظافة، لهذا جاء الاستنكار والتوبيخ حادّين لمن ادعى أن الإسلام يمنع طيبات الحياة على الإنسان، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1].

وكذلك هو درس عظيم مقدم الحج لتقارب المسلمين. وكيف أنهم بتجمعهم المنظم الهادف يصبحون أقوياء، يرهبهم العدو، وينتصر بهم المظلوم، وعلى هذا «فالحجّ نوع من السلوك ولون من ألوان التدريب العملي على مجاهدة النفس من أجل الوصول إلى المثل الأعلى الذي ينشده الإنسان الفاضل في هذه الحياة»[2].

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 32.

(2) د. محمد ظفر خان. الإسلام والإنسان المعاصر. ص126.

وهكذا استطعنا أن نتلقف من الحج معاني الإيمان، وأن نكتسب مزيداً من القيم والمثل الإنسانية العليا نرفعها في أيدينا مشاعل تضيء الطريق، ويظل ما عرضنا له غيضاً من فيض تجود به حقيقة العبادة في الإسلام.

الخاتمة

وبعد. . .

فإن عقيدة المسلم تقوم على الإيمان الكامل، ويترتب على هذا الإيمان مسؤولية التنفيذ العملي لأحكام الدين، فالإيمان لا يتجرد من العمل، وقد بين القرآن الكريم السلوك والأخلاق التي يجب أن يكون عليها المسلم كأمر طبيعي يترتب على الإيمان، وضرب الرسول - ﷺ - الأمثلة العملية في حياته لطريق الإيمان الصحيح، وما كان انتصار المؤمنين في كل موقعة خاضوها إلا لصدق إيمانهم.

ويطلب الإسلام من كل مسلم أن يكون نموذجاً في حياته، جديراً بأن يقدم لكل الناس انطباعاً حقيقياً عن الإسلام، فيقدم لهم حقيقته من خلال سلوكه وتصرفاته التي

تنبثق من آداب العبادة في الإسلام، ولأن العبادة ليست فقط حركات تؤدى أو أقوالاً تردد، فلا ينبغي أن تقف عند هذا الحدّ، بل يجب أن يمتد تأثيرها إلى شعب الحياة الإنسانية، فتترسخ العقيدة، وتؤسس النظام الاجتماعي الذي يفترض أن يقوم على العدل والحق والمساواة.

وعندما يعي كل مسلم الحقائق التي تقف وراء العبادة في الإسلام فإن التغيير سوف يصل إلى الجوهر، وتعود للمسلمين عزتهم وكرامتهم، وكون المسلم مؤمناً يلزمه أن يعمل جاداً على تمكين الدين من إصلاح الحياة، فالإسلام بكل ما فيه من شرائع ومبادئ منهاج قويم يبني الحضارة الإنسانية على الأسس العلمية الصحيحة بحيث يجد الإنسان راحته فيها، ويعمل من خلال حياته للدار الآخرة.

مراجع البحث

1 ـ آفاق قرآنية ـ د. عماد الدين خليل ـ دار العلم للملايين ـ ط1. بيروت ـ 1979.

2 ـ الله ـ عباس محمود العقاد ـ دار المعارف ـ ط5 ـ القاهرة.

3 ـ إسلام بلا مذاهب ـ د. مصطفى الشكعة ـ دار النهضة مصر ـ ط4 ـ القاهرة ـ 1972.

4 ـ إسلام الحرية لا إسلام العبودية د. حسن صعب ـ دار العلم للملايين ـ ط1 ـ بيروت 1974.

5 ـ الإسلام دعوة عالمية ـ د. عباس محمود العقاد ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ 1974.

6 ـ الإسلام والإنسان ـ د. حسن صعب ـ دار العلم للملايين ـ ط1 ـ بيروت 1981.

7 ـ الإسلام والإنسان المعاصر ـ د. محمد ظفر خان ـ

ترجمة محمد جلال شرف ـ دار النهضة العربية ـ بيروت 1981.

8 ـ **الإسلام وتحديات العصر** ـ د. حسن صعب ـ دار العلم للملايين ـ ط3 ـ بيروت ـ 1974.

9 ـ **الإسلام والعرب** ـ روم لاند ـ ترجمة منير البعلبكي ـ دار العلم للملايين ـ ط2 ـ بيروت 1977.

10 ـ **الإسلام والنصرانية** ـ محمد عبده ـ مطبعة محمد علي صبيح ـ القاهرة ـ 1954.

11 ـ **الإنسان ذلك المجهول** ـ الكسيس كاريل ـ ترجمة شفيق أسعد فريد ـ مكتبة المعارف ـ بيروت.

12 ـ **الإنسان في القرآن** ـ عباس محمود العقاد ـ دار الكتاب اللبناني ـ ط1 ـ بيروت 1974.

13 ـ **تاريخ الفكر العربي** ـ د. عمر فروخ ـ دار العلم للملايين ـ ط2 ـ بيروت ـ 1979.

14 ـ **تجديد الفكر العربي** ـ د. زكي نجيب محمود ـ دار الشروق ـ ط2 ـ بيروت ـ 1973.

15 ـ **تجديد في المسلمين لا في الإسلام** ـ د. عمر فروخ ـ دار الكتاب اللبناني ـ ط1 ـ بيروت ـ 1981.

16 ـ **التفكير فريضة إسلامية** ـ عباس محمود العقاد ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ 1974.

17 ـ **الثقافة الإسلامية** ـ مجموعة من المؤلفين ـ جمع

ومراجعة: محمد خلف الله أحمد ـ مكتبة النهضة المصرية ـ ط2 ـ القاهرة ـ 1962 .

18 ـ **الجانب الإلهي في التفكير الإسلامي** ـ د. محمد البهي ـ دار الفكر ـ ط5 ـ بيروت ـ 1972 .

19 ـ **الحضارة العربية** ـ د. محمد شكري عياد ـ دار الكتب العربية للطباعة والنشر ـ القاهرة 1967 .

20 ـ **حقائق الإسلام وأباطيل خصومه** ـ عباس محمود العقاد ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ 1974 .

21 ـ **الحياة الأخرى** ـ عبد الرزاق نوفل ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ 1975 .

22 ـ **دراسات في القرآن** ـ د. السيد أحمد خليل ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ـ 1969 .

23 ـ **دراسة في السيرة** ـ د. عماد الدين خليل ـ مؤسسة الرسالة ـ ط3 ـ بيروت ـ 1978 .

24 ـ **الدوحة (مجلة)** ـ عدد فبراير ـ 1980 .

25 ـ **الرسول القائد** ـ محمود شيت خطاب ـ دار مكتبة الحياة ـ ط2 ـ بغداد ـ 1960 .

26 ـ **الشخصية الإسلامية** ـ د. عائشة عبد الرحمن ـ دار العلم للملايين ، ط3 ـ بيروت ـ 1980 .

27 ـ **فقه السيرة** ـ محمد الغزالي ـ دار إحياء التراث العربي ـ ط7 ـ بيروت ـ 1976 .

28 ـ الفلسفة القرآنية ـ عباس محمود العقاد ـ دار الكتاب اللبناني ـ ط1 ـ بيروت ـ 1974 .

29 ـ في صحبة النبي ـ د. محمد صالح البنداق ـ دار الآفاق الجديدة ـ ط2 ـ بيروت ـ 1979 .

30 ـ قصة الصراع بين الدين والفلسفة ـ د. توفيق الطويل ـ دار النهضة العربية ـ ط2 ـ القاهرة ـ 1979 .

31 ـ القرآن والمجتمع الحديث ـ عبد الرزاق نوفل ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ 1974 .

32 ـ ما يقال عن الإسلام ـ عباس محمود العقاد ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ 1974 .

33 ـ المجددون في الإسلام ـ أمين الخولي ـ دار المعرفة ـ ط1 ـ القاهرة ـ 1965 .

34 ـ محمد في المدينة ـ مونتجمري وات ـ ترجمة: شعبان بركات ـ المكتبة العصرية ـ صيدا .

35 ـ محمد في مكة ـ مونتجمري وات ـ ترجمة: شعبان بركات ـ المكتبة العصرية ـ صيدا .

36 ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ وضعه: محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار مطابع الشعب ـ القاهرة .

37 ـ مع الفكر الإسلامي ـ محمد شاهين حمزة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ 1970 .

38 ـ مع القرآن في عالمه الرحيب ـ د. عماد الدين خليل ـ دار العلم للملايين ـ ط2 ـ بيروت ـ 1980 .

39 ـ منهج الإسلام في تربية المجتمع ـ د. عبد الفتاح عاشور ـ مكتبة الخانجي ـ ط1 ـ القاهرة ـ 1979 .

40 ـ نظرات في سورة الرحمن ـ عبد الكريم الخطيب ـ مؤسسة أخبار اليوم ـ القاهرة.

41 ـ وجهة العالم الإسلامي ـ مالك بن نبي ـ ترجمة: عبد الصبور شاهين ـ دار الفكر ـ ط2 ـ بيروت ـ 1970 .

42 ـ وعود الإسلام ـ روجيه غارودي ـ ترجمة: ذوقان قرقوط ـ مطبعة الوطن العربي ـ بيروت ـ 1984 .

الفهرس





WORLD ISLAMIC CALL SOCIETY
Association Mondiale de L'Appel Islamique